



صورة مجنون لبلى بين الحيوانات في الصحراء . من عمل المصور ميرك في مخطوط من قصائد  
 الشاعر نظامي محفوظ بالمتحف البريطاني ومكتوب بقلم الخطاط الإيراني المشهور شاه محمود  
 نيشابوري . وقد بدأه للشاه طهماسب في تبريز سنة ١٥٣٩ وانتهى من كتابته سنة ١٥٤٣  
 [ أنظر : مقال في الفن الإيراني صفحة ٢٢٩ ]



# المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثالث والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٨

٣ جادى الاولى سنة ١٣٥٧

## تفسير طبائع العناصر

بعدد الكهربات وترتيبها حول النواة

ما السر في ليونة الذهب وقساوة الكربون وسير التيار الكهربائي

للفلزات اوصاف هي قوام شخصيتها على ما نحو ما للناس اوصاف بها يتميز انسان عن آخر. فبعض الفلزات كالذهب والفضة والنحاس ليس يمد اسلاكاً ويطرق رقوقاً لا تزيد سماكة احدها على جزء من الف جزء من البوصة ومع ذلك تظل اجزاؤها متصلة مرتبطة ببعضها ببعض. هذه الفلزات هي خير موصلات الكهرباء المعروفة. وهناك فلزات اخرى كالنفسنتين والقيناديوم والكروم والزموت قاسية لاتلين فاذا طرقت بمطرقة تفرقت اجزاؤها كسراً او تهاوت مسحوقاً. ولكن سلكاً من النفسنتين هو خير ما يُرْعَب فيه للمصابيح الكهربائية المتوهجة، لان هذا الفلز موصل رديء للكهربائية فقاومته لسريان تيارها فيه يرفع حرارته حتى تبلغ درجة البياض. ومن بواعث الاغبط ان درجة انصهاره عالية جداً

ولا يخفى ان الفلزات النقية عناصر كيميائية كالعناصر الاخرى — كالكربون والكبريت والنيون. فهل كشف العلم اسلوباً من الاساليب يمكنه من تفسير هذه الخواص التي تميز شخصية عنصر عن شخصية عنصر آخر او يجب ان نسلم بانها خواص اُغِدَتْها عليها الطبيعة وكفى. اني وسع العلم ان يفسر السر في ان الالماس — وهو كربون صرف — اقصى المواد المعروفة على الاطلاق ومانع لسريان التيار الكهربائي فيه. او ان النيون غاز والكبريت تصف قابل للتفتت ومازل



جيد ؟ وهل نستطيع ان نكشف عن السبب في لين النحاس وحسن توصيله للكهربائية ، وقساوة التيتانيوم وكونه موصلًا رديئًا لها ؟

ان السلوك الانساني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعوامل الوراثة التي تضبط الصفات الوراثية وكذلك تصرف العناصر مرتبط على ما يلوح بالكهربيات (الكهارب او الالكترونات). وقد انقضى اكثر من قرن من الزمان منذ أثبت دلتن ان اقوام العناصر ذرات atoms وان ذرات كل عنصر متشابهة فاذا اخذنا شذرة من الذهب ونظرنا اليها فانما ننظر الى ملايين الملايين من ذرات الذهب مرتبة على نمط خاص وكل ذرة منها مرتبطة بالذرة الاخرى بطريقة خفية . وفي الالاماس كذلك نجد هذا الترتيب ترتيب الذرات وهو أدق نظاماً منه في الذهب

فما هو العامل الذي يعين هذا الترتيب ؟

والجواب : هو عدد الكهرباء وترتيبها

نفذ العلم في العصر الحديث الى الذرة ، فكشف ان الذرة ليست كرة قاسية بل هي في نظر علمائه نظام معقد البناء . وقد تشبّه كل ذرة بجماعة من الجنود في حالة المناورة . فالجماعات الكبيرة يقابلها بين الذرات ذرات العناصر الثقيلة . والجماعات الصغيرة تقابلها ذرات العناصر الخفيفة . وفي قلب الجماعة تتركز القوة يقابلها في الذرة نواتها حيث تتركز الكتلة . وعلى حواشي الجيش الكشافون والحراس يقابلهم في الذرة الكهرباء التي تدور في مدارات بعيدة عن النواة . فذرات العناصر الخفيفة تجد فيها عدد الكهرباء الخارجية قليلاً ، على نحو ما نجد الكشافين والحراس الذين يحيطون بجماعة صغيرة من الجيش قلائل . وأما ذرات العناصر الكبيرة فتجد فيها الكهرباء الخارجية كثيرة ولها اكثر من مدار واحد على نحو ما يتحرك الكشافون الكثر حول جيش كبير في مناطق متراكة متعددة . وكذلك نستطيع ان نتخيل الذرة كتلة مركزية تعرف بالنواة ، صغيرة الحجم كبيرة الكتلة ، تحيط بها على مسافات منها الكهرباء ، وعدد هذه الكهرباء يتفاوت وفقاً لكتلة النواة

الى هذه الكهرباء الخارجية المرد في فهم خواص العناصر . فالكشافون في كل جيش منظم ، لهم مواقع معينة يتربصون فيها . وكذلك في ذرات العناصر . فخارج النواة مناطق او كرات مفرغة خيالية تتحرك الكهرباء فيها . وكل منطقة منها لا تتسع لآكثر من ثمانية كهربيات الا المنطقة الاولى فانها تكتفي احياناً بكهريين . فاذا تم العدد في المنطقة الاولى التي حول النواة ، وكان لذلك الذرة اكثر من كهريين ، وجب على الكهرباء الباقية ان تنتظم في منطقة تالية خارج المنطقة الاولى . فاذا احتشدت المنطقة الثانية بثمانية كهربيات وكان للذرة اكثر من عشرة كهربيات وجب على الكهرباء الباقية ان تنتظم في منطقة ثالثة وهلم جرا



على ان بعض العناصر له من الكهريات ما يؤلف منطقة كاملة او منطقتين كاملتين. فالذرة في هذا العنصر كاملة قوى الدفاع. لا تحتاج الى نجدة من غيرها. فتسير في طريقها مستقلة عن رفاقها. واذا كان تركيبها الكهربائي، يميزها بهذه الصفة، فتجتمع الذرات التي من هذا القبيل تمتنع، والمادة التي ذراتها على هذا النمط تكون غازات. ومن هذه العناصر الهليوم والنيون والارجون وهي الغازات التي لا تتفاعل تفاعلاً كيميائياً الا بالقوة. فللهليوم كهريان يؤلفان منطقته الاولى. والنيون عشرة كهريات تؤلفان منطقتين حول نواته اولاهما فيها كهريان والثانية فيها ثمانية. إن هذه الكهريات التي خارج النواة، تقوم بحراسة النواة، فتثبت في أماكنها، إلا اذا أصابها قوة فائقة تبعدها من أماكنها ولكنها لا تلبث حتى تعود إليها. والعالم يفسر التالى الملون في غاز النيون بحركة هذه الكهريات وقد ابتعدت من أماكنها بقوة التيار الكهربائي ثم عادت إليها واذا كانت الغازات (النبيلة) كالنيون والارجون متصفة بالاكتفاء الذاتي في ذراتها، والميل الى العزلة فلا تتجمع هذه الذرات، فان الاماس يخالف هذه الغازات على خط مستقيم، ذلك ان ذراته لا يسعها ان تعيش وحدها، بل هي أبداً متشابكة بالذرات الاخرى متعاونة معها والاماس كما تعلم كربون صرف. ولذرتيه ستة كهريات يحيط بالنواة اثنان منها في المنطقة الاولى حول النواة والاربعة الباقية في المنطقة التالية. ولكن منطقة الكهريات حول النواة لا تستقر الا اذا اصبحت تحتوي على ثمانية كهريات. واذن فالذرة من الكربون تسعى بطبيعة تركيبها الى ان يصبح حولها ثمانية كهريات. ولما كانت كل ذرة كربون من هذا القبيل فمن الطبيعي ان تتعاون الذرات معاً على الاشتراك في تحقيق مطالب بعضها بعضاً. وهذا الاشتراك يكون على الطريقة التالية: في الوسط ذرة كربون حول نواتها اربعة كهريات. فاذا كانت ذرة اخرى على مقربة منها تجاذبت الذرتان فتشتركان في كهريتين. فاذا كانت الذرة الاصلية اربع ذرات استطاعت ان تشترك مع كل منها في كهريتين فتصح ومنطقة كهرياتها كاملة العدد اي فيها ثمانية كهريات. أما الذرات التي حول ذرتنا الاصلية فتسعى بالطريقة نفسها الى التعاون مع ذرات اخرى وكذلك تتشارك الذرات جميعاً. (أنظر الصورة) ولما كان هذا الفعل لاحقاً له فخرج بالورة الاماس لاحقاً له كذلك من الناحية النظرية. فاذا أدركنا هذا التماسك بين ذرات الكربون، وكيف تشبك باشتراكها جميعاً بعضها في ذرات بعض فهمنا سر قساوته الا ان هناك مسألة لا بد من تفسيرها في اشتباك هذه الكهريات بعضها ببعض في ذرات الكربون. فالعلوم ان الكهريات سالبة الكهربائية. والدقائق المشحونة شحنة كهربائية من نوع واحد تتنافر وتتبعد. فكيف تستطيع هذه الكهريات في ذرات الكربون المختلفة ان تتشارك وتتماسك على نحو ما فسرنا ووضحنا في الرسم. والرأي ان هذه الكهريات تدور على



محاورها دوراناً سريعاً جداً فتنشئ في دورانها حقلاً مغنطيسياً حولها . فإذا كان كهربيان من ذرتين متجاورتين يدوران في اتجاه واحد دفع أحدهما الآخر ، أما إذا كانا يدوران في اتجاهين متناقضين فإن الحقلين يشتبكان فيتماسك الكهربيان

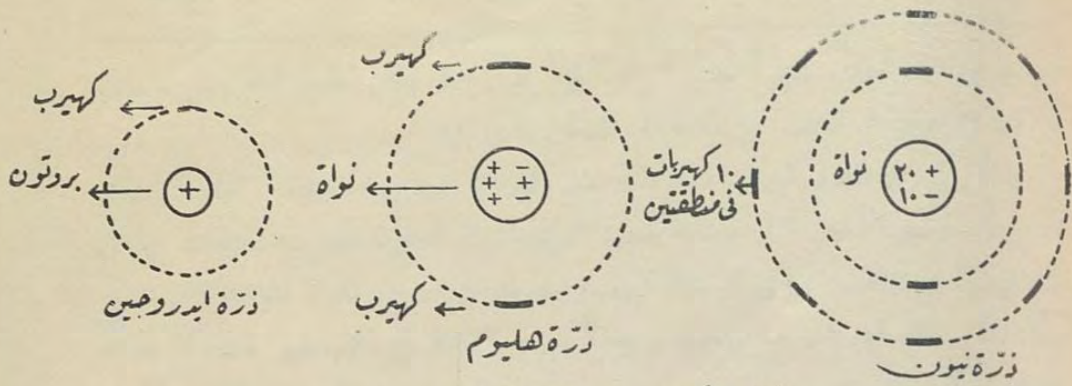
أما عنصر السليكون فذرتة أثقل من ذرة الكربون وأكبر وفيها ١٤ كهرباً . فائتان فثمانية منها تنشئ حول النواة منطقتين مستقرتين مكنتيتين ، والأربعة الباقية تكون حول المنطقة الأولى غير مكنتية ولا مستقرة ، بل تميل إلى الكمال نفسها على نحو ما تفعل ذرة الكربون ولذلك نجد أن صفات الكربون والسليكون متشابهة . وعلى ذلك يستطيع أن ترتبط ذرة من الكربون بذرة من السليكون كما ترتبط ذرتان من الكربون أو من السليكون . فإذا ارتبطتا كان لنا كارييد السليكون (كاربورندوم) وهو يكاد يجاري الألماس قساوة ويستعمل للحك (abrasion) . واذن يصح أن نقول أن العناصر التي ترتبط ذراتها هذا النوع من الترابط هي على العموم مواد قاسية قصفة فإذا التفتنا إلى الفلزات رأينا ذرة النحاس ولها في منطقتها الخارجية — أي في أبعد مناطق الكهربات عن النواة — كهرب واحد<sup>(١)</sup> . فإذا عدنا إلى التشبيه العسكري وجدنا أن هذه الجماعة الكبيرة من الجيش (المقابلة لذرة كبيرة) لها حارس واحد . وهذا الحارس يحتاج إلى أن يكون سريع التنقل لكي يتمكن من القيام بمهمته . فهو يحرس حيناً ناحية من جماعته ثم يسرع في الانتقال إلى الناحية الأخرى . وكذلك يتنقل هذا الكهرب حول ذرته فكأنه ينتقل بين الذرات . ففي هذه الحالة هذه لا يمكن أن تكون كتلة النحاس كتلة جامدة لأن الكهربات دائمة التنقل للوقوف في مواقع جديدة وفقاً لمقتضيات الحالة . ولكن الحارس في الجيش ، والكهرب المفرد في ما بين ذرات النحاس ، يحفظ الصلة بين وحدات الجيش وبين ذرات النحاس

ولذلك نجد النحاس مرناً ، يمكن طرده رقوقاً ومده اسلاكاً من غير أن ينقص . ولا يخفى أن النحاس موصل جيد للكهربائية والحرارة ، وأما الألماس فلا يوصل أحدهما . والحرارة تزيد اهتزاز الذرات . فالذرات المتحركة تستطيع أن تنقل اهتزازها من ذرة إلى أخرى حالة أن الذرات الجامدة في مكانها لا تستطيع ذلك . وبهذا تفسر قدرة النحاس على توصيل الحرارة ومعجز الألماس عن ذلك

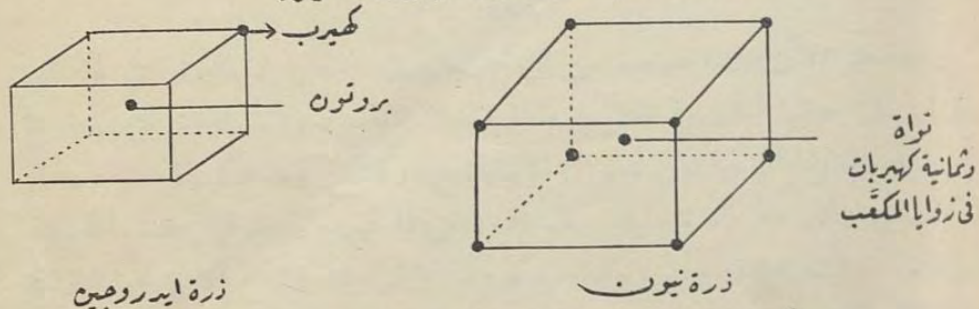
والعلم الحديث يحسب التيار الكهربائي تياراً من الكهربات . فعندما يندفع عدد من الكهربات من بطارية كهربائية إلى طرف سلك يحدث تحرك في الكهربات التي في ذلك السلك من أوله إلى آخره . فكأن أماناً صقاً من حجارة «الدومينو» (راجع الصورة) فإذا أضفت إلى

(١) هذا القول للدكتور سدي فرنش استاذ الكيمياء المساعد في جامعة كولجيت الأميركية في السدنتفك أميركان ولكن عدد النحاس الذري ٢٩ فله ٢٩ كهرباً ولا يمكن ترتيبها وفقاً لقاعدة الثمانية بحيث يكون لها ثلثتها الخارجية كهرب واحد إلا إذا أخذنا باللقا عدة المبسوطة في الفقرة الثانية من صفحة ١٣٨ من هذا المقال

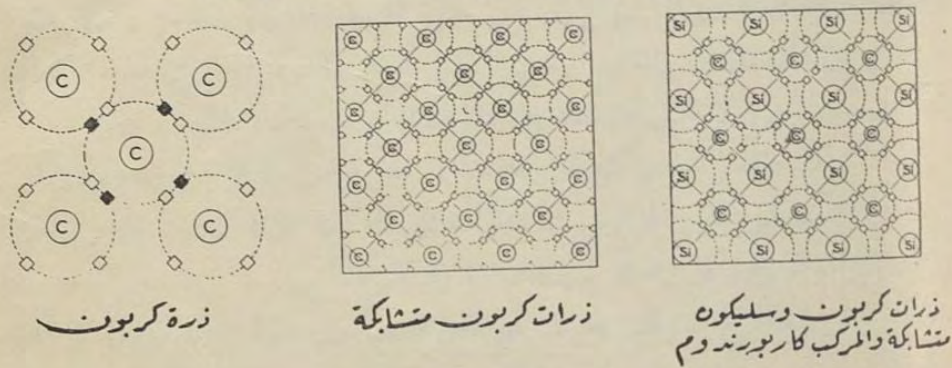




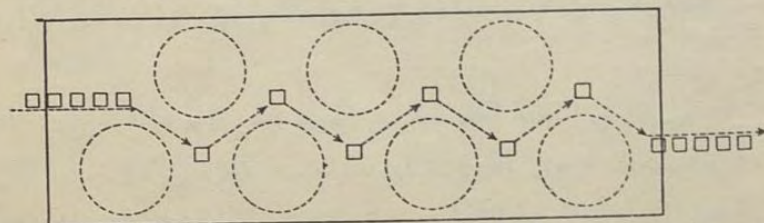
وفقاً للتصور العالم الأميركي لانغميور



وفقاً للتصور العالم الأميركي لوليس



نقلاً عن السينثفك اميركان عدد يونيو ١٩٣٨



تمثيل لسريان التيار الكهربائي في سلاك من النحاس يتحرك الكهربات بين الذرات



احد طرفي هذا الصف حجراً جديداً وحرّكتهُ بحيثُ يحتل مكان الحجر الاول من ناحيتك  
حركت كل حجر في الصف من مكانه الى المسكن الذي يليه  
فاذا لم يكن في المادة كهيربات متحركة — مثل كهيربات النحاس الخارجية — تعذر الايصال  
الكهربائي . وسهولة انتقال التيار مرتبطة بقدرة الكهيربات على التحرك وسرعته . ولذلك نجد ان  
النحاس والذهب والفضة — وفي كل منها كهيرب واحد خارجي — خير المواد الموصلة للكهربائية .  
واما الالماس فالكهيربات فيه جامدة مربوطة بغيرها ثابتة في مكانها فهو لذلك لا يصلح  
موصلاً للكهربائية

\*\*\*

وصفنا حتى الآن ثلاثة ضروب من القوام الكهيريبي ، فثمة اولاً الذرة التي لها ثمانية  
كهيربات في حلقتها الخارجية فذراتها مستقرة ولا تتجمع . وثانياً الذرة التي بها اربع  
كهيربات في حلقتها الخارجية فهي تميل الى الاشتباك مع ذرات من نوعها فيكون العنصر نفسه أو  
المركبات التي تتركب منه جامدة صلبة . وثالثاً الذرة التي لها كهيرب واحد في حلقتها الخارجية  
فهي ذرة مادة ليننة تطرق وتمدد وتوصل الكهرباء والحرارة . فالنوع الاول هو الغازات  
غير الفعالة والثاني المواد القاسية القصفة والثالث الفلزات اللينة . فاذا أردنا ان نشبه أوصاف  
هذه العناصر بأخلاق الناس قلنا ان الاول يمثل خلق الرجل المكتفي بنفسه والثاني خلق  
الرجل الذي يميل الى التعاون والثالث الرجل الكثير التنقل والحركة — وبين هذه الانواع  
المحددة نجد ضروباً من الاخلاق متوسطة بين هذا وذاك او بين ذاك وذلك

ومن الفلزات عناصر لذراتها كهيران خارجيان . فهي أقسى قليلاً من النحاس وأقل  
قليلاً منه ايصالاً للكهربائية والحرارة . اما الفلزات التي لذراتها ثلاثة كهيربات خارجية فهي  
أقوى من الفلزات الثانية وأقل ايصالاً منها للحرارة والكهربائية

ولكن عنصر التيتانيوم يستوقف نظرنا . فهو قاس قصف وفي الوقت عينه موصل لا بأس  
به للتيار الكهربائي . وهو فلز لا ريب فيه . الا ان لذرتيه في ابعاد مناطقها عن النواة اربعة  
كهيربات . وهذه الصفة يجب ان تجعل خواصه قريبة او مشابهة من خواص الكربون . ولكنه  
ليس كذلك

واذا تعدد الكهيربات في المنطقة الخارجية من الذرة ليس بمحدد ذاته العامل الحاسم الفرد  
في الموضوع دائماً . فعدد الكربون الذري ٦ اي لذرتيه ستة كهيربات اثنان منها يؤلفان المنطقة  
الاولى المستقرة حول النواة والاربعة الاخرى تؤلف المنطقة الثانية وهي التي تشبك بكهيربات  
ذرات اخرى من الكربون او بكهيربات ذرات السليكون . واما ذرة التيتانيوم فأكبر حجماً .



ذلك بان رقبها الذري ٢٢ اي ان لها ٢٢ كهرباً ، منها اثنان يؤلفان المنطقة الاولى حول النواة فيلي ذلك منطقتان كل منهما ٨ كهربات فتاثة فيها اربعة كهربات . ولو كان عدد الذرات الخارجية وحده العامل الحاسم ليشابه التيتانيوم والكربون . ولكن منطقة الكهرباء الاربعة ابعاد عن النواة في ذرة التيتانيوم من الكهرباء الاربعة التي في ذرة الكربون . فاذا عدنا الى تشبيه الالكترونات الخارجية بالحرّاس في الجيش وجدنا ان كهربات التيتانيوم الخارجية يجب ان تكون اسهل تحركاً وتنقلاً لا تساع المساحة التي عليها ان تحرسها . حالة ان صغر حجم الذرة في عنصر الكربون يجعل هذه الكهرباء اكثر استقراراً لضيق المساحة التي عليها ان تحرسها . ولذلك تختلف الخواص وفقاً لعدد الكهرباء الخارجية عن النواة كذلك

ثم هناك عامل آخر يميل بالعناصر الثقيلة الى طبائع الفلزات . فالذرات التي لها ثلاثة كهربات خارجية او اكثر من ثلاثة ، يميل زوج من هذه الكهرباء الى الهبوط من منطقته الى منطقة اقرب الى النواة ، فيبقى في المنطقة الخارجية كهرب واحد . وهذا يجعل بعض طبائعه شبيهاً بطبائع الفلزات . فعنصر الألومنيوم له ثلاثة كهربات خارجية ، ولكنه مع ذلك يشبه الفلزات في لينه وايصاله للكهربائية . ولذلك يصح ان يوضع بين الفلزات في طبقة النحاس والذهب والفضة . والبرموت على الرغم من خمسة كهربات خارجية ، وعلى الرغم من انه قاس وقصيف ، يتصف ببعض اوصاف الفلزات . وطبائعه الفلزية تمزى الى كبر ذرته والى ميل زوج من كهرباته الخارجية الى السقوط من منطقته الى منطقة اقرب منها الى نواة الذرة

فمخاضات العناصر لا تبدو في الكهرباء ، بل ان الكهرباء تعينها ويمكن معرفة خصائص العناصر من عددها وترتيبها حول النواة

ففي ناحية نجد الغازات « النبيلة » ممثلة في عنصر النيون — ذراته مكتفية بذاتها لان منطقته الخارجية من الكهرباء تحتوي على العدد الذهبي — ثمانية . ثم يليها الكربون وصفته الخاصة الاشتراكية والتعاون . فكل ذرة من ذراته مرتبطة باربعة ذرات أخرى عن طريق كهرباتها الاربعة . ثم في الطرف الآخر نجد النحاس والفضة والذهب وغيرها وهي ليست قابلة للعد والطرق وذلك لان مناطقها الخارجية تحتوي على كهربتين او ثلثة كهربات فقط ولكن ما تخسره الذرة في عدد كهرباتها الخارجية تعوضه بسرعة حركة هذه الكهرباء وسهولة نقلها والقاعدة الاساسية في هذا النظام هي قاعدة ( الرقم ثمانية )

والبحث في طبائع العناصر ليس بالبحث الحديث . فقد حاول الكيميائي الفرنسي الشهير لافوازييه من قرن ونصف قرن ان ينفذ الى السر في اختلاف طبائع العناصر فخاب في ما يصبر اليه ثم عمد برزيليوس السويدي الى ذلك فلم يكن أكثر توفيقاً من صاحبه الفرنسي . ثم كشف



مندليف الروسي الجدول الدوري وقاعدته أنه إذا رتبنا العناصر ترتيباً أفقياً بحسب أوزانها الذرية وجدنا العناصر التي أرقامها ١ و ٨ و ١٥ متشابهة الصفات أي أن العناصر التي تقع في كل خانة ثامنة في الجدول متشابهة فقال أن خواص العناصر صفات دورية لأوزانها الذرية . ثم كشفت النظرية الكهربائية (الالكترونية) وتأييدت وأبدع لورس الأميركي صورة مكعبة للذرة فقال في قلب كل ذرة نواة وحول هذه النواة مكعبات تحتوي على عدد متباين من الكهروبات في أماكن معينة . وكل ذرة تميل إلى أن يكون لها كهرب واحد في كل زاوية من المكعب أو المكعبات التي حولها . ثم جاء لنغيبور وحول صورة لورس الذرية من صورة مكعبة إلى صورة كروية

كان لنغيبور قديمين وهو يدرس الغازات عند معالجته فلزالتنغستن وصلاحة أن يكون سلكاً للمصباح الكهربائي ، أن الهليوم عدده الذري ٢ والنيون عدده الذري ١٠ وأن هذين العنصرين مستقران من الناحية الكيميائية لا فعل كيميائي لهما يذكر . فقال في نفسه أن الكهريات التي خارج النوى في ذرات هذين العنصرين يجب أن تكون مركبة كيميائياً مستقرًا يحمل الفعل الكيميائي للعنصرين ضعيفاً أو منتفياً . فتصور ذرة الهليوم مركبة من نواة وحولها كهبران يدوران في كرة مفرغة حول النواة . وأن هذا التركيب تركيب مستقر . وكذلك النيون له حول نواته عشرة كهبرات تدور في كرتين حول النواة ، الأولى وهي أقربها إلى النواة فيها كهبران — مثل كهربي الهليوم — والثانية فيها ثمانية كهبرات وهو بناء مستقر

أما الأيدروجين فله كهرب واحد في الكرة المفرغة التي حول نواته . فذرتُه إذا تميل إلى أن تكمل بناءها حتى تصبح مستقرة فتجذب إليها كهرباً من ذرة أخرى . وهذا سرُّ فعل الأيدروجين الكيميائي . فإذا التقت ذرة الأيدروجين بذرة أو كسجين في أحوال مؤاتية — وذرة الأكسجين لها ٨ كهبرات اثنتان في الكرة الأولى حول النواة وهو بناء مستقر والثانية فيها ستة كهبرات فهي تحتاج إلى كهربين لتصبح بناء مستقرًا — تعاونت ذرتان من الأيدروجين على ذرة من الأكسجين فتأخذان بخناقها وتتحد الثلاث الذرات فيتركب جزي الماء وهو مستقر وعلى هذا النسق مضى لنغيبور في تطبيق هذا الرأي ففسّر به الألفة الكيميائية والكفاءة الكيميائية والنظائر . وعند الرجوع بمجدول مندليف الدوري القائم على أساس قاعدة الثمانية إلى ميدان الكهبرات نرى كيف يفسّر ترتيبه الذي ظهر فيه أن العنصر الثامن يشبه العنصر الأول ، ثم أن العنصر الثامن بعد ذلك — أي الخامس عشر في السلسلة الرقمية — يشبه الثامن والأول وهكذا . وقد كان اعتمادنا في كتابة هذا المقال على مجلة السينتفك أميركان على الغالب وكسب حديثة أخرى في الطبيعة والكيمياء



# السكر

للمشاعر الفرنسية بوردبير

كن دائماً سكران فالسر كله في السكر  
إذا شئت ألاّ تشعر بأعباء الزمان تنقص ظهرك وتميل بك الى الارض  
إذا شئت ذلك فاسكر دائماً ولا تقف !  
ولكن بمَ تسكر ؟ بالخمر او الشعر او الفضيلة او ... ولكن اسكر  
إذا كنت يوماً على درجات قصر او على بساط عشب ،  
او في عزلة قاطبة في حجرتك ، وتيقظت وقد نقص سكرك او هدأ —  
فاسأل الرياح ، والامواج والكواكب والعصافير ،  
واسأل الساعة ، وكل ما يمرّ ويقرّ ، وكل ما يبكي ويئنّ ،  
وكل ما يتدحرج ، وكل ما يشدو وكل ما يتكلم .  
اسألها عن الساعة . . . .

فالرياح والامواج والكواكب والعصافير والساعة ستجيبك :

« الساعة ساعة السكر »

إذا شئت ألاّ تكون عبداً وضحية للزمان فاسكر واسكر  
بدون انقطاع ، بخمر او بشعر او بفضيلة او بما ترغب

[ نقلها : خليل هنداي ]





# تقدم علوم الطب

— ١ —

للكرنور شريف عمير انه

صدر حديثاً كتاب علمي جليل من أنفس الكتب العلمية موضوعه « تقدم العلم »  
 دمجته أقلام أئمة علماء الانكليز في هذا العصر أمثال السر جيمز جيتز والسر وليم براج  
 وهالدين وهكسلي وابلتن . وقد نشر فيه الدكتور ادورد ملاني فصلاً نفيساً عن تقدم  
 علوم الطب فيه فائدة للأطباء وطامة الناس . فنقلته لينتفع به الناطقون بالضاد :

ان غرضي من هذه المحاضرة تلخيص علوم الطب في جميع العصور وقد اخترت هذا الموضوع  
 لاني صرفت معظم اوقاتي في الاشتغال بالمشكلات الطبية ولاني رأيت ان اعرض موضوعاً له  
 صلة بحياة كل منا يزيد تقديرنا للخطوات الكبرى التي خطاها علم الحياة في العصر الحديث  
 ولا سيما في عهدنا

من الحقائق الطريفة ان الناس كانوا مشغوفين منذ اقدم عصور التاريخ بدراسة الامراض  
 والقضاء عليها . ومن الغريب والحالة هذه ان لا تتقدم معرفة الامراض الحقيقية والسيطرة عليها  
 قبل مائة سنة الاً تقدماً يسيراً . فما السبب يا ترى ؟ هل كان البشر في ذلك الوقت دوتاً ذكاء ؟  
 من المؤكد ليس هذا السبب لان البشر كانوا قديماً يجاروتنا ذكاء . ومن رأيي ان هناك ثلاثة  
 اسباب للتأخر خلال تلك الحقبة . اولها : ضلال الناس قديماً — او ما يظهر ضلالاً — الطرق  
 المؤدية الى نظرهم الصحيحة للمشكلات الصحية والامراض . (٢) مضى على الانسان حين من  
 الدهر قبل ان يدرك انه لا يستطيع فهم حقيقة الجسم الانساني ما لم يدرسه درساً مباشراً في  
 حالتي الصحة والمرض . (٣) لم يقدر الناس الاختبارات العلمية نسيباً الاً في الازمنة المتأخرة  
 فكان على الانسان ان يتدرب اولاً على قيمة الملاحظة ثم تحقق بعد ذلك ان النظريات لا تكفي



ما لم تكن مقرونة بالتجارب وقد ظلت النظريات مسيطرة عليه حتى حالت بينه وبين الملاحظة الجدية في البحث والاستقصاء

وسأشرح الآن أثر هذه العوامل في تقدم الطب : أما بشأن فساد نظر الناس في الصحة والمرض فنعلم من المصريين والاشوريين والبابليين ، فعلى الرغم من اهتمامهم بالامراض نظروا اليها نظرة شي خارق للطبيعة منبعثة من قوة سحرية تسلط الارواح الشريرة على الجسم ولا يمكن القضاء عليها ما لم نخرج تلك الروح . ويمكن الحيلولة دون دخولها او منعها بالتعاون والرفق ولكن الصلوات والتضرعات ضرورية لطردها من جسم المريض وبعد طردها يصلح ما فسد من الاعضاء بالعقاقير كالافيون والشوكران والعنصل وزيت الخروع الخ . وكان التنجيم شائعاً جداً في تلك الازمنة كما ان مهنة العرافة كانت مزدهرة . ويلد لنا ان تذكر ان الكبد كانت بين القصيد في هذه الاهداف فكانوا يتكهنون بالمستقبل بمراقبة دم وحجم وشكل كل جزء من كبد القرايين التي تقدم . ومن الغريب ان حصر عناية الاقدمين آلاف السنين في عضو واحد من الاعضاء الداخلية وهو الكبد وتأثيرها فيهم ذلك التأثير لم يكن حافظاً لهم الى استقصاء غيرها من الاعضاء ولم يحملهم على الاعتقاد بان المرض من طبيعة الحياة ، واعتقادهم به انه من خوارق الطبيعة حال دون تقدم معرفتهم اياه ونظرتهم اليه نظرة صحيحة

ومن الحقائق الطريفة انه رغمًا عن ان صناعة الطب كانت منظمة بعض التنظيم في تلك الايام الحالية لم يقص على عهد الصلوات والتضرعات فكان للكهنة النصيب الاوفر من ممارسة هذه الصناعة وفي دستور شريعة حمورابي الذي كشف مؤخرًا وهو يعود الى سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح على الألواح البابلية دليل على وجود أساس المجاملات الطبية في ذلك العهد وفيه كلام على القوانين الدينية والمدنية والطبية لممارسة الطب وتعاليم عديدة للاطباء نذكر منها اثنين :

- (١) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شهبان Bronze وشفي ذلك الرجل او فتح خراجاً في عين فتى بسكين من شهبان يتقاضى عشر شكالات <sup>(١)</sup> فضة
- (٢) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شهبان وسبب وفاته او فتح خراجاً في عينه آل الى فقدها فيجب قطع يديه

ألم يكن الطب مدعاة للدهشة في تلك الايام ؟

ومن الازمنة التي اتصفت بعقم الطب الناشئ عن جهل الناس حقيقة الجسم الانساني ، العصر المتوسط التي ابتدأت من القرن الخامس الى السادس عشر وجاءت اثر انقراض اليونان والرومان انقراضاً كاملاً بوجه التقريب وكانت غزوات البرابرة من جهة وتوالي الاوبئة المهلكة من



جهة ثانية أقوى من الأولى عاملاً مؤثراً في أفول تلك المدنية . وحيث ان العلم والثقافة كانا في قبضة الكنيسة في تلك العصور فقد ظلّ العقل البشري متأثراً بالنزعة الدينية وكان الناس لا يقيمون شأناً في الحياة إلاّ للموت والدينونة والسماء وجهنم والنفس الانسانية هي الكل في الكل والجسد لاشيء . وحيث ان الصحة والمرض من مستلزمات الجسد فلم يهتم لها وزن كبير وظلّ العالم المتمدن بأسره متأثراً بالعقائد المسيحية كما يستنتج من كتابه رجال ذلك العصر البارزين أمثال ترتوليان Tertullian الذي قال لا لزوم للبحث العلمي بوجود الانجيل

ومرّ بين هذين الزمنين الطويلين العقيمين زمن الاشوريين والبابليين والمصريين وزمن العصور الوسطى ، دور ثقافة عظيم وهي ثقافة اليونان والرومان التي أثرت في الطب مثلما أثرت في حياة العلم العقلية والعملية . وبعد ان مرّت هذه الثقافة في أدوار مختلفة من صعود وهبوط منذ ازدهارها حتى وقتنا الحاضر ظلت محتفظة بتأثيرها في رجال الطب فكل منا يقدر عظمة أبقراط ومدرسته وأرسطاطاليس وجالينوس واضرابهم . فاليونان اول من أوجد الطب الصحيح وقد حاولوا استئصال المعتقدات الراسخة منذ زمن طويل بأن الامراض متولدة من الارواح الشريرة ولاول مرة في التاريخ عُدّت الامراض من الامور الطبيعية التي لا يمكن التوصل الى معرفتها قبل درسها وملاحظتها . وجعلوا «العقل الصحيح في الجسم الصحيح» أغلى أماني الحياة . وللتوصل الى هذه الغاية يجيب ان يعيش المرء أحسن وأقصى العيشة الطبيعية وقدروا تأثير الطبيعة في الشفاء أعظم تقدير . ان مثل أبقراط العليا في الآداب الطبية تعد حتى اليوم من أسمى الصفات التي يجدر ان يتصف بها الطبيب . ولايستطيع ان ينكر المرء ان نظر اليونان الى الجسم البشري سواء أمن وجهة الملاحظة كان أم من وجهة البحث العلمي ، كان أول عامل في تقدم علم الطب . ومع ذلك لم تخل تعاليمهم من الخشوع الذي اعترض سير دولا ب التقدم . ونذكر على سبيل المثال عقيدتهم ان الدم والباقم والصفراء والسوداء هي العناصر الاربعة المسيطرة على الجسم وهي مولدة الامزجة الاربعة المزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي فاذا توازنت هذه الامزجة ظلّ الجسم صحيحاً واذا اختلت اعتلت صحة الانسان . وسنرى فيما بعد ان الطب ظلّ متأثراً بهذه العقيدة حتى بعد انطفاء نور الثقافة اليونانية وبعثها من جديد وكان لا بدّ من تحطيمها ليتسنى لهذا العلم التقدم المنشود

إن السبب الرئيسي الثاني لبطء تقدم الطب الطويل الذي ذكرته في بدء محاضرتي هو تأخر الناس في ادراكهم ان معرفة بنية الجسم البشري ضرورية للتوصل الى كنهه الامراض وكان هذا العامل من العوامل التي أخرت سرعة تقدم الطب كما كان ينتظر في إبان عصر الثقافة اليونانية لان تشريح الجسم الانساني كان محرماً عند الاشوريين والبابليين والمصريين حتى اليونانيين أنفسهم



فكانت معرفة الاعضاء والانساج معرفة حقيقية متعذرة في حالتي الصحة والمرض . وصحيح ان البطالسة بدأوا درس التشريح سنة ٣٠٠ ق . م . بعد استقرار اليونان في الاسكندرية ويجب ان نحسب هذا التاريخ بدء علم التشريح ولكن هذا الاتجاه كان ويا للأسف وقتياً وموضئياً ورغماً عن حيوية أرسطاطاليس وسعيه المتواصل في هذا السبيل لم يتمكن من تشريح الجسم البشري وقد حاول ان يستعض عنه بتشريح الحيوانات كالقردة والحنازير واعترف أنه لم ير السكى الانسانية قط واجتهد فيما بعد جالينوس كثيراً ( سنة ١٣٠ — ٢٠٠ ب . م . ) في درس التشريح ووظائف الاعضاء ( الفسيولوجيا ) وهو من أول من قرر حقيقة ان شريانات الجسم تحوي دمًا لابلغاً ولكنه أخفق في اكتشاف سر الدورة الدموية وأن نبضات القلب هي التي تدفع الدم في الاوعية الدموية وصار علم التشريح في خبر كان بعد أفول الثقافة اليونانية من الاسكندرية وطراً الوهن على الاهتمام بالقضايا الطبية في العصر المتوسطة . نعم بقيت هذه الروح حية بعض الشيء بعد فتوحات العرب في الاسكندرية سنة ٦٤٠ ب . م . وفي بزنطه وسالورنه ( Salernum ) في جنوبي إيطاليا ومع ان جهودهم تستحق الإعجاب فان مكانتها الرئيسية قائمة على أنها حفظت الطب اليوناني من التلف ولكنها لم تؤثر تأثيراً عامًّا في تقدم الطب<sup>(١)</sup> لم ينتعش علم التشريح ويصبح فنًّا رافقاً إلا في عهد البعث ( Renaissance ) بعد تأسيس مدرسة بادوى ( Padua ) الطبية ومن المستحيل ان نذكر بالتفصيل الانقلابات العظيمة التي جرت في ذلك العهد والتأثير الكبير الذي أثمرته في الطب ولكننا نستطيع ان نمجزم كل الجزم بان أقطاباً كباراً ظهروا وقلبوا علم التشريح رأساً على عقب أمثال : —

Leonardo da vinci<sup>(٢)</sup> وفصاليوس<sup>(٣)</sup> Vesalius ( سنة ١٥٣٧ فما فوق ) وفابريكس<sup>(٤)</sup> Fabricius فنقدّم التشريح تقدماً عظيماً في ذلك العهد ، أحيّا تعاليم أبقراط وجالينوس وبث في علم الطب ثقافة جديدة

(١) لقد جحد السكاتب فضل العرب في الطب فانهم لم يحافظوا على الطب اليوناني فقط بل زادوا عليه وابتكروا فيه كما يشهد بذلك فضلاء الشرق والغرب وقد شاع فضل العرب على الطب وذاع ولا حاجة الى الدفاع عنهم فان تاريخهم يدل عليهم [ المترجم ]

(٢) عالم ايطالي عظيم رسام نحات بناء موسيقي ميكانيكي مهندس وفيلسوف طبيعي وهو أول من أوجد علم التشريح ( ١٤٥٢ — ١٥١٩ ) ولكن كان علمه لنفسه لا لغيره في التشريح

(٣) مشرح ايطالي كبير كان يدرس الهياكل العظمية في ظلام الليل خوفاً من الحكومة وسخر الناس وهو يعد بحق أبا علم التشريح وقد هجره لازدراء الناس به فتأخر الطب مائة سنة الى الوراء ودعي هذا الحادث الطبيب الانكليزي الأشهر وليم اوسلر « فاجعة الطب الكبرى » [ المترجم ]

(٤) مشرح ايطالي واخصائي بعلم الاجنة مهد السبيل لاكتشاف هارفي الدورة الدموية ( ١٥٣٧ — ١٦١٩ ) [ المترجم ]



ذكرنا آنفاً ان عدم تقدير الطرق الاختبارية قدرها كان عاملاً ثالثاً في بطء تقدم علم الطب وقد حان الوقت الآن ان يظهر للعالم فضل هذه الطرق العلمية . كان هارفي تليذاً في بادوي وقد أثرت فيه تعاليم فابريكس ولا سيما ما يتعلق منها بوجود الصمامات في الاوردة . وشغفه هذا هو الذي حمله على ان يعكف على درس الدورة الدموية بعد ان رجع الى انكترا فساكنات نتيجة هذا الدرس مؤلفه النفيس De Matee Cardis سنة ١٦٢٨ شرح فيه الطرق الاختبارية التي تبرهن صحة نظرية دوران الدم في الجسم ولا بعد هذا المؤلف الاول في موضوعه فقط بل من انفس المؤلفات في الطرق الاختبارية وفضلها في كشف الحقائق . ويجب ان نتذكر ان الناس كانوا حتى في بداءة القرن السابع عشر يعتقدون بصحة نظرية جالينوس بأن الدم يجري في الاوعية الدموية بطريقتين مختلفتين فيعلو ويهبط في كليهما كالد والجزر ولا يدور دورانا . وبحال للمرء ان نجاح هارفي حمل المشغوفين بهذا البحث على الاهتمام بالطرق التجريبية واتباعها في اجاباتهم ولكن مع الاسف لم يحدث شيء من ذلك الا عقب مائتي سنة من اكشاف هارفي ولا يعني انه لم يجز اختبارات خلال تلك الفترة بل كلامنا من الوجهة العامة . وكان العالم يحل جهلاً تاماً حقائق الصحة والمرض التي يمكن الجزم فيها بالملاحظة المجردة عن الاختبارات . ولم تكن اساس الكيمياء والطبيعات قد وضعت بعد لتساعد على تقدم العلم تقدماً محسوساً وقد اخذت طلائع الكيمياء تظهر في عهد هارفي فبطء التقدم الذي يصدق على تقدم التجارب الحيوية لا يصدق على الكيمياء والطبيعات وظهور اسماء كبار الكيمياء امثال : —

Glauber, (١) Willis, (٢) Mayow, (٣) Agricola (٤) Stahl (٥)

وبعدهم : Robert Boyle, (٦) Cavendish, (٧) Priestley, (٨) Lavoisier, (٩) Dalton (١٠)

دليل قاطع على ان الكيمياء التي نعرفها بدأت ونمت منذ ذلك العهد . ومن المعروف انه نشأ في القرن السابع عشر والثامن عشر اخصائيو ممتازون بعلم الطبيعة ولكن كان اهتمامهم من

- (١) كيمياوي ألماني اكتشف كيفية تحضير حامض الكلورودريك وسلفات الصودا وغيرها (٢) مشرح انكليزي له اليد الطولى في الكيمياء الاختبارية (٣) كيمياوي انكليزي له مؤلفات نفيسة بهذا الموضوع (٤) عالم ألماني مشهور بابحاثه في المعادن (٥) طبيب وكيمياوي ألماني (٦) فيلسوف انكليزي في الطبيعات مكتشف ناموس انتشار الغاز المعروف باسمه (٧) كيمياوي وطبيعي انكليزي اول من أمط اللثام عن حقيقة غاز الهيدروجين (٨) كيمياوي انكليزي اكتشف الاوكسجين وكان يعرف اللغة العربية (٩) كيمياوي فرنسي اول من بين طبيعة الاحتراق واكتشف مع لا بلاس ان الماء مركب من اوكسجين وهيدروجين (١٠) كيمياوي وطبيعي انكليزي كشف الستار عن تركيب المادة والناموس الذري وله ابحاث متمعة في النور وهو اول من اكتشف عمى اللون [ المترجم ]



الوجهة المرضية محصوراً في تاريخ الامراض الطبيعية فكان سيدنها *Sydenham* (١٦٢٤ - ١٦٩٨) خير ممثل للمذاهب الابوقراطية والطبيب النطاسي الهولندي *Boerhave* اول من استنبط الطرق الصحيحة للملاحظات الدقيقة في درس الطب . ومن مساوي هذا العهد ان ألمع اطبائه عوضاً عن ان يعكفوا على درس الطب وتقدمه انصرفوا الى ابتكار النظريات الصرفة المبنية على الحدس والظن في تعليل الامراض . واحسن طريقتين تمثلان هذا المذهب الجديد طريقة *Cullen* الذي جعل سبب الامراض اما تشنجاً واما استرخاء و *John Brown* الذي عزا الامراض الى التهيج *Excitability* وادت هذه النظرية الى مشاحنات كثيرة بين الاطباء كانت مضية للوقت وعقيمة لعلم الطب

\*\*\*

في هذه الحقبة من القرن التاسع عشر التي كانت عقيمة نسبياً لعلم الطب ظهرت بوادر التقدم الباهر من ايطاليا ايضاً بواسطة مورغاني *Morgagni* سنة ١٧٦٠ ذلك بان دقة فحصه الجثث بعد الموت كانت عاملاً في وضع اساس التشريح المرضي واذا قدرنا قيمة حالة الاعضاء بعد الموت في تشخيص الامراض أدركنا شأن الانقلاب الذي أحدثه هذا البعثة الشهير . وتقدمت الابحاث المرضية فيما بعد بتأثير جون هنتر *John Hunter* (١٧٢٨ - ١٧٩٣) وكان هنتر بطبيعته مشغولاً بالابحاث المرضية *Pathology* وصرف زهرة حياته في التقريب بين الطب والعلوم الطبيعية وهو الذي كتب الى ادورد جنر حينما كان يظن ان الحلابات اللاني اصبن بجدرى البقر اكتسبن مناعة ضد جدرى البشر فقال : « لا تفكر بل جرب »

وكان لهذه الجملة دوي هائل في عالم الطب ادّى الى اكتشاف التلقيح ضد الجدرى

والقضاء عليه

وفي هذا الزمن زادت العناية جداً بدقة فحص الجسم الطبيعي في حالتي الصحة والمرض ويرجع الفضل الكبير في هذه الدقة الى نخبة من الاطباء الفرنسيين الممتازين فاستنبط لنيك *Laennec* السماعة سنة ١٨١٩ وصار الاطباء يعولون منذ ذلك الوقت على القرع والتسمع في التشخيص وهذه النخبة هي التي توسعت في ابحاث مورغاني بفحص الرم بعد الوفاة التي ادت الى الدقة في درس الحوادث المرضية قبل الوفاة وتقدم في ذلك الوقت تشخيص الامراض السريرية تقدماً عظيماً

والحق يقال ان المواد التي ساعدت على الابحاث الطبية كانت تنهال بسرعة في ذلك الوقت على الرغم من ان التجارب الاختبارية كانت راكدة



ونحسر ان نقول ان تاريخ الطب الحديث يعزى الى باستير وكلود برنارد حين صارت الطرق التجريبية هي المعول عليها في الابحاث الطبية . وفي سنة ١٨٥٧ — ١٨٩٠ نشر باستور رسالته العلمية عن حامض اللبن والتخمر الكحولي وقد جعلته هذه الابحاث يتشبع بروح الفكرة التي كانت عاملاً قوياً في اثبات ان سبب العدوى في الحميات جرثومية . وقد تطورت هذه الفكرة لان باستير كان مقتنعاً بالعلاقة بين التخمر والعدوى . وأدَّت تحريات باستير الى لستر الذي أثبت ان ميثاق تلوث الجروح جرثومية مختلفة من الاحياء السفلى . وعلى هذا الاساس شيد علم منع عدواها بواسطة المطهرات الكيميائية وأحدث انقلاباً في الجراحة وصيرها عملية سليمة . ومن نتائج اكتشافات باستير ابحاث كوخ الذي نشر سنة ١٨٧٦ تحرياته عن سبب الجذرة الحبيبة Anthrax . ولتذكر ان كوخ استنبط جرثومة هذا المرض من الحيوانات المصابة بها ولقح حيوانات اخرى بها فأصبحت بعين المرض وفي سنة ١٨٨٢ اكتشف ان سبب السل عصية خاصة فكوخ اول من استنبط زرعاً من الجراثيم الصرفة ووضع اساس علم الجراثيم ( بكتريولوجي ) ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت جراثيم التيفود والحناق والهيفة الاسوية والكزاز والطاعون وذات الرئة والسيلان . وقبل ابحاث كوخ كان رجل فرنسي شهير اسمه كلود برنارد Claude Bernard يستعمل الطرق التجريبية في البحث عن وظائف اعضاء الجسم وهو الذي أمط اللثام عن المفرزات الداخلية باكتشافه وظيفة خزن الكبد للسكر الحام ( الكليكوجين ) فاذا كان كوخ واضع علم الجراثيم فمن المعقول ان يكون كلود برنارد واضع علم وظائف الاعضاء ( فسيولوجيا ) الحديث

\*\*\*

ثم ظهر في الميدان في ذلك العهد موضوع جديد وضعه فيرشو Virchow وهو علم تركيب انسجة الجسم ( هستولوجي ) فبين تحت المجهر حقيقة تركيب مختلف خلايا الجسم وتمكن من معرفة مرض الاعضاء بدراسة خلاياها حين المرض . وفي هذا الزمن زمن النشاط اي سنة ١٨٥٠ — ١٨٨٠ صارت الفسيولوجيا والبكتريولوجيا والهستولوجيا المرضية والجراحية دروساً طبية معينة . وقبل ان تأتي على تقدم الطب في القرن الحالي نعيد بالبحر ما ذكرناه آنفاً رأينا علم الطب يتحرر من تأثير السحر والدين ونحسب الامراض من الامور الطبيعية . وعقب ذلك دور البحث في تركيب الجسم فتوصل الباحثون الى العلامات السريرية والتراكيب التشريحية للاعضاء المعولة وكان العالم قد وصل الى العصر الحالي الذي كان للتجارب فيه اليد الطولى فتقدمت معرفة وظائف الاعضاء واسباب الامراض تقدماً كبيراً وكان لا يزال في اوائل هذا العصر



امراض مجهولة السبب وطرق معالجتها غير معروفة ومع ان الحالة لا تزال الآن كما كانت قبلاً فان جهود الثلاثين السنة المتأخرة آلت الى املاء كثير من الفراغ . فلنبحث عن سبب تدفق النشاط في اوائل القرن الحالي . وهناك اسباب متعددة اهمها ما يلي :

(١) النجاح يولد النجاح . ومن المستحيل ان يقف اي شخص على اكتشافات باستير ولستر وكوخ ولا يتأثر بها او لا تكون حافزاً له على التبع والاستقصاء . ومن المعقول ان تضاعف البحوث وتتبعهم الى جهود غيرهم ممن يسرون على الحطة نفسها . ان روح التفاؤل هذه عززت ثقة الناس وعقيدتهم بأنه ليس من الصعب التغلب على الامراض والمشكلات الصحية وان لاحد لناجح الطرق الاختبارية

(٢) ان التبعات الحديثة أفضت الى تقدم العلوم الاساسية لدرس الطب كالكيمياء والطبيعات ووظائف الاعضاء والامراض والعقاقير تقدماً عظيماً فألقت نوراً جديداً على الجسم الصحيح والجسم العليل وكانت سلاحاً جديداً للطب في محاربة الامراض وطرق تشخيصها والوقاية منها ومعالجتها

(٣) السبب الثالث لهذا الاندفاع هو ان العالم المتمدن بأسره اتبع الطريقة اليونانية في النظر الى الحياة وهي ان الصحة تراث عظيم واعتلاها ليس مضرراً من الوجهة الاقتصادية فقط بل هو السبب الاكبر في آلام البشر وحزنهم وتعذيبهم فكان من الضروري اذا سوائنا من الوجهة العملية او العاطفية القضاء على الامراض بالوقاية منها أو شفاؤها . واذا كانت البحوث تؤول الى هذه النتيجة فمن الواجب تعزيزها . ان تأثر الناس بهذه العقيدة حمل الحكومة والافراد على تشجيع البحوث الطبية والتوصل الى معرفة الطرق للقضاء على العلل التي كانت تقتك بالناس فانتشرت هذه الحركة في كل العالم . وفي سنة ١٩١٣ أنشأت الحكومة مجلس البحث الطبي Medical Research Council الذي صار في عهد سلفي السير ولز فلتشر من خيرة الطرق لدرس المشكلات المرضية . وقد تضافر هذا المجلس مع كثير من المعاهد الخاصة بتقديم الطب كمعهد ركفلر وباستير للوقاية وغيرها . وعلاوة على اكتشاف طرق جديدة لمعرفة الامراض دعت المصلحة العامة الى تأسيس وزارة الصحة التي تقدمت تقدماً عظيماً في العشرين السنة الاخيرة فزادت بهذه الوساطة الخدمات الطبية العامة وانتشرت في طول البلاد وعرضها ومن الامثلة على ذلك دور العناية بالحوامل ودور الحضانة ومستوصفات السل والامراض الزهرية وغيرها وغاية جميع هذه المؤسسات استخدام الطرق العلمية الحديثة للوقاية من الامراض وشفائها والمحافظة على الصحة العامة



# اثر الحرب العامة

في الادب العربي السياسي

لـ **لانيس المقرسى**

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

والتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين — حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوجه الى الاعلام احد العوامل التالية (١) رهبة تدفع الى المبالاة والتقية (٢) طمع يبعث على التزلف والمداهنة (٣) تهوس ديني يثير في النفوس التعصب والحماسة

ولو التفقتا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا نجساً بقتة ذلك التوتر العنصري وكُتبت الافواه والاعلام الا عن حمد الدولة ومحبيذ سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلة عن النزعات اللا تركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما علمته بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقة على مقدرات البلاد ، ثم قسمت الجهة العربية الى منطقتين حريتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز — والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم شط العرب . وقد رأت ان تنظم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجميع ما جرى على يديه من بطش وارهاب . وما قاساه العرب في عهده من شدة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية العثمانية أدب سياسي حر وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تعشش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذ تلبس اثواب التعصب للسيف التركي او



الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت أهم مركز أدبي في الشرق العربي ( خارج مصر ) ومستنبتاً خصباً للدعائيات الإصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كان قبل دخول تركيا الحرب يجاهر بميله الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرّ امّا الى التوقف وإما الى ممالأة السلطة . فلم يبق في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الا بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الا أناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانه لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبه طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبه بعدها ، ولا سيما فيما له علاقة بهذه العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان « البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية »<sup>(١)</sup> في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظمت قيادة الجيش الرابع وقداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطة للاغراض التالية<sup>(٢)</sup>

١ — لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدة الخلافة الاسلامية

٢ — لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ — بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضوا نحو شهرين هناك بين ما دب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصون على الملا ما شاهدوا وسمعوا وقد دونوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها —

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية —<sup>(٣)</sup> يا صاحب الدولة والفضل : —  
« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علمت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجمع شملنا ونسير في داخلينا وخارجيتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة امبنا اننا امة لا تزال حية »  
« كان اناس قليلون في ديار الشام همسون في سرهم في اوائل النفير العام بقولهم : ما لنا وللحرب . ان الحياذ ابقى علينا واسلم لحياتنا . ولم تكن الا مدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقررة لحياتنا السياسية والمالية »

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ — تأليف الباقر — كرد علي — الحبال — الانسي

(٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢ (٣) راجع الكتاب المذكور ص ٤٥ — ٥١



« كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحضت الناس فتيين الخائن المائن من الوطني الخلف ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لثم فيها المضحك المبكي » . ومن الثاني : —

« يا صاحب الدرلة — ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واطهار ما يكنسه الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلفه لهم التاريخ بأحرف من نور . . . . . هو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذي سيحقق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع قفقاسيا وفوق وادي النيل »

ومما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة — <sup>(١)</sup> « بيت عثمان ياذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدسة يقول — « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف عسكرنا الذي يظلمنا بفضلكم يا بني عثمان وحفظة بيضة الدين والايان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنشور او كله في ذلك العهد . ولم يختلف عنه الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الريمائي وعبد الكريم عويضة ، وحسين الحبال ، وبدر الدين النعساني وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض — واليك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : — <sup>(٢)</sup>

يا رجالَ الملكِ إنا أمةٌ لا ترى عن آلِ عثمانٍ بديلٌ  
حيها يا وفدُ حيَّ جندها قاهرُ الأعداءِ بالسيفِ الصَّليلِ  
نصرَ الدينِ وأعلى شأنه فغداً الاسلامُ في ظلِّ ظليلِ

ومنها مشيراً الى تراجع أسطول الحلفاء أمام قلاع الدردنيل



حيّ قوماً أدهشوا كل الوري بثبات العزم والصبر الجميل  
 قهروا الاسطول في البحر فما أبحر الاسطول ان عاد ذليل  
 دافعوا عن حوزة الملك بما بحفظ التاريخ جيلاً بعد جيل  
 وبنو الشرق الى مصر انبروا «وجمال الدين» للفتح كفيل  
 وينوّه بذلك الى الحملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ  
 الرماوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٤٥ بيتاً وفيها يصف ما رآه  
 الوفد في الاسنانه ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول (١)

فجئنا الى دار السعادة والمنى محطّ رجال العزّ والعزّ يُقصد  
 وزرنا عميد الملك يسمو عماده وزرنا وليّ العهد بالفضل يُعهد  
 تحفّ بنا القوادر من كل جانب وأقطاب دار الملك تحفى وتحفد  
 ومنها — خطبنا لهم جمّاً وقد خطبوا لنا وأنشد منا القائلون وأنشدوا  
 مجالس كانت كالربيع بواسمك ذكرناك فيها والحقيقة تشهد

\*\*\*

ومنها — رجعنا وما بالقول شيء ليعرب ولا يعرب ينسى الجميل ويحقد  
 على أتنا أبناء دين محمد بحكم هذا الحبّ فينا ويعقد  
 وله قصيدة أخرى مطلعها

تيفظّم حزمًا فأيقظم الدهرا وأعلمتم عزمًا فأدهشم العسرا  
 وفيها يقول (٢)

سلام عليكم ما أجلّ فعالمكم وأعظم في الايام آياتها الكبرى  
 سلام على الدستور حلوا مذاقه وان كان بعض الناس قد ذاقه مرّاً  
 حماة الهدى والملك لله دركم على الخصم قد طبّقتم البرّ والبحرا  
 ومنها — سعيتم فقرّبتم بني العرب منكم وقلمتم الاخوان في الضرّ والسرا  
 فكانوا لكم أزراً على كل خارج عدو وما كانوا وحكمكم وزرا  
 يعدّون هذا الملك فيهم ومنهم ولا ينقمون الترك سرّاً ولا جهرا  
 فكنتم نجاد الملك والعرب سيفه وكنتم بين الملك والعرب اليسرى

ونختم هذه الامثلة ببعض ايات من قصيدة لبدر الدين النعساني في احمد جمال باشا. قال: (٣)  
 لن أكثر المدّاح فيك القصائدا فما بلغوا في الالف من ذاك واحدا



ومنها : رمى الله منك الانكليز بصارم  
عَسَوْا وَأَبَوْا إِلَّا لِقَاءَكَ فِي الْوَعْيِ  
أَقَامُوا عَلَى شَطِّ الْقِتَالِ مَعَاقِلًا  
قَطَعْتَ إِلَيْهِم بِالْحِيُوشِ مَفَاوِزًا  
لَقَدْ عَزَّ جَيْشُكَ كُنْتَ فِيهِ رَئِيسُهُ  
فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْيَوْمِ أَرْفَعَ هِمَّةً  
وَأَطَهَرَ أَخْلَاقًا وَأَصْفَى سِرِيرَةً  
وَقَفْتَ عَلَى عِلْيَاكَ فَيُضَى يَرَاعَتِي  
صَقِيلٌ يَقْدُ الْهِنْدَوَانِي غَامِدًا  
أَرَاهِم بِمَا رَامُوهُ مِنْكَ حَصَائِدًا  
سَتَبَقِي لَهُمْ يَوْمَ الْلِقَاءِ مَصَايِدًا  
بِهَا الصَّرَصَرُ التَّكْبَاءُ تَشْكُو الْجَلَامِدَا  
وَعَزَّتْ جُمُوعُكَ كُنْتَ فِيهِنَّ رَائِدًا  
وَأَعْظَمَ آثَارًا وَكَثُرَ حَاشِدَا  
وَأُنْجِبَ مَوْلُودًا وَأَكْرَمَ وَالِدَا  
وَنَقَسِي وَفَكَّرِي وَالْقَوَافِي الشَّوَارِدَا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينشر في سوريا والعراق . وهو واثق لا يجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجاله فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوس ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور نجلى لنا فيه من المشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً . الا ان المشهدين يختلفان . فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله <sup>(١)</sup> — « تتجه حتى العصور الاخيرة الى جهتين — تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي . وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل مسلم تعبئه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — الى حين الغيت الخلافة — نحو مكة والاستانة : يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع »

ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين اعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انه بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ » <sup>(٢)</sup> وما ذلك الا لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ السكل وفي السكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصمت . فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل . كاسماعيل صبري . وأحمد شوقي . وحافظ ابراهيم . وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية

(١) مقدمة الشوقيات ج ١ — م ( بتصرف ) ( ٢ ) الهلال ٢٣ — ٣٢٦ راجع أيضاً فيه بلاغات الوكالة البريطانية



حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن أن يقول في الانكليز مخاطباً السلطان<sup>(١)</sup>

فمَش لِلنَّيْلِ سُلْطَانًا أَيَّامًا      لَهُ فِي مَلِكِهِ عَقْدٌ وَجَلُّ  
وَوَالِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ كَرَامٌ      مِيَامِينَ النَّقِيَّةِ ابْنَ حُلُوْ  
لَهُمْ مُلْكٌ عَلَى النَّامِزِ<sup>(٢)</sup> أَضَحَتْ      ذَرَامٌ عَلَى الْمَعَالِي تَسْتَهْلُ  
وَلَيْسَ كَقَوْمِهِمْ فِي الْغَرْبِ قَوْمٌ      مِنْ الْأَخْلَاقِ قَدْ نَهَلُوا وَعَلَّوْا  
فَإِنْ صَادَقْتَهُمْ صَدَقُوكَ وَدَا      وَلَيْسَ لَهُمْ إِذَا فَتَشْتَ مِثْلُ

أما شوقي شاعر الحديو عباس (خضم الانكليز) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل « لعبة » فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لأميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز . وقد توفى الى حدٍّ يذكر له . اذ قال مشيراً الى عباس :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا كَفَرْتُ صَنِيعَةً      فِي ذَا الْمَقَامِ وَلَا جِجِدْتُ جَمِيلاً  
ثُمَّ فِي اعْتِزَارِهِ عَنْ مَدْحِ الْأَمِيرِ الَّذِي حُلَّ مَحَلَّهُ

أَخُونِ إِسْمَاعِيلَ فِي أَبْنَائِهِ      وَلَقَدْ وُلِدَتْ بِيَابَ إِسْمَاعِيلَا  
وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ يَقُولَ كَلِمَةً فِي الْإِنْكِلِيزِ فَقَالَ :

حَلْفَاؤُنَا الْأَحْرَارُ إِلَّا أَنَّهُمْ      أَرْقَى الشُّعُوبِ عَوَاطِفًا وَمِيُولَا  
أَعْلَى مِنَ الرُّومَانِ ذِكْرًا فِي الْوَرَى      وَأَعَزَّ سُلْطَانًا وَأَمْنَعُ غِيَلَا  
لَمَّا خَلَا وَجْهَ الْبِلَادِ لِسَيْفِهِمْ      سَارُوا سَمَاحًا فِي الْبِلَادِ عَدُولَا  
وَأَتَوْا بِكِبَرِهَا<sup>(٣)</sup> وَشَيْخِ مَلُوكِهَا      مَلِكًا عَلَيْهَا صَالِحًا مَأْمُولَا

على أنه لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطرابه الى مجازاة السلطة لم يبلغ في تلك المجازاة مبلغ الشعر السوري والعراقي ، بل ظل أكثر تحفظاً وأقل تطرفاً . وإذا كان في مصر يومئذ من غارات اديبة عنيفة على الأتراك فنشئوها في الأكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك جرائمهم ونفقات اقلامهم . ولم يكن على ما يظهر مبعثها التلق أو التعصب بل الاقتناع ( خطأ أو صواباً ) ان الخلاص من تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار المجد والسعادة

\*\*\*

أما الادب السياسي العمومي ( اي ما كان خارج دوائر السلطة ) فتشابه في جميع الاقطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطأة الحرب . ومن الطبيعي ان يكون أثره في مختلف البيئات

(١) الهلال ٢٣ - ٣٣٧ (٢) نهر لندن (٣) اي بالسلطان حسين كامل



بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما نظم منه في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيما بيروت ولبنان حيث بلغت الحنة أشدها. ومن شواهد تلك القصائد التي قيلت في احوال الحرب وفضائلها كقصيدة الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها (١)

في كل ارض وصقع مدافعٌ نائراتُ  
يقتلن كل فتى قد تفيد منه الحياة  
وليس يبقين الا اراملاً ويتامى

\*\*\*

هناك بحرٌ خضمٌ يجري ليغمر بحرا  
هناك بركان نار تسعي لتأكل اخرى  
هناك جيش هامٌ يومٌ جيشاً لها ما

\*\*\*

من قارعات صباحاً يهترئ منها المكان  
وبارقات مساءً يحمر منها الدخان  
وناسقات بليلٍ يبعثن موتاً زواماً

\*\*\*

القتل قتلٌ ذريع والخطب خطب جسام  
فوق الرغام دماءً يحمر منها الرغام  
والارض تشرب منها ولا تبل اوما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها « متى تضع الحرب أوزارها » ومنها: (٢)

ربوع الحصار أمست محطاً للفسور ومنتجع الاضبع  
وإن ابن آدم شر الضواري اذا هاجه هاج المطمع  
ففي الحرب سل عنه نيرانها وحمر الدماء على اليرمع  
وأشلاء قتلى أبادهم ميده من السيف والمدفع

ولو أردنا ان نعدد القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام ويكثر فيها وصف عن الناس من بؤس وجوع وخوف وترمل نساء وتيم أطفال وما الى ذلك مما يدخل اكزّه في باب العوامل الاجتماعية فترجىء الاسهاب فيه الى فرصة أخرى



## فكتور هيجو

شاعر الشعراء

كل شعر من أشعار هيجو أصبح من كف السماء ، تشير الى مجده . . . .  
ولسان من نار يندلع في سماء الادب والتاريخ ..  
الحيل في روعته والبحر في زبده ودرره وأمواجه والافق في سموه وتزاي  
أطرافه اجتمعوا ذات يوم وتداولوا في من يقيمونه محامياً يعبر عن أسرارهم  
المستقرة في أعماقهم فاستقر رأيهم على ان يكون الشاعر ذلك المحامي ، ونطق الشاعر  
فاذا هو هيجو . . .

ولد فكتور وعلى رأسه سرب من النسر هبطت من أعالي الفضاء وهي  
مأخوذة بزميلها الجديد ، مضطربة من مستقبله ومنافسته . .  
في ذلك اليوم كان يوم النسر يوماً قائماً .. أنهاها شاعر الشعراء فما هي بعده ..  
وماذا تفيد حوماتها . . .

ولد فكتور فكان يوم ولادته كيوم نابليون في وحيد فلق قد تناوله الشعر في  
ذلك اليوم وأطل به من شرفة الادب على دولة الادب وصاح : المستقبل لي ..  
ولد في مقر الاولمب في ظل جوبيتر ، وعلى وجهه نور من أنوار السماء ،  
وأطل على الحياة تعب الفؤاد لاهث الصدر من وطأة القرون على منكبيه فقدّم له  
فرجيل كأساً من الخمر صب فيها البحر من زبده فشرب فلم يطفئ غليله فشرب  
من دمه فلم يطفئ غليله فالتقط دموع الناس دمة فلم يطفئ غليله فلما  
ضاق به الامر شرب من قلبه طيلة ليله فلما أطل عليه الفجر كان قد أهرق دمه  
في القراطيس فكان مسيح الشعر . . ولما اشتد ساعده جاءه هوميرس وقال له :  
أنا الضرب رأيتك على الرغم من عمائي فقد شقت أشعتك حجاب نظري . . وأقبل  
عليه موسى فجلسا ساعة ، تحت الصفصافة الباكية ، وصعد لامرئين الى قمة الجبل  
ونفخ في البوق مبشراً الدنيا بقدوم شاعر الشعراء . . .

فكتور هيجو . . ومن لا يعرفه . فكتور . . وكفى . .

رأى ابا الهول فقال له : لقد أتيت فاسمع فأنا في صرخاتي العجيبة انت في صمتك العجيب



# الصدمة التي تشفي

علاج الخَبَل بالانسولين  
وتأثير صدمته في المدمنين

هو ذا طريقة جديدة لعلاج الجنون (insanity) <sup>(١)</sup> وتاريخها لا يرجع الى ما قبل سنة ١٩٣٠ ففي تلك السنة كان الطبيب النفسي النمساوي الدكتور مانفرد ساكل Sakel معنيًا بدراسة أحوال مدمنين المورفين عندما يمنع المورفين عنهم . فتبين ما تبينته غيره من الاطباء ، اي الاضطراب والهيج بل والجنون الوقتي في هؤلاء المدمنين وهم في هذه الحالة . فلم يكنف بذلك بل خطر له خاطر جعله أساساً لرأيه . ذلك بان تقبل المدمن الممنوع عن المخدر ، من حالة عقلية الى أخرى ، حمله على الظن بان المخدر أحدث تغييراً في انساج الجسم علاوة على التغيير في أحوال العقل . وذهب الى ان خلايا الدماغ تتأثر بالمورفين — وهو سم — تأثراً ضاراً ، فتجذب وهي في هذه الحالة مقادير من المفرزات المبهجة او المثيرة التي تفرزها الغدد ، اكبر مما تجذبه في الاحوال السوية والاطباء يعلمون ان للانسولين فعلاً يميل بأفعال الجسم الحيوية الى الهبوط . والانسولين كما لا يخفى تفرزه الغدة الحلوة السليمة فيساعد الجسم على تمثيل السكر . والمصاب ( بالديابيطس ملبتوس ) داء البول السكري لا تفرز حلوته الانسولين فيتجمع السكر في الدم . فاذا حقن المصاب بالقدر الكافي من الانسولين المحضّر في المعامل فعل فعل الانسولين الطبيعي فيهبط مقدار السكر المتجمع في الدم . ولولاه لمات كثيرون ودمنهم مكنظ بالسكر . ولكن اذا حقن المصاب بقدر من الانسولين اكبر مما يجب ان يكون هبط مقدار السكر في الدم الى اقل من مستواه اللازم فيصبح المصاب الحقون وكأنه تملّ أو مخدّر بالكحول وقد يفقد وعيه وتستولي عليه غيبوبة . وعلاج هذه الحالة ادخال مقدار اضافي من السكر في الدم ، والغلو كوز هو ما يستعمل على الاكثر في هذه الاحوال

واذا فلا يستغرب ان يستولي النعاس على أثر الحقن بالانسولين ، مع ان الانسولين ليس

(١) اشرنا الى هذه الطريقة اشارة ملخصة في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٧ في باب الاخبار العلمية ص ٢٣٣ وقد نرأنا في هذا الموضوع مقالات في «السينتيك أميركان» و«النوروم» و«رسالة العلم» فاجعلناهما جاثلين الاعتماد على مقالة السينتيك أميركان



مخدراً بـمحصر المعنى . ولذلك فكر الدكتور سا كل في استعمال الانسولين لتهدئة أعصاب مدمني  
المورفين الذين حيل بينهم وبينه . فأصاب في ذلك قسطاً من النجاح . ومع أنه استعمل مقادير يسيرة  
من الانسولين في حقن المدمنين لاحظ تغييراً يستوقف النظر في احوالهم العقلية بعد الحقن .  
فالمدمنون الهائجون أخذوا الى السكينة ، والمنطوون على انفسهم القاطعون كل صلة لهم بعالم الحقيقة  
عادوا يدركون الحقيقة والواقع ، والنازعون الى الاتزواء والحصام انقلبوا الى المودة والتعاون  
وقد كان هذا التغيير بادياً فيهم حتى في الايام الاولى من انقطاعهم عن المخدر ، وفي هذه  
الايام الاولى كان المدمنون اشد ما يكونون عنفاً وهياجاً . فلع في خاطر الطبيب النسوي بارق رجاء  
خطاف . فالانسولين على ما يبدو من تجاربه ، ينجح بالمرض الى التراخي والسكينة ، اي الى ان يعود  
المدمن سويّاً فترة طويلة او على الدوام مع ان مقادير يسيرة استعملت في حقنه . فهل يكفي الانسولين  
لشفاء دماغ المجنون اذا حقن بمقادير كبيرة منه . ان الفكرة لجريئة ولكنها جذبة بالامتحان  
وكان قد علم هو وغيره من معالجة مصابي البول السكري بالانسولين ان حقنهم بمقادير  
كبيرة من الانسولين لا يؤذيهم الا في احوال نادرة وان حقنهم حينئذ بالغلو كوس يبطل ما  
يتعرضون له من خطر . ولكنه أراد ان يستوثق لانه طبيب ذو ضمير حي  
ولذلك تقدّم الى امتحان فكرته هذه خطوة وثيدة اثر خطوة وثيدة وشعاره في كل  
خطوة بخطوها سلامة المصاب . انها في نظره مقدمة على كل شيء آخر . فعلم من تجاربه المتعددة  
ان جميع أنواع الاضطرابات العصبية والعقلية لا تستجيب لعلاج الانسولين هذا . فالخُـبـلُ  
Shizophrenies يجنون منه فائدة عظيمة وأما المصابون بالجنون السوداوي ( مقابل للفظ  
manic-depression وهي حالة يتداول فيها المصاب دور الجنون فدور السوداء : عن معجم  
دورلند الطبي ) فقلما يجنون فائدة ما

والخُـبـلُ ( shizophrenies ) ذوو الشخصية المتهافة الموزعة يشملون الذين تنطوي عقولهم  
على ذواتهم فيعيشون وكأنهم في حلم وينشئون عالماً خاصاً بهم لاصلة له بالواقع ويتخيلون انهم يعيشون  
مع ملوك وملكات وأميرات . ويكثر ان يظن الأخبيل نفسه شخصاً آخر ، وفي هذا التخيل  
منفذ له من حقيقة الواقع . والمصابون بهذا الضرب من الاضطراب العصبي العقلي ، هم السوداويين  
الذين يؤخذون الى مستشفيات الامراض العقلية كل سنة في أميركا وعددهم يبلغ نحو مائة الف  
ولا يعلم عن سبب هذه الحالة شيء واضح فيكتفي الاطباء بقولهم ان مردّها الى « أسباب  
وظيفية » وهذان اللفظان لا يعنيان شيئاً

ثم هناك المصابون بالجنون السوداوي وهم على الغالب نهبٌ موزّع بين النشاط والتراخي او  
الهياج والهبوط . وعلمهم أيضاً تعزى الى « أسباب وظيفية » . وليس ثمة من يعلم هل حالة الاخبيل  
وأحلامه الغريبة ، وحالة المجنون السوداوي ، مرضان قائمان بنفسهما او هما عرضان لاصابة



جسمية خفية ، ليست صلتها بالدماغ والجهاز العصبي إلا صلة ثانوية. ولذلك يمكن ان تحسب طريقة العلاج بصدمة الانسولين من أعجب الطرائق الطبية الحديثة لانها تعالج مرضاً لا يزال سببه سرّاً مغلقاً قرر الدكتور ساكل ان خير اسلوب يتبع في العلاج ، ان يحقن المصاب بمقادير متزايدة من الانسولين حتى يبلغ مقدار الحقنة الواحدة المقدار الذي يحدث الصدمة في الجسم . ومقدار « حقنة الصدمة » يختلف باختلاف المصابين ويتفاوت من ١٥ وحدة انسولين الى ٤٥٠ وحدة ويقصد بحقنة الصدمة ذلك المقدار من الانسولين الذي يلزم لاجداث الغيبوبة في المحقون بعد اربع ساعات او خمس ساعات من حقنها فيه . وبعد بلوغ هذه المرتبة يحقن المصاب بمقدار الانسولين الذي يحدث الصدمة من ثلاث مرات الى ست مرات في الاسبوع حتى يحني اكبر قدر من الفائدة . والغالب ان لا يعطى اكثر من خمسين حقنة اذا لم يستجب لتأثيرها . فاذا استجاب جسمه لتأثيرها فقد يعفى من الحقن يومين او ثلاثة ايام بعد كل حقنة ، وعلى كل حال يجب ان يعفى من الحقن يوماً واحداً في الاسبوع على الاقل

وقد كان أصعب ما اعترض سبيل الدكتور ساكل معرفة طول الغيبوبة التي يحفظ فيها المصاب وعدد « حقن الصدمة » التي يحقن بها . فمنهم من تكفيه ثماني حقن ومنهم من لا يبدأ جسمهم بالاستجابة لتأثير الحقنة الا بعد خمسين حقنة . ثم يبدأ الطبيب في تقليل مقدار الانسولين تدريجاً حتى يغدو مقدار الحقنة الاخيرة مقدار الحقنة الاولى

ولا يسمح للمصاب بأن يتناول طعاماً قبل الحقن والغالب ان يحقن في الساعة السادسة صباحاً ثم يبطل فعل الانسولين في الجسم بحقن محلول من السكر في الشريان او بأخذه عن طريق الفم ، وذلك في الساعة العاشرة صباحاً اي بعد انقضاء اربع ساعات على اعطائه الحقنة . واذا كانت الحقنة كبيرة وأحدثت صدمة وغيبوبة ، بقي المريض في فراشه ويراقب مراقبة دقيقة حتى اذا بدا عليه اي عرض من اعراض الضعف او الهبوط اعطي السكر اللازم لتعزيز قواه وبعد ان يعطى محلول السكر يستحم ويتناول فطوره ويسمح له بالقيام والتجول . ولكن المراقبة الدقيقة لازمة جداً ، لان السكر ينقص فجأة احياناً حتى حدود الخطر ولو كان المصاب قد اكل وشبع . وفي هذه الحالة يجب ان يحقن بمحلول السكر ايضاً

وفي سنة ١٩٣٣ أذاع الدكتور ساكل شفاء عليه الاول بهذه الطريقة وتبعه كثيرون ، ونشرت نتائج بحوثه والحالات التي عالجها ، فدهش علماء الطب النفساني مما قرأوه في رسائله ، لان تصديق ما فيها بدا صعباً . ولكن الدكتور ساكل شفي ثمانين في المائة من الجبل الذين عالجهم كذلك . والاقبال على تجربة هذه الطريقة في اميركا كبير والصحف حافلة بانبيائها ، ولكن التعميم الآن سابق لاوانه والتجارب يجب ان تجرى بحذر عظيم



## أثر الماركسية

في الادب

لطيم منرى

احب بعد ان طرقت هذه الابواب في الاشتراكية ومذاهبها بما قد يقره العقل الاجتماعي الحديث او لا يقره ، أن اعرض للبحث الاساسي المقصود به هذا المقال وهو علاقة الماركسية بالادب . فاذا استعرضنا بعض النتائج التاريخية والحركات الفاصلة في تاريخ الاجتماع وجدنا ان الفكر السياسي في اوربا كان قد تطور نحو اتجاهات عديدة في الفترة التي استقرت فيها الحال بعد الحروب الثورية في القرن الثامن عشر . ولقد كانت المدرسة الفلسفية الذائعة الصيت إبان ذلك تلك التي قامت على فلسفة « هيغل » وترعها « هيغل » نفسه والتي قامت ايضاً من قبله على اكتاف « كانت » الفيلسوف الكبير ومن قبله أسسها فيلسوف الطبيعة « روسو »

ان كثيراً من تعاليم ماركس بل اشتراكيته نفسها في مظهرها ، يعود الى « هيغل » . فقد كان نجاح « هيغل » كفيلسوف يعود الى تقديسه « الفكرة » التي اعتبر المادة لها اثرأ . واما ماركس فقد أخذ هذه النظرية وقلبها رأساً على عقب وكان باعته في ذلك النحو من الرأي ان الفكرة في ذاتها لا تقرر الى « محصول المادة » في بناء الجمعية الانسانية ، وانشأ على هذا الاساس نظريته الاجتماعية ، « Materialist Conception of History » « النظرية المادية للتاريخ »

والآن دعنا نبدأ « ماركس وإنجلز » ونرى مدى ما قصد به الادب والفن في مذهب « المادية الجدلية » « Dialectical Materialism » او الفلسفة الجدلية أو المنطقية — اذا صح هذا التعبير — . فقد اعتبر ماركس وإنجلز ان وجود المجتمع الانساني في أية مملكة وفي أي جبل موقوف على وسائل الانتاج وقد يتبها للمجتمع فضلاً عن ذلك « كفايات عليا » كالسياسة والقانون والدين والفلسفة والادب والفن . ونستطيع في غير تخرج ان نطلق على هذه الكفايات « مظاهر النشاط » وهي لا تتجمع كلها في المعاني الاقتصادية وانما من شأنها أن تكون بطرق مباشرة أو غير مباشرة « التناسق الاجتماعي » وهي تمتد الى مختلف المرافق العامة كل منها في



أنجاه الخاص على أنها ترتبط في نظام واحد لأنها تعمل متضافرة كما أنها ترتكز على الحياة الاقتصادية . وإذن فلا يجوز أن يقال أن الحالة الاقتصادية هي وحدها الأثر الفعال وما عداها فلا يعد به . فقد يتاح مثلاً لطابع أي عصر من « العصور الفنية » أن تؤثر حيويته في « نظام » ذلك العصر بصفة عامة وفي نواحيه الاقتصادية بصفة خاصة . . . لم يحاول « ماركس » أو « أنجلز » إقامة مذاهب اجتماعية اقتصادية لكي يستطيعا بها تحديد « المنزلة الفنية للاجتماع » فقد نشأ كلاهما في مغرب أيام « جيته » الشاعر الألماني العظيم قبل أن ينتهي العصر الذهبي للأدب الألماني . ولقد حاول « ماركس » وأنجلز أن يطرقا أبواب الشعر في صدر شبابهما بل لقد اندفعا في غمار الحياة الخيالية واستطاعا أن يبلغا فيها شأواً بعيداً بل استطاعا أن يكونا ناقدين لم تقبل عقليتهما هضم ما كان يكتبه « أوجين سو » في مؤلفه « العائلة المقدسة » عن طرق العلاج لبؤس الطبقات المتوسطة في المجتمع . بل لقد نددا « بفردريك فريديجرات » الذي هجر عصبة الاشتراكيين وارتدَّ وطنياً في عام ١٨٧٠ وكذلك أنحى ماركس باللائمة على « هنريش هيني » عندما ظن أن هذا الأخير قد أنحى خوفاً أمام أصحاب السلطة عندما كتب « تعبيرات الزهد » في وصيته . وهذا ثابت من رسالة ماركس إلى أنجلز في ديسمبر ١٨٦٦ مع أن ابنة ماركس تقرر أن والدها كان يحب « هيني » بقدر ما كان يتغاضى عن إخفاقه السياسي . ولقد كان ماركس يقول أن الشعراء قد يكونون عباقرة إذا ما تركوا في سبيلهم أحراراً فليس من المفروض أساساً أن نضعهم في المستوى العادي الذي نضع فيه سواد الناس

لم يكن من مميزات ماركس وأنجلز الحكم على الآداب — آداب السموة والقوة — في حدود أنجاهاتها السياسية . فلقد طالما اندر ماركس رواثي الاشتراكية بما ينجم من خطر عن الآداب الغامضة التي قد تؤدي نتائجها إلى أغراض غير صريحة . ولقد كتب إلى « مينا كوتسكي » يقول لها عن أحد مؤلفاتها أن شخص البطل والبطة في قصتها قد ذابتا في المبادئ التي يمثلانها ويقول لها لقد اتخذت بعض جوانب تلك القصة لإبراز نظرياتك إلى المجتمع على أنني أرى أن الأنجاه يجب أن يصدر عن الحوار والحركة دون أن يركّز في مذاهب اجتماعية أو نظريات علمية وأنه ليس على الشعراء أن يطالع على القارئ بحل ما ينتهم به نهاية النزاع الذي يسرده

ولقد أرسل « فرديناند لاسال » مأساته الشعرية « فرانز فون سيكنجن » إلى ماركس وأنجلز بدعائها إلى نقدها . فكتب إليه ماركس يقول « إذا تركت جانباً أي فكرة تعرض لي عن نقد هذا المجهود الأدبي فإن قراءتي الأولى لتلك الدرة الثمينة قد أثرت في التأثير كله وطبعي أن يثير مثل هذا الأدب كل ذي وجدان » . أما أنجلز فقد قال أنه قد قرأها مثنى وثلاث ومن فرط إعجابه بها وضعها جانباً متأملاً في ما عسى أن تملئ عليه مواضعها من نقد . . . » . ولقد



تحدثنا في هذا عند ما كنا يدفعان أنفسهما الى المحيط الادبي لكي يطلعا على الانتاج الفكري ويضعان بصده ما يعن لهما من ملاحظات . ولا عجب ففي عصرها بلغت « الدراما » مكانة رفيعة ولقد أمكنهما ان يبيننا كيف ان مكانة « لاسال » السياسية جعلته يخطئ، فهم الدور الذي لعبه بطل مأساته . أما « شاكسبير » فقد كان « ماركس » يكلف بآثاره الادبية والشعرية كلفاً شديداً . فكان يحفظ شعره عن ظهر قلب . وكان مشغولاً بكتابة مذكرات عنه . ولكن لم يحاول ان يخرج منها بأية فكرة عن الاشتراكية

ولقد كتب ماركس مديداً مدى العلاقة بين الفن والنظام الاجتماعي فأشار في مقدمته لتقد « الاقتصاد السياسي » الى ان في بعض العصور التي شارف فيها الفن المثل الاعلى لم يكن له قيمة اتصال بالتقدم الاجتماعي . بل لم يكن له صلة بالقواعد المادية التي يقوم عليها نظام الاجتماع . ولم يكن ماركس او انجلز ممن يتخذون الفن سلاحاً . « Art as weapon » . بل كانا يناظران بالمثل الاعلى للعقلية التي تشترك في مناح كثيرة للعلوم والمعرفة فلم يحبذا التخصص في احد العلوم او الفنون بل كانا يقدران شخص ذلك العالم الذي قام في أيام « النهضة الاوربية » Renaissance والذي كان موسوعي الثقافة

وهذا « ليوناردو » كان مصوراً ورياضياً وعالماً هندسياً . ودونك « ميكافيلي » فقد كان شاعراً ومؤرخاً وسياسياً ماهراً . كان هذان الرجلان اذن يمثلان تلك النظرية الثقيفية قبل ان يكون لتقسيم العمل « Division of Labour » هذا التجديد لطبيعة العقل ونموه وقبل ان يفرض على كل انسان عمل خاص . على اتنا اذا ما نظرنا الى « لينين » مثلاً وجدنا أنفسنا أمام شخصية مثقفة مجربة وانما نجد أيضاً ان ماركس خص نفسه بشيئين « التنظيم والكفاح » ولقد كان كمعلم الروسيين — يعشق الموسيقى . ويحدث عنه جوركي فيقول « لقد كان يستمع ألحان بيتهوفن فبؤثر سماعها كل يوم على أي شيء . ويبرع عن احساسه نحوها فيقول . تلك هي الموسيقى التي ترتفع عن عواطف البشر وانني لا أذكر بفخر ما يصل اليه سمو العاطفة وجلال الالهام بل ما يصل اليه العقل — على انني لا أستمرى سماع الموسيقى كثيراً . فهي تؤثر في أعصابك وتجعلك اما متبرماً ساخطاً واما فرحاً راضياً على ان ينتهي هذا التبرم او السخط وذلك الفرح والرضاء الى الاعجاب بأولئك الذين يخرجون الى العالم درراً وفرائد ويعيشون في وادي الجحيم »

ولقد كان لينين مشغولاً بالقصة والشعر والتثيل وكان ذا نزعة خاصة في تذوق الفنون الرفيعة ولقد قال ذات مرة في أثناء حديث له في إحدى ندوات الشباب : ماذا تقرأون ؟ أقرأون بوشكين ؟ — لا . لا . انه كان كاتباً من كتّاب العامة . وانما نحن نجل « مايكوفسكي » . فابستم أحد الموجودين وقال : انني لا أظن ان « بوشكين » يفوقه كثيراً



وكان لينين يمجّد « تولستوي » وكثيراً ما كان يقرأ كتابه « السلم والحرب » ولقد قال لينين عن تولستوي ان عبقرية منقطعة النظير وانه الفنان الذي يجب ان يتخذ مثلاً أعلى . ولقد كان لينين يكتب عنه معالجاتاً نواحي عبقرية كما كان « إنجلز » يحلل نفسية الشاعر الالماني « جيته » وان كان قد عرّض بعدم مقاومته وبتصوفه . وقد كانت فكرة لينين عن جوركي كفكرة ماركس عن « هيني » وكان يقترح في بعض رسائله ان يكون جوركي كاتباً صحافياً يدعو للبشفية . . . على ألا يكون من وراء هذا تحطيم زعمته الادبية العالية . . . وجوركي هذا الذي يعنيه لينين لم يستطع احتمال استبداده ودسائس انصاره فهاجر الى أوروبا تاركاً منصبه في حكومة روسيا وقد كان فيه مديراً للفنون الجميلة

ان لينين يمثل تلك « الطوبى » التي نخبها « ماركس » عن « الاشتراكي المسكفح » فقد كان دائماً الجلال والعمل ليصل بأصحاب « الايدي العاملة » الى مركز الحكم . ولقد كانت نظريات « كارل ماركس » انجيلاً يستتير به في حياته الاجتماعية بل كانت الحافز الذي دفع بلين الى ان يعتنق تلك الفلسفة الجديدة في الاجتماع حتى أتبع له ان يصل الى تمزيق النظام (الرأسمالي) . ولقد كان له ان يحذق تلك الاساليب المختلفة التي يحتاج اليها الهدم والبناء وكانت نظريته ان المبادئ شيء والاعمال شيء آخر وان القائد يجب ان « يجرب » لكي يصل الى خير الوسائل والطرق وبذلك يتنهي الى ما يطمح في الوصول اليه . ومما قرب للينين الطريق ما في خلقه من حزم واستهتار وبوهيمية

فقد عرف هذا الرجل كيف يسبر غور النفس الانسانية وكيف يختار الرجال ويدرس أوساطهم وبواعثهم النفسية . واستطاع ان يستخر المجتمع رجالاً ونساء لخدمة اغراضه التي تنحصر في ان الحكومة يجب ان تسودها الطبقات العاملة ( Proletarians ) وهذا الرجل الذي كان يعمل بأراء ماركس في الحكم كان يبشر بهذه الآراء ذاتها في الادب والثقافة وكان من رأيه ان يكون الادب خادماً للحياة وان يكون وسيلة فعّالة من وسائل التقدم الاجتماعي . واذا كانت الحرية غاية في ذاتها فتحريّر الفكر من أسر التقاليد هو « الغاية » التي يجب ان يسعى اليها الادب أما « تروتسكي » فكان أديباً يفضّل على لينين . أخرج عام ١٩٢٤ دراسة مسهبة عن « الادب والثورة » طالع فيها المشاكل التي تعرض لها الكتّاب الروسيون وعن علاقاتها بالمجتمع الجديد الذي يعتبر وليداً للثورة . ولقد تعرّض في بحثه لاشياء لم يتعرض لها ماركس وإنجلز من موضوعات تختص بالنقد الادبي تحدث فيه عن قيمة الادب ورسالته في الحياة . لقد قدر تروتسكي منزلة « شكسبير واليونان » فليس يحق لسكان من كان ان يثير غباراً على هذه الآثار الخالدة الحية . ولقد كان هذا رأيه بينما الكتّاب الروسيون كانوا يتساءلون عن منزلة الادب



والفن في عصور الانحطاط الدكتاتوري او الحرية الاشتراكية . وما هي الثقافة التي للطبقات العامة التي عنهم نشأت الاشتراكية . وهل تكون هنالك آداب شعبية جديدة في أساليب جديدة تمثل عواطف وآراء تلك الدكتاتورية الشعبية ؟ لقد كان في روسيا جماعة أطلقوا على انفسهم « البروليكتكت » رغبت تلك الجماعة في ان تحتكر الاشراف على الآداب السوفيتية . على ان لينين بدأ في معارضة المشروع بحجة ان الآداب الشعبية شيء لا يقوم على قوة السياسة او استقلال الآراء السياسية وانما يقوم على التطور الطبيعي القائم على المعرفة والعلم والتي جاهد من أجلهما الشعب تحت ضغط رأسمالية الاشراف والحكام . ولقد زعم تروتسكي في كتابه « الادب والثورة » ان الآداب الشعبية والثقافة الشعبية تنتهي الى نتيجة خطيرة في التكوين العلمي لعقلية الشعب اذا استمرت ، إذ يجمع خطأ ثقافة المستقبل في الحيز الضيق لحالتنا الاجتماعية الحاضرة . وانا لنفهم من « ماركسيته » انحاء التأثيرات الخاصة بالادب القومي الذي يدعوا الى الحرية والبعد عن تأثيرات اصحاب السلطة . ولقد قدر تروتسكي أولئك الكتاب والشعراء والروائيين الذين اهتمهم الحياة كثيراً من دروسها وعرفوا مدى ما ينتهي اليه تفكيرهم من بحث الازمات الاقتصادية . . . وهو مع هذا لم يكن يؤمن بالادب الشعبي الذي حل محل الادب « البرجوازي » . فلقد نما ادب الثورة الفرنسية البرجوازي في كنف العهد القديم ولسكن روسيا « الامية » لم يكن لها مثل هذا الحظ من الثقافة وقد لا يحتمل ان تتمتع به في المستقبل لان الدكتاتورية الشعبية لم تكن الا فترة انتقال قصد بها إيجاد فكرة انسانية عظيمة . فالشيوعية لم يكن لها حتى اليوم ثقافة فنية ولكن كان لها ثقافة سياسية !! . ويقول تروتسكي — لم يكن من السهل ان تطبق مبادئ ماركس على الصور الفنية كما انه من السهل ان نقيس الصور الفنية الى مكانتها من السمو الفني بمقاييس الفن نفسه !! . لم يعود الناس في روسيا ان تشرف الحكومة على الاعمال الادبية والفنية . وكذلك لم تحاول الهيئات الادبية ان تثبت وجودها عن طريق الحكومة . واما كانت في روسيا منذ الانقلاب الثوري جماعات أدبية حاولت ان تسيطر على الادب برعاية السلطة حيناً وبدون رعايتها حيناً آخر . ولقد كان تروتسكي بمكانته الرسمية بضاد هذه الاتجاهات وينكرها . وكان محبو الادب الروسي يعتقدون ان هذا النوع من الاستقلال بعيد عن الروح الاشتراكية وانه شر محض وان الحكومة لا الادب يفيد كثيراً من هذا الاشراف على الثقافة . وهذا العمل بعيد عن جادة الصواب فقد كان الادب « الرومانتيكي » في عهد القيصر يلعب دوراً لم يتح لمثله ان يلعبه في عهود التاريخ كلها . فقد كان النقد الاجتماعي والسياسي والادبي مضميناً عليه بالرقابة . وكان أن ألبس النقد يومئذ لباس « الدراما » لكي يظهر في أثواب مسرحية . ولقد تمها المسرح يومئذ عهد جليل من عهود التمثيل الفنية في القرن الثامن



عشر بل ان هذا هو السر في قوة تلك القطع الروائية العظيمة التي انتجها عباقرة الكتاب في تلك الفترة منذ عهد بوشكين حتى تولستوي . وكان هذا الادب التبشيري يتسم بالتعريض art of implication ولقد كان يكفي لان يفلت مؤلف « تورجينف » من يد الرقيب لكي يطرد الرقيب نفسه بل يسجن وكان هذا الموضوع التبشيري « A Sportsman's Sketches »

ظلت الآداب كالمسياسة منذ الثورة في حالة شديدة من التناقض والارتباك . أما بعد الثورة فقد كان المفكرون انفسهم اصحاب قوة ورأي . وكان اندماج الثقافة بالسياسة يومئذ لا يخلو من اخطار وشور . فعمد لينين و تروتسكي ولوناشارسكي وجوركي الى تحرير الادب من اي دعوة . وكان لهم ان يناهضوا هذا الشعور الفكري الذي وجد في اذهان الشعب منذ عهد القيصر والذي كان يعتبر الفن سلاحاً للدعوة . وكان لينين لهذا يفيد كثيراً من دعاوة الصور المتحركة وكان اول فيلم شاهده الشعب هو « لاينشين » و « بتروفكين » وهو قطعة عظيمة في التعريض والنقد الاجتماعي على نسق الروايات التمثيلية التي مثلت في عهد القيصر . على ان البلاشفة قد أخفقوا بعد موت لينين ونفي تروتسكي في النهوض بهذا النوع من الآداب ولان « ستالين » لم يكن على درجة من الثقافة تعدل تلك التي للينين او تروتسكي . ولقد خمدت حركة النقد المسرحي نفسه لان ذلك الشعب الاحي لم يكن ليصل الى تلك الذروة من التفكير

كان جوركي مدافعاً عن حرية القلم بل كان قد ارصد نفسه للدفاع عن حرية الفكر قاله يرجع هدم « الراي » R. A. P. P. آخر مجهود في الاحتكار الثقافي . ولقد فتح الكنائس والمعاهد السوفيتية لاقطاب الكتاب الاجانب وكذلك لكتاب الكلاسيكيين وان كان هذا التصرف قد ادى الى تدعيم المظهر الديمقراطي وهياً مجالاً واسعاً للاطلاع على الآداب والعلوم والفلسفات . وهذه الفترة تفضل كثيراً عهد « ستالين » حيث لا سبيل الى معارضة سياسية او نقد اجتماعي . وفي روسيا نجد السياسة تقرر المصير الاجتماعي ؟ . واذن ما هو على وجه التحديد موقف المفكرين الروسين . اولئك الذين يهيمون بفلسفة التاريخ او فلسفة الفنون والذين نضعهم في الصدارة اذا ما ذكر ادباء الاجتماع في العالم !! ان الموضوعات التي يعرض لها الادب التبشيري اليوم في روسيا لا تمت بصلة الى « المليودرام » ذلك التمثيل القوي الذي يصدر عن العاطفة والمعاني الخلقية . وانما نجد اليوم في روسيا قصصاً تمثيلية هزيلة تتجه نحو الدعاوة الى اسلوب الحكم الذي يقوم به « ستالين »

ان موسيقى « سكوستا كوفتش » التي لم يتذوقها الجنود كانت دليلاً على اهل الديمقراطية ومبادئها . وطبيعي ان موت « جوركي » وسجن « بوكارين » و « رادك » ازال « الفرمة » التي كانت تحول دون التدهور الفني وبعبارة اخرى التدهور السياسي . ان نموه الحقائق التاريخية



في عهود ازمت ستالين وروتسكي قد ادت الى نتائج وهمية حتى ان الحكومة لا تتوانى في ان تضع للناس برنامجاً جديداً يمثل تاريخهم القديم ويصف اخلاقهم . ومثل هذا التصرف لا ينتهي الاً بأفساد الحياة العقلية التي تقوم عليها مظاهر الاجتماع وتقديره . على ان هذا كله يقابله العالم اجمع في شيء من الهدوء والابتسام . وعلى هذا النحو فقد دفعت « الماركسية » بنفسها في مأزق حرج او كما يقولون قد اسقطت نفسها في بئر . ونحن قد نخيل اليانا ان « السوفيتيين » لم يبق لهم من ماركسيته حتى « الثقافة السياسية » في أعنف صورها . وهكذا فقد بعدنا عن تأثير الحرية طالما قد فقدنا إلهامها . واذن الى اي خاتمة تنتهي قضية « الماركسية والادب » . اننا يجب ان نتذرع في هذا البحث بالمنطق السديد ونحكم العقل واذن فلا ينبغي ان نغفل تلك الايات الادبية الخالدة التي اخرجها آباء الماركسية . اننا قد نبعد قليلاً عن « روتسكي » فيما قد قرناه من أحكام ونصرح بأن « الماركسية » وحدها لا يمكن ان تدلنا على الطيب او الردي من الانتاج الفني . فقد يكون هنالك « ماركسي » ممتاز ولكنه قد فقد ملكة التخيل او الذوق واذن فهو لا يستطيع ان يفرق بين الغث والسمين في الانتاج الادبي وهذه نتيجة « ايدولوجية » خاصة بتكوين ثقافته ان دراسة الادب وعلاقته بالاجتماع قديمة جداً قدم « هرذر » وفيكو . ولقد سبق « لكولدرج » ان تحدث عن تلك العلاقة التي تقوم بين الادب والمجتمع . فقد تبين « قوة » السلطة اليونانية في عهودها التاريخية في ثنايا التعبيرات الادبية اليونانية . كما قد تستطيع ان تلمس « الفردية » الانجليزية في محاورات « تشوسر » . على ان « البرجوازي » الاكبر في هذا السبيل من النقد هو (تين) ان الكاتب اذا شاء ان يطبق المبادئ والنظريات الماركسية ولا سيما نظرية ماركس عن « الفلسفة الجدلية » ينبغي ان يدرس الادب الانساني درساً عميقاً . فالثيء الذي يجب ان يتنبه له الكاتبون يتعلق بالمعاني التي ترمي اليها حقائق الادب . ولعل هذه الحقائق لن يصل اليها العقل في يسر وسهولة فقد لا يستطيع الاديب نفسه اداء هذه المعاني في شيء من التبسط . إما لغموضها وإما لابهامها وإما لرمزيتها . وقد يعاني القارئ شيئاً غير قليل من العسر اذا ما انتهى الى حدٍ نخيل اليه انه الحقيقة او المعنى الذي اراده الكاتب ، وقد يكتفي بما يعثر عليه من آراء اشتراكية تهذيبية . وقد يخطيء اذا ما عرف معنى من المعاني يخالف تلك التي يرمي اليها الكاتب . فبعض المعاني والالفاظ يصح ان يتخذ فيها اكثر من تفسير واحد او معنى واحد . ولقد كتب ( فريدريك انجلز ) الى ( مارجريت هاركنيس ) عن هذا فقال لها . ( كلما استطاع الكاتب ان يخفي آراءه او خواطره السياسية كلما كانت اقرب الى الوضع الفني . فبذلك بآرائه الرجبية يفضل زولا كثيراً رغماً عن آراءه الاخير الديموقراطية . فبذلك كان موضع اعجاب ماركس وانجلز . ولقد كان يرثي لتهدم الطبقة العليا في المجتمع وكأن نقده لم يكن مرّاً واستهزاء لم يكن



عميقاً عند ما كان بصور الشخصيات الارستوقراطية المعاصرة . تلك الشخصيات التي كان يحبوها بمطفه . بل التي كان اعجابه بها سافراً . وهؤلاء انفسهم كانوا من معارضيه السياسيين الذين استطاعوا ان يمثلوا مطالب الطبقات الشعبية في الفترة بين عامي ١٨٣٠ — ١٨٣٦ . وعلى هذا فليس من المحتمل انه ينبغي في الآلية الفنية تحديد الاشخاص في معرض النزاع او غيره من شؤون الاجتماع حتى يتها إلى اعداد الصورة الكاملة عن المجتمع . وهذا ما قد يعرض له الادب كما قد تعرض له الموسيقى من وجهة الفن . على انه من المفروض تحديد العواطف والانفعالات التي تدفعنا إلى الحركات والاعمال ومن هذا نرى ان الذكاء الحقيقي واستشفاف حجب الغيب يدلان على حيوية التفكير في النفس وهذا ما يستطيع الكاتب تبيانها في ادبه اذا كان موهوباً واذا عرف ان يصل إلى ما تهوؤ له افكاره من صور وما يلميه عليه عقله من آراء علمية متزنة

وليست الماركسية في النقد تعني الهدم وانما هي تعني البناء . فناقده ( اليسار ) الذي لا يتزود بالكفاية الادبية قد يعمد إلى وزن المؤلفات الادبية بموازين ليست مضبوطة . وهذا مصدره قلة التحصيل والاطلاع على متباين النزعات الادبية والخلقية . فالتاقد ينبغي ان يعرض للادب باعتباره ( وسيلة ) لا باعتباره ( غاية ) فالمثل الاعلى للادب الماركسي مثلاً هو ( فائده ) التي تعود على هذا المجتمع الكبير . كأن يقرر الوضع الصحيح للفرد والمجموع وحقوق المرأة ورسالة العلم في الحياة وماهية الفلسفة وتعديل النظم الاقتصادية وتعريف الحقوق والواجبات . والالتزامات الخلقية المفروضة في الكتاب والادباء . واليوم الذي تصل فيه الماركسية إلى هذا هو الفترة التي « تتحجر » فيها وتصير مذهباً فلسفياً كالمذاهب المعروفة . أما مميزات المثل الاعلى للادب الماركسي فهي كما ذكرها ( جرانث هيكس ) في مقال له عن الأزمات في النقد ما يأتي : — أولاً : ان تكون وظيفة هذا الادب ان يفهم القارئ من طبقة العمال دوره الذي يقوم به في الكفاح الاجتماعي . ثانياً : ان يظهر ذلك الادب بطريقة مباشرة او غير مباشرة نتائج كفاح الطبقات ثالثاً : اشعار القارئ ان الكاتب يساهم في هذا الضرب من الحياة الاجتماعية التي يعرض اليها رابعاً : ان يكون الكاتب نفسه في مقدمة طبقة العمال عطفاً وروحاً

ولقد عقد في اغسطس عام ١٩٣٤ مؤتمر الكتاب الروسيين ونودي فيه بمذهب ( الاشتراكية الواقعية ) في الادب ولم يكن هذا غير محاولة لتقرير بعض الموضوعات الادبية عن الحياة . أما « الفرضيون » الذين يتصورون إلى حد ما أدب المستقبل فلهم ان « يحكموا على نسبة ما وصل إليه الانتاج الادبي في عصور الامبراطورية » وبين فقر الادب في هذه الايام . واذا كان في عرفهم انه لم يظهر هنالك أديب يسمو إلى تقدمهم او يكون مستحقاً لهم من أجل هذا يؤملون كثيراً في المستقبل ويمرغون انهم مقبلون على عصر « مادي » او كفاحي قد يوجد فيه طائفة من « المثاليين » .



«والانسانيون» في عرفهم قد وجدوا خير معين في أدب سوفوكليس وشاكسبير «والاشتراكيون الواقعيون» Realist كان لهم تولستوي وأضرابه. على أنه من الثابت لو ان تولستوي قد عاش في حين ما يفرضه أو يحدده هؤلاء لما كان قد كتب فصلاً واحداً وكذلك لو ان (بايدت) و(مور) قد أمكنهما ان يقبلا امام (شكسبير) فروضهما لما كان قد خط حرفاً من قصيدة

لقد بدأ الادب الروسي منذ أول هذا العصر ان يسير في وجهتين مختلفتين الاولى وجهة الادب الواقعي والثانية وجهة الادب البرجوازي الكثير (الرومانتيكيات) وقد انتصر الاول بانتصار الماركسية وتهدم الثاني لبعده عن الحياة وقربه من الخيال والصنعة والارستقراطية ولقد ظل هذا الاخير منذ نهاية القرن الثامن عشر يسعى للدخول في الحياة ويحاول لكي يجد له تأثيراً فيها فأخفق بعد ما يقرب من المائة سنة بينما الادب «البروليتاري» التقريري قد عرف كيف ينفذ الى صميم الحياة بعد النصف الاخير من القرن التاسع عشر وهو قد بلغ أوج مجده في السنوات التي اعقبت الحرب الكبرى وقد يقول قائل وما ادعى الاوقات ملائمة للاتاج الفني ؟ قد يكون في عصري الثورة وما قبل الثورة انتاج ادبي فيه حيوية وتجدد . وهذا ما يخالف وقت الثورة نفسه فما لا شك فيه ان الصور الادبية العالية يحتاج في صنعها الى فراغ وهدوء والكاتب في غصون الثورة محروم منها. فادب الثورة الفرنسية احتوته خطب (دانتون) ومذكرات (كاميل ديمولان) وقصائد (اندريه شيفيه) السياسية القليلة التي كتبت قبل ان تنزع رأسه (الجيلوتين) . أما أدب الثورة الروسية فقد احتوته كتابات لينين وتروتسكي واشعار الكسندر بلوك (الاثنا عشر)

أما ما قبل الثورة فقد كانت العوامل كلها تدعو لاختيار الافكار . ففي القرن الثامن عشر في فرنسا والقرن التاسع عشر في روسيا لم تكن قوة الادب فيهما مستمدة من الثورة المتوقعة ولكن كانت هنالك ظواهر ملهوسة للادب الراقي الذي يسير بخطى واسعة نحو الكمال ولقد كان للعالم العلمية الكثيرة وجهابذة الفكر والادب فضل في هذا الصدد لا ينكر واذا عرضنا للادب (البروليتاري) الذي لازم الثورة الاشتراكية فقد نقول ان الكتاب كانوا يكتبون عن (الواقع) الذي يحيا فيه العامل وكانوا كذلك يكتبون عن (البرجوازية) في أسلوب تميز بالاختصار حتى لسكانهم بطوقون الادب بهذا الغلاف (الرمزي) . لقد كان البؤس والفقر والمظالم السياسية موضوعات تولستوي وديستوفسكي وجوركي والقصص التي كتبها هؤلاء جميعاً تنحون نحو النقد الموضوعي. على ان (القصد) عندهم لم يكن واضحاً ووضوح (الفن) وتلك ناحية في الاسلوب قد تطعم أدبهم بطابعها الخاص. على اننا لا ننسى ان جوركي كتب حقاً عن موضوعات هي كالموضوعات التي عرض لها تولستوي وديستوفسكي واضرابهم وانما كان إيضاح الغاية والقصد ما يجب ان يصل اليه دائماً . ولعل من ابعث الاسباب للتجديد في أدبه انه كثيراً ما عدا الوسط الذي يعيش فيه ولذلك فقد كتب عن الاقتصاد وحرية المرأة وعدم المبالاة بالعرف الاجتماعي



## الانسان المجهول

تلخيص : اسماعيل مظهر

٧ — ضرورة المفاضلة بين المعلومات المتباينة الخاصة بالانسان — بر دجن ومذهبه  
في التصور الفعال — نبذ المذاهب العلمية والفلسفية — وظيفة القروض

إن جهلنا بأنفسنا لجهل ذو طبيعة خاصة . جهل ليس مصدره صعوبة الوصول إلى المعلومات الضرورية ، ولا خطأ تلك المعلومات ، ولا ندرتها . بل هو على العكس من ذلك ، جهل سببه وفرة المعلومات التي كدستها الانسانية عن نفسها خلال تنامي القرون ، فتنافرت ولم تتسق . أضف إلى ذلك تجزيء الانسان قطعاً وتمزيقه تنقياً من طريق تلك العلوم التي حاولت ان تدرس تركيبه الجسدي ووعيه . غير ان هذه المعرفة الواسعة لم تستخدم لمصاحبة الانسان في غالب الامر . والواقع انها معرفة لا يمكن استخدامها ، وبوارها ظاهر يتجلى في ركاكة التصورات القديمة ، وفي الاسس التي قام عليها الطب وعلم الصحة والتعليم وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي . غير أننا نجد إلى جانب هذا أن هنالك حقيقة حية مفعمة بالقوة تتضمنها تلك الكتلة الهائلة من التعريفات والنظريات والمذاهب والمبادئ والرغبات والاحلام ، تلك التي تمثل لانظارنا حقيقة تلك الجهود التي بذلها الانسان في سبيل استجماع المعرفة عن ذاته . اضعف الى مذاهب العلماء ونأملات الفلاسفة ، تلك النتائج العملية التي بلغها الانسان من طريق التجارب التي مارسها اهل القرون الفوارط ، هذا إلى جملة وافرة من المشاهدات كانت روح العلم ، وإن شئت فقل « الفن العلمي » السبب المباشر في ان ينعم بها الانسان ويستكنه مغلقها . عامة ذا يحفزنا حتماً إلى الشعور بضرورة المفاضلة واختيار الاصلح من تلك الاشياء المتباينة المتنافرة

من التصورات العديدة المتعلقة بالانسان ، نذكر هو بطابعه مجرد تأليف منطقي مصدره العقل الصرف . ولو بحثنا لمعجزنا عن أن نجد في العالم الخارج عن حيز العقل ( كائناً ) ينطبق عليه ذاك التأليف المنطقي . أما غير ذلك من التصورات فتتاج للتجربة والاختبار . وهذه هي التي دعاها ( بر دجن ) ( التصورات الفعالة ) فكل المعرفة الايجابية ( اليقينية ) تتطلب منا استخدام



فنِّ مَّا ، وبالحرى تتطلب بضع عمليات أو أفعال طبيعية أو عقلية . فاذا قلنا مثلاً ان شيئاً يبلغ من الطول متراً ، فأنما نعني بذلك أنه يبلغ من الطول مبلغ قطعة من الخشب أو المعدن ، امتدادها مساوٍ لامتداد المتر القياسي المحفوظ في المكتب الدولي للمقاييس والموازين . ونستخلص من هذا المثل ان تصور الطول إنما يترادف ومقياس المتر الطولي . ومن هنا يقول بر دجن ان التصورات التي تتصل بأشياء خارجة عن حيز الاختبار ، تصورات مسلوحة المعنى ومن هنا يقال ان سؤالاً ما إنما يكون معدوم القيمة والنفع ، اذا كان من غير المستطاع ان يستكشف الانسان « العمليات » التي تؤهل بنا الى الاجابة عنه ان دقة « السؤال » في كل الحالات ، تتوقف على « العمليات » التي تؤدي الى فهمه واستيعابه . فاذا عرفنا الانسان مثلاً بأنه « كائن يتألف من مادة ووعي » فان هذا التعريف يكون ولا شك فاقد المعنى . ذلك بأن العلاقات التي تقوم بين الوعي وعالم المادة لم تدخل بعد منسقة الاختبار حتى الآن . وإنما يكون التعريف الذي نضعه للانسان « تعريفاً فعلياً » اذا نحن اعتبرناه كائناً قادراً على ان ينشط نشاطاً تتجلى فيه آثار الافعال الطبيعية الكيميائية والوظيفية والنفسية . ذلك بأن التصورات الثابتة الحقيقة الدائمة الماهية ، والتي ينبغي ان تكون على الاستمرار أساس علمي الاحياء والطبيعة ، هي التصورات التي ترتبط بأساليب الاختبار . ولنضرب لذلك مثلاً . فان فكرتنا القائمة الآن عن خلايا القشرة الخفية ، وشكلها الهرمي ، وزوائدها الجذرية المشعبة ، إنما تعود برمتها الى الوسائل التي كشف عنها ( رامون كايال ) . هذا « تصوّر فعال » . ومعنى أنه فعال أنه تصوّر يظل ثابتاً لا يتغيّر حتى تستكشف وسائل أخرى أدق من الوسائل الاولى وأجدى في كشف حقائق جديدة . أما ان نقول ان خلايا القشرة الخفية هي مقر الظواهر العقلية ، فلا شك يكون قولاً فاقد القيمة واطلاقاً مسلوب القدر ، لا تقا لا نستطيع ان نشاهد ظواهر عقلية مندمجة في مادة الخلايا الخفية . بهذا نجد ان ( التصورات الفعالة ) هي الدعائم الثابتة التي يمكننا ان نشيد من فوقها آمين . واذن ينبغي لنا ان ننظر في قدر المعرفة العظيم الذي استجمعناه عن أنفسنا لنختار منه القواعد والمعلومات التي لا تلائم ما هو قائم في أذهاننا لا غير ، بل تلائم أيضاً طبيعة الاشياء

وانا لنعلم ان من التصورات ذوات العلاقة بالانسان ما هو مقصور عليه وحده ، ومنها ما يتعلق بجميع الاحياء ، وأن هنالك تصورات غير هذه وتلك ، كالتصورات المستمدة من علم الكيمياء او الطبيعة او الميكانيكا . وانا لنذكر فوق هذا جميعه ان هنالك طوائف من التصورات والمدرجات تكون ما يشبه الطبقات المتراكم بعضها فوق بعض حتى اذا بلغت القمة ، فعندها تقع على الانظمة الحية . فأقول تلك الطبقات تتكون من تصور الكهربيات والجزيئات والذرات ، وهي أشياء مندمجة في أنسجة الانسان المصنوعة كما نجد في الاشجار وفي الحجارة وفي السحاب . ثم يأتي بعد ذلك تصور ( المسكان — الزماني ) وتصور الاستمرار والطاقة والقوة والكتلة ، ويعقب على ذلك بتصور القدرة



والتفريغ الكهربائي والايونات (الشوارد او الدوائف) والتجمع والتبدد الى غير ذلك . فاذا تجمعت الذرات وأمكنها بذلك التجمع ان تبني خلايا نسيجية، وتألفت الخلايا فكونت أعضاء ومتممات، فلا مندوحة من ان نضم الى التصورات السابقة تصورات أخرى كنصور الاجسام الصبغية في الخلية والمورثات genes والوراثة والتهيؤ adaptation والغريزة الى غير ذلك . على ان كل طائفة من هذه التصورات ينبغي ان تستخدم في المجال العلمي التي هي تابعة له فلا تطنى طائفة منها على مجال طائفة أخرى، والا ضلنا السبيل وعجزنا عن ادراك الحقائق ادراكاً يجعلها ذات فائدة عملية لهذا نقول ان تنافر وجوه المعرفة ذات العلاقة بأنفسنا انما يرجع الى وجود بقايا المذاهب العلمية والفلسفية الدينية متغلغلة في ثنايا الحقائق الايجابية الثابتة . فان العقل اذا أيقن بصحة مذهب من المذاهب أيضاً كان، فان يقينه هذا لا يمكنه من ادراك الظواهر الجامدة الواقعة على وجهها الصحيح . ولقد استمرت الانسانية في خلال كل العصور تنظر في ذاتها من خلال مناظير غشيتها المذاهب والمعتقدات والالوهام . وتلك أشياء يجب ان تندثر وتبدد . ولقد قال (كلود برنار) انه من الضروري ان يتخلص الانسان من آصار المذاهب الفلسفية والعلمية اذا هو أراد ان يتخلص من العبودية . على اننا لم نحصل على هذه الحرية بعد . فالحياتيون — Biologists ومن ورائهم القائمون على شؤون التربة والاقتصاديون والاجتماعيون ، عندما تواجههم معضلات مهوشة معقدة ، يستسلمون عادة لاغراء الفكر ويروحون يقيمون نظريات ، ثم لا يلبثون ان يحوطوا هذه النظريات بصور من القداسة فتتلور ثم تصير عقائد ، حتى لقد نرى ان علومهم قد تبلورت بالفعل حتى بلغ تبلورها من التعقد والشدة مبلغ المذاهب الدينية نواجه في التاريخ أمثالا عديدة تبين لنا عن أمثال هذه الاخطاء شائعة في كل مناطق المعرفة . وأجلى مثل على هذا ، العراك القائم بين القائلين بالروحانية والقائلين بالآلية . ان هذا العراك لباقي الى يومنا هذا . وهو فوق ذلك عراك سببه خطأ من أشهر الاخطاء التي استغوت الانسان . فالروحانيون يظنون ان الكائن المتعضى ما هو غير آلة تماسك اجزاؤها بفضل عامل مفارق للبدن ، وان هذا العامل لا علاقة له بالقوانين (الطبيعية الكيميائية) . هم يقولون ان تفاصيل الجسم الحي انما تظل متماسكة مترابطة بحكم مبدأ روحي مستقل عن البدن ، وان مثل هذا المبدأ كمثل المهندس الذي يصمم الآلة ويحكم سيرها . بل قالوا ان هذا العامل المستقل ليس بطاقة ، بل ولا يستحدث طاقة . وانما هو — وكل يتدبر شؤون الكائن المتعضى . ومن الجلي أن هذا المبدأ الروحي ليس (تصوراً فعالاً) . انه في الواقع تأليفاً عقلياً . وعلى الجملة نقول ان الروحانيين يعتبرون البدن آلة يدبرها مهندس يسمونه (الروح) أو (القوة العليا) . هذا ولم يتحققوا يوماً ما من ان ذلك المهندس المدبر ليس شيئاً سوى (ذكاء) الانسان ذاته وكذلك الحال اذا نظرنا في ما يقول الآليون . فهم يعتقدون ان جميع مظاهر النشاط



الوظيفي والنفسي يمكن تعليلها بحقائق مستمدة من العلم الطبيعي والكيمياء والميكانيكا . فهم بذلك يشيدون آلة . ولكنهم نسوا ، كما نسي الروحانيون من قبلهم ، أنهم هم بدواتهم المهندس الذي أقام هذه الآلة وجبك أطرافها . فهم ، على ما يقول ( وودجارد ) ، قد غفلوا عن حقيقة ذلك المهندس ووجوده . ولا شك في أن هذا التصور بدوره ليس تصوراً فعلياً

بذلك يظهر لنا أن القول بالروحانية والقول بالآلية قولان ينبغي أن ينبذا ويندثرا ، شأن كل المذاهب الأخرى ، ولنفس الأسباب التي تدعونا إلى القضاء على المذاهب عامة . على أنه ينبغي لنا إلى جانب هذا أن نتحرر من الأوهام ومن الأخطاء ومن الحقائق التي لا تقوم على مشاهدة صادقة ، ومن المسائل التي تناول حلها علماء اتصفوا بضيق العقل وضعف التفكير ، ومن المستكشفات الزائفة التي برّوجها أدعياء أو علماء اكتسبوا شهرتهم بدعوى الجرائد والصحف الأخرى . ولا ينبغي لنا أن نتحرر من هذا وحده ، بل من أشياء أخرى لا تقل عن تلك أثاراً ، كالبحوث غير المثمرة والدراسات الطويلة المملة لأشياء فاقدة المعنى مسلوقة القصد والمنزى إذا طهرنا أنفسنا من آثار ذلك جميعاً ، أصبحت نتائج البحث الجدّي في العلوم ذوات العلاقة بالإنسان ، والثروة العظيمة التي ترتبت على التجارب والاختبارات العلمية ، الأساس الصلب الجامد الذي تقوم من فوقه معرفتنا . وإذا نظرنا في تاريخ الإنسانية لاستطعنا أن ندرك تفاصيل الجوهري الذي بذلته خلال العصور بلحمة واحدة

غير أنه يجب علينا أن نعي أنه إلى جانب المشاهدات اليقينية الإيجابية وإلى جانب الحقائق الثابتة ، توجد أشياء كثيرة ليست إيجابية وليست بعيدة عن مجال الجدل . والواجب أن أمثال هذه الأشياء لا ينبغي أن تنبذ ، بالرغم من أن « التصورات الفعّالة » وحدها هي الأساس التي يقوم من فوقها بناء العلم . ذلك بأن قوة التخيل ، وهي قوة ابتكارية خلاقة ، هي وحدها القوة القادرة على بعث تلك الظنون والفروض والأحلام التي سوف تتمخض عن حقائقها عصور المستقبل . علينا أن نستمر نسائل أنفسنا ونضع أمامها المشكلات التي تلوح من وجهة نظر النقد العلمي لا معنى لها ولا قيمة . وبفرض أننا حاولنا أن نصد عقولنا عن التطلع إلى معرفة المستحيلان والمجهولات ، فلا شك في أننا نحقق في ذلك . فإن حب الاستطلاع صفة رئيسية في طبائنا ، بل هو دافع اعمى لا يعرف سنة ولا يطيع قاعدة . إن العقل البشري يمضي باحثاً في كل الأشياء الخارجية ويمضي مخترقاً أعماق اغوار نفوسنا ، وأقصى تفاصيل كياناتنا على البحث ، بهمة لا يصبها الكلال ولا ينفذ إليها الملل . إن حب الاستطلاع يحفزنا إلى استكشاف الكون واستيعاب ظواهره وحقائقه . إنه صفة فطرية تقودنا في ركابها دائماً إلى رحاب مجهولة ، إلى جبال شاذة صعبة المرتقى وعرة المنحدر . ولكنها جبال على تشاخصها ووُعورة منحدراتها ، تذوب وتبتدأ أمام هذه القوة ، تبدد الدخان إذا ما ذرته الرياح



# نجم «العنز» العجيب

في صورة ممسك الاعنة  
وعناية الفلكيين به

«ممسك الاعنة» او «صاحب العنز» او «العناز» وله اسماء اخرى صورة من صور النجوم الشمالية ممثلة في بعض الاطالس الاوربية للنجوم في صورة رجل قائم خلف فرساوس بين الزئبق والدب الاكبر ممسك اعنة بيده اليسرى وحاملاً جدياً على ذراعه اليمنى . وقد رسم في كتاب الصوفي الفلكي العربي — ومنه نسخة خطية مصورة بديعة محفوظة في دار الكتب المصرية — بصورة رجل جاث على ركبتيه اليسرى وعلى رأسه عمامة من الكشمير وباحدى يديه عصاً في اسفلها انشودة وفي اعلاها خيطان ربط بهما حقتان . واسم هذه الصورة باللغة العلمية Auriga وبالانكليزية The Waggoner or Charioteer اي فارس المركبة

في هذه الصورة ما يزيد على ستين نجماً انورها العيوق Capella وهو من القدر الاول . ولكن النجم الذي يهتما في هذا المقال من نجوم «ممسك الاعنة» ليس العيوق بل «العنز» المعروف في لغة الفلك العلمية باسم «ابسيلون اوريجي» ( راجع «بساط علم الفلك للدكتور صرّوف» و«المعجم الفلكي» للفريق امين فهد المعلوف ) لانه من النجوم التي استوقفت انظار الفلكيين في الاشهر الاخيرة بوجه خاص لطبائع خاصة متصف بها كشف العلم عن حقيقتها

\*\*\*

في مستهل القرن السابع عشر ( سنة ١٦٠٣ ) حاول الفلكي الالماني باير Bayer ان يضع اسماء لجميع النجوم التي ترى بالعين المجردة وكان من النجوم التي تناولها نجم في «ممسك الاعنة» وسماه بالحرف الخامس من الالبجدية اليونانية «ابسيلون» فعرف من ذلك العهد باسم «ابسيلون اوريجي» في كتب الفلكيين ومقابلته بالعربية على ما جاء في المعجم الفلكي (المعلوف) «العنز» ولم يكن باير ولا غيره من علماء عصره يحلم بان هذا النجم سيصبح في عصر تالر موضوع



بحث دقيق . ففي القبة الزرقاء أكثر من مائة نجم تفوق « العنز » اشراقاً . وخمسة آلاف نجم ترى بالعين المجردة . وفي المجرة وحدها عشرة آلاف مليون نجم على اقل تقدير . وإذا اخذنا بالظاهر من طبائع « العنز » لم نستطع ان نقيس فيه ما يميزه عن غيره من النجوم الا ان الواعظ الالماني فرتش Fritsch كان اول من ظن ان هذا النجم يختلف عن غيره ذلك بانه لاحظ في شتاء سنة ١٨٢١ ان اشراق « العنز » قد ضؤل حتى بلغ نصف ما يكون عليه عادة . ولكن هذه الملاحظة نسجت عليها عناكب النسيان خيوطها الدقيقة ، ومضى نحو ربع قرن قبل ان عني أحد بهذا النجم ففي سنة ١٨٤٨ لاحظ الفلكي الالماني شميدت Schmidt ان اشراق العنز كان نصف ما كان عليه في ربع القرن السابق . ومنذ تلك السنة ١٨٤٨ مر العنز في ثلاثة أدوار من ضالة النور وضعف الاشراق ، كالتي لاحظها شميدت سنة ١٨٤٨ وقبله فرتش سنة ١٨٢١ وذلك في سنة ١٨٧٥ ثم في سنة ١٩٠٢ ثم في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

ونحن نعلم الآن ان العنز ليس نجماً فرداً بل هو نجم مزدوج قوامه نجمان يدور أحدهما حول الآخر في فترة مداها سبع وعشرون سنة . والنجوم المزدوجة ليست نادرة في القبة الفلكية ، ولكن أوصاف العنز تختلف عن أوصافها . فدراسة عناصر هذا النجم المزدوج أفنت الى توقع كسوف فيه في ميعاد معين . فتم الكسوف في ميعاده ، ولكن لوحظ ان ضوء الشريك المشرق في هذا النجم المزدوج لم يحتجب عند ما كان الكسوف تاماً . فمجب الفلكيون وحيروا وظلوا محيرين حتى ظهر لهم ، ان العنز ليس نجماً مزدوجاً عادياً ، وان الشريك الخفي ليس الا كرة عظيمة من الغاز اللطيف حرارته واطية جداً ، لم تعهد من قبل في اي نجم آخر درسه العلماء

وكان في مقدمة علماء الفلك الذين عنوا بدراسة هذا النجم الخفي الاستاذ كوبر Kuiper أحد علماء مرصد يركيس فيس فيس بالحساب الرياضي ان قطر الشريك الخفي في « العنز » يزيد ثلاثة آلاف ضعف على قطر الشمس . ووجد أيضاً ان الطاقة الاشعاعية التي يطلقها في الفضاء كل من نجمي العنز تفوق ستين الف ضعف ما تطلقه شمسنا من الضوء والحرارة . ولما كانت مساحة سطح النجم الخفي في العنز تفوق عشرة ملايين ضعف مساحة سطح الشمس فالحرارة التي تنطلق من كل بوصة مربعة من سطح نجم العنز الخفي تقل مائتي ضعف عن الحرارة التي تنطلق من مساحة مماثلة لها على سطح الشمس

فاذا طبقنا القاعدة الطبيعية بأن قدر الطاقة التي يشعها جسم ما وثيقة الصلة بحرارة ذلك الجسم افضى بنا الحساب الرياضي على هذا الاساس الطبيعي الى ان حرارة سطح النجم الخفي في العنز من رتبة ١٣٠٠ درجة مئوية وهي حرارة واطية جداً لاي نجم من النجوم . فحرارة سطح الشمس



٦ آلاف درجة مئوية وحرارة سطح الشعري ١٠ آلاف درجة مئوية . والجسم الذي حرارته نحو ١٣٠٠ درجة مئوية لا يكاد يبلغ درجة الحرارة ولذلك يكون معظم الطاقة التي يشعها من الاشعة التي تحت الاحمر . واذن فنجم العنز الحفي لا يمكن ان يرى بالعين لان الاشعة التي تحت الاحمر لا ترى بالعين وكذلك لا يمكن تصويرها بالواح التصوير الضوئي العادية

ولما كان قطر هذا النجم يفوق قطر الشمس ثلاثة آلاف ضعف فنجم كرتيه يجب ان يفوق حجم كرة الشمس ثلاثين الف مليون ضعف ، ولكن مقدار المادة في هذا النجم لا تفوق مقدار المادة في الشمس الا ثلاثين ضعفاً واذاً فكثافة المادة فيه اقل من كثافة المادة في الشمس نحو الف مليون مرة . وأقل من كثافة الهواء نحو مليون مرة . ولذلك يصح ان نقول في نجم العنز الحفي انه فراغ تام تقريباً يطلق أشعة تحت الاحمر

وقد عني الاستاذ سترومغرن Stromgren أحد علماء مرصد بيركيز بهذه الناحية من البحث فأثبت ان نجماً هذه صفاته لا بد ان يكون شفافاً تقريباً ولذلك يخترقه نجم رفيقه في أثناء الكسوف كما يخترق الضوء العادي جدار فقاعة من الصابون . وهذا يفسر المفارقة التي حيّرت العلماء عند رصد كسوف « العنز » وهي ان النجم الحفي لم يحجب ضوء النجم المشرق

\*\*\*

وكل ما عرف من الحقائق عن الرفيق الحفي في « العنز » انما يعرف بأساليب قائمة على الحيلة العلمية والمداورة لان أحداً لم يستطع ان يراه او بصوره حتى الآن من هذه الاساليب ، أسلوب استنبطه وأتقنه الدكتور شارلس هتسلر Het zler أحد علماء مرصد بيركيز . وقوامه ألواح دقيقة الاحساس بالضوء الذي تحت الاحمر ، ولكنه يضع أمامها ألواحاً تحجب من الضوء الواقع عليها كل أمواج الا امواج الاشعة التي تحت الاحمر . وبهذه الطريقة تمكن الدكتور هتسلر من كشف نجوم كثيرة لا تطلق الا أشعة تحت الاحمر . ولو كانت عيوننا تتأثر بالاشعة التي تحت الاحمر فقط لكنا نرى القبة الفلكية على غير ما هي عليه . فمعظم النجوم التي نراها الآن كانت تخفي لان ما في ضوءها من الاشعاع الذي تحت الاحمر قليل . ولرأينا نجوماً خفية وقد عظم اشراقها لانها لا تطلق الا هذا الضرب من الاشعاع

ثم هناك جهاز آخر يعرف باسم « الزموكيل » . وهو جهاز لقياس الحرارة عن بعد ، وفي فدره مستعمله ان يقبّس حرارة شمعة على بعد مائة ميل . وقوامه أنبوب مفرغ أدخل في جداره قطبان كهربائيان من فلزين مختلفين . وقد ثبت بالتجربة ان خير الفلزات لهذا الغرض البزموت لاحد السلكين وخليط من البزموت والقصدير (١٠ في المائة) للسلك الآخر . فاذا عرض



أحد السلكين لضوء نجم وحرارته بوضع الجهاز في محرق مرقب كبير ، وأبقى السلك الآخر غير معرض لها ، تولد تيار كهربائي دقيق جداً يمكن قياسه بالجلفانومتر . فالنجوم التي تبلغ من الخفاء مبلغاً يجعل تعويرها متعذراً قد يكون في اشعاعها قدر يسير من الحرارة لحدث تيار في سلكي الثرموكيل يمكن قياسه <sup>(١)</sup>

والثرموكيل يقيس ضروب الاشعاع من فوق البنفسجي الى تحت الاحمر . ولقياس ضرب معين من ضروب الاشعاع تستعمل مصافي خاصة توضع امام هذا الجهاز فلا يخرقها الا الاشعة التي يراد قياسها . فيقاس مثلاً الاشعاع الكامل لنجم من النجوم ثم يوضع المصفي امام الجهاز ويقاس مقدار ضرب خاص من الاشعاع فتعرف النسبة بينهما . وبذلك تعين حرارة النجم على هذا الاساس العلمي درس علماء مرصد ريكز نجم العنز المزدوج فتبينوا ان النجمين قريب احدهما من الآخر وان معظم الضوء المرئي منهما مصدره النجم المشرق وهو اصغرهما حجماً وأما الآخر فكبير الحجم جداً بحيث يمكن ان توضع الشمس وسياراتها حتى فلك اورانوس به ومن اعجب النتائج التي اسفر عنها البحث في هذا النجم الخفي ، وجود طبقة من الغاز المؤين ionized حوله . وهذه الطبقة تابعة بحكم الجذب للنجم وتدور مع كتلته اللطيفة حول محوره كما يدور غلاف الارض الغازي مع الارض حول محورها . ولكن الطبقة الغازية التي حول نجم العنز الخفي ، منارة بالضوء الواقع عليها من نجم «العنز» المشرق . فيؤثر فيها هذا الضوء تأثيراً مشابهاً لتأثير ضوء الشمس في الطبقات العليا من غلاف الارض الغازي . اي انه يؤن بعض ذرات الغازات فتنفصل الكهيريئات عن النوى فتتكون طبقة كني هيفيسيد التي تفعل بالامواج اللاسلكية فعل المرأة بالامواج الضوئية ، فمنعها من الاطلاق في الفضاء خارج جو الارض وتعكسها الى سطحها ، وبهذا الفعل يفسر انتقال الامواج اللاسلكية حول الارض الا ان فعل التآين في غلاف النجم الخفي في العنز أشد جداً منه في الارض . فيجعل غلاف النجم الخفي كثيفاً غائماً . فيصعب على الضوء ان يخرقه بسهولة . وقد تمكن علماء مرصد ريكز من رصد هذا الغلاف الكثيف بمرقبهم البالغ قطر مرآته اربعين بوصة .

ثم يجيء ميعاد الكسوف في هذا النجم المزدوج ، مرة كل سبع وعشرين سنة فيقع النجم المشرق في العنز وراء النجم المعتم . ولولا طبقة الغاز المؤينة حول كرة النجم الخفي لتمكن الرصاة على الارض من رؤية ضوء النجم المشرق كاملاً تقريباً للطاقة مادته الغازية . ولكن طبقة الغاز تحجب جانباً من هذا الضوء فيبدو للراصد الارضي ان ضوء العنز قد ضعف على نحو ما بدا لبار سنة ١٨٢١ ولغراش سنة ١٨٤٨ ولعلماء هذا العصر في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠



# سنابل

من حقول العلم

## الذهب في مصر : قديماً وحديثاً

نتقل الى قراء المقطع في ما يلي ملخص جانب من المحاضرة النفيسة التي القاها الدكتور حسن صادق بك مدير المساحة والمناجم والحاجر ورئيس المجمع المصري للثقافة العلمية في افتتاح مؤتمره السنوي التاسع قال : —

اما في القطر المصري فان ما وجد من الحلى الذهبية في مختلف العصور التاريخية يدل على عظيم اهتمام قدماء المصريين باستعمال هذا المعدن في مختلف الاغراض كما ان ما سطره على جدران معابدهم وفي بعض اوراق البردي يدل على ان الذهب الذي استعملوه كانوا يحصلون عليه من المناجم المصرية نفسها وقد كانت الممالك المعاصرة لهم تنظر الى مصر على اعتبار انها اكبر بلاد منتجة لهذا المعدن فكان ملوكهم يستجدون فرعون مصر للحصول منه على حاجتهم من هذا المعدن الثمين

كذلك استغلت مناجم الذهب المصرية ابان حكم العرب كما حدثنا عن ذلك المقرئ وغيره من مؤرخيهم . على ان ستاراً كثيفاً من النسيان أسدل بعد ذلك على هذه المناجم الى أن أزاحه مجدد عز مصر محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة العلوية السعيدة بفضل البحوث العلمية التي أوفدها الى الصحارى فأماطت اللثام عما بها من معادن ومناجم على ان استغلال مناجم الذهب المصرية لم يبدأ في العصور الحديثة الا في اواخر القرن الماضي واستمر استغلال بعضها حتى عام ١٩٢٧ فبلغ مجموع انتاجها في تلك الفترة حوالي ٨٦ ألف اوقية . على ان احوال العمل وتعدد وجود الماء وصعوبة النقل كل ذلك جعل الغلة اقل من الكلفة فأهملت المناجم

حتى اذا جاء عام ١٩٣٣ واضطرب النظام المالي في اغلب الامم وخرجت معظمها ومعهما انكلترا عن عيار الذهب فانخفضت العملات وارتفع سعر الذهب أصبح سعر الاوقية من الذهب الخالص سبعة جنيهات بعد ان كان في اوقاته العادية لا يزيد على أربعة جنيهات ونصف جنيهه واذ كانت نفقات الانتاج لم تزد الا قليلاً مع تحسين محسوس في وسائل النقل بما طرأ على صناعة سيارات النقل من اتقان فقد رؤي



ان الاحوال قد تغيرت تغيراً يشجع على التفكير في اعادة فتح بعض هذه المناجم واستغلالها فقامت الحكومة المصرية بالبحث بواسطة شبان من المصريين تخصصوا في هذه العلوم ورؤي ان من الخير استغلال منجم الذهب بجبل السكري على شاطئ البحر الاحمر على مسافة ١٥٠ كيلو متراً جنوبي بلدة القصير وقد أجريت مباحث في استعمال الماء المالح في عمليات الاستنباط والتنقية لأول مرة في هذا المنجم فأسفرت عن نجاح قلل لحد كبير الاثر السيء الذي لندرة وجود الماء العذب في تلك الجهات . وقد جهز المنجم بوحدة استغلال صغيرة وبدأ الانتاج في يوليو سنة ١٩٣٧ وبلغ مجموع انتاجه في الشهور التسعة الماضية حوالي ١٧٥٠ أوقية قيمتها ١٢٠٠٠ جنيه تقريباً وباستمرار أعمال الفحص بالتعمق في جوف الارض اتضح وجود مقادير من المعدن تسمح بتوسيع عمليات الاستغلال فأضيف جهاز استغلال آخر لمضاعفة الانتاج والمتنظر ان يتم ذلك في غضون الشهر القادم ( يونيو ) فتضاعف مقادير الذهب الناتج مع اضافة قليلة للتكاليف وقد شجعنا النجاح الذي صادفناه في السكري على توسيع نطاق البحث في مناجم أخرى فاختير لذلك منجم آخر بجبل أم الروس القريب من السكري . والامل معقود على ان تكاليف هذه البحوث أيضاً بالنجاح فتبدأ فيه أيضاً عمليات الاستغلال ولقد تحقق ما كانت تصبو اليه الحكومة من هذه البحوث فاتجهت أنظار بعض الافراد والهيئات من المصريين والاجانب الى بحث بعض مناجم الذهب الاخرى وبدأت الحياة تدب مرة أخرى في مناجم الذهب المصرية وانا لنرجو ان يصادف هذه الجهود جميعاً النجاح الذي تستحقه حتى ليقال بحق ان عصر الفاروق هو عصر ذهبي يدر الخير والبركات على أبناء هذه البلاد

\*\*\*

### مبين العلماء

عندما يتقدم طالب الطب الى نيل شهادته الطبية يقسم عين أبقراط المشهورة وأساسها رعاية مرضاه خير رعاية يستطيعها والامتناع عن اعطاء عقار مميث او الاشارة به ولو طلب ذلك منه، وعن مساعدة امرأة على الاجهاض او افشاء الاسرار الخاصة بصناعتهم وغير ذلك من القواعد الاديبة التي يحسبها الاطباء دستوراً لهم في صناعتهم الشريفة وقد تقدم الآن عالم يدعى هوايت Whyte يمين للعلماء أذاعها في مجلة نايتشر العلمية حاثاً الجماعات والمعاهد والمجلات العلمية على نشرها والحض على اتخاذها رابطة ضد التعصب الجنسي والديني . ففي رأيه ان مبادئ العدل والتسامح وجب اليها تحدد صريح في السنوات الاخيرة، وان الاساس الذي تقوم عليه فكرة الحق Truth — وهي أساس العلم — قد ضرب بمعول الهدم .



لا ريب عنده في ان للحضارة الاوربية مساويها ولكنه يرى كذلك انه يجب علينا إما أن نبذل طاقنا للاحتفاظ بحسناتها وإما أن نسلم بالانهيار والارتداد الى التوحش والعنف والتعصب . وأعظم ما تعرض له من خطر هو الاعتقاد الذائع في ان الناس يستطيعون ان ينعموا بتراث الحضارة طويلاً من غير ان يبذلوا في سبيله . واعتقاد المستر هوايت ان الذين لا يريدون ان يخونوا ذلك التراث يجب ان ينزعوا عن اكتافهم التواضع الكاذب ويصرحوا بموقفهم لان الاحتفاظ بثمار الحضارة وتقاليدها العالية متعذر الا اذا اذعنا في غير غموض وأقننا الدليل في غير تردد على ولائنا لها . وهذه هي اليمين المقترحة : —

« أنا وارث تقاليد الحضارة التي ثبت انها أرسخ أساساً من الامبراطوريات . فعندما استعمل لغة العلم او منتجاته ، فأنا أقدم اجلالي عن غير وعي ، لمئات الرجال الذين لم يضمنوا بأية تضحية مها تعظم في النضال لترقية العقل البشري وتأيد الحق . ان التسامح والحرية هما لباب تلك التقاليد . لان الفكر المستقل ومحبة الحق ليسا بأساس العلم فحسب بل وأساس العدل والحضارة لذلك أعلن ولائي لتلك التقاليد وإيماني بحرية الفرد في انماء ملكاته لتنمية ثروة الجماعة ، وبقيتي بأن جماعة الانسان الآن هي الجنس البشري اجمع ، وان على كل شعب داخل في هذا النطاق ان يقوم بنصيبه الخاص به . فالتوازن الطبيعي بين الحرية الفردية وبين مطالب الجماعة ، وهو حياة الحضارة وصحتها ، مهدد الآن من ناحيتين . انه مهدد في بعض الجماعات من ناحية انكار الحرية . وفي البلدان الديمقراطية من ناحية صدوف الافراد عن التبعات الواقعة عليهم ففي وجه هذا التهديد — اتعهد باتهاز كل فرصة سانحة لاطلي من شأن تقاليد الحضارة وأحمي كل من يعذب في سبيلها ، وان أورث ذلك الى الاجيال القادمة . ولست اعترف بولاء أعظم من ولائي للعمل على صون الحق والتسامح والعدل في العالم المقبل

\*\*\*

### طماطم بحر بزور

يعني قسم البساتين بجامعة مسوري الاميركية باستنابت طماطم لا بذور فيه . والطماطم يحتاج الى التلقيح لكي ينقد الزهر ثمراً ، ولكن التلقيح يعني تكوين بذور في الثمر . لذلك عمد الباحثون الاميركيون الى استئصال اعضاء اللقاح من الزهرة . ولما كان استئصالها يحول دون التلقيح والاثمار وجب عليهم ان يستعوضوا من التلقيح بأساليب كيميائية او ميكانيكية او كهربائية لحمل الزهرة على الانعقاد ثمراً على نحو ما فعل لوب وغيره في حيوان «الرتسا» (توتياء البحر) فانه حملها على التناسل بمهيج كيميائي حيناً وبمهيج كهربائي حيناً آخر



وباحشو جامعة مسوري يستعملون مادة باعثة للنمو من قبيل اتوار الغدد الصم ، فتنشأ ثمرة الطماطم من الزهرة وتكون بلا بذور . وهذه الثمار اكبر من ثمار الطماطم عادة وليس فيها فجوات تحتوي على بذور كالفجوات التي في الطماطم عادة بل كلها شحم والمادة المستعملة لهذا الغرض هي الحامض «الاندول استيك indoleacetic» وهو حامض توجد منه مقادير يسيرة في البول في حالة مرض القناة الهضمية — محلولاً في اللانولين ( وهو دهن من صوف الغنم ) بنسبة ١ من الحامض الى ٥٠٠ من الدهن ، ثم تدهن الازهار التي استؤصلت منها اعضاء اللقاح ثلاث مرات في الاسبوع او كل عشرة ايام اما من هذه المواد فلا يكاد يذكر ولكن معظم النفقة في طريقة العمل اي في استئصال اعضاء اللقاح من الازهار ودهنها . وقد حاول الباحثون ان يحلوا رشح الحامض محلولاً في الماء محلّ الدّهْن باليد فأسفر ذلك عن نتائج لا بأس بها ولكنها لا تجاري نتائج الدهن باليد . ويعزى ذلك الى سرعة تبخر الماء تاركاً الحامض في بلورات دقيقة يتعذر على الزهرة امتصاصها . والبحث جارٍ الآن عن مادة دهنية أخرى سهلة الامتصاص غير سريعة التبخر فيحلّ الحامض فيها ويرش على الازهار برشاشة ميكانيكية

وينظر ان يتجه البحث بعد ذلك الى زيادة محصول هذا الطماطم لانه من المستطاع حمل الازهار على الانقاد ثماراً في أشهر الصيف عند ما تجعل الحرارة والرطوبة حبوب اللقاح ضعيفة القل

\*\*\*

### علاج حرق الحروق

اذا حرق الجلد وانكشفت الانساج التي تحته فخير علاج عرف حتى الآن هو استعمال «الحامض التانيك» Tannic Acid وهو مسحوق أبيض يستخرج من جوز العفص ونباتات اخرى وله فعل قابض فيستعمل في وقف النزف . ولكن الطبيين جوز وده مارش وهما من اساندة السكينة الطبية بجامعة نورث وسترن الاميركية اعلنا انهما كشفا مركباً كيمياوياً يفوق الحامض التنيك فائدة في علاج الحروق . واسم هذا المركب باللغة العلمية « هكسامتا فوسفات الصوديوم » فيحلّ وتدهن به الحروق فيمنع الالتهاب ، وهو يتحد بالمصل السائل من انساج الجسم المكشوفة بحرق الجلد او انسلاخه فينشأ غشائاً رطب متين مرن مانع لتكاثر المكروبات تحت هذا الغشاء ينمو الجلد الجديد ، وتحت الجلد الجديد طبقة من الانساج تكثر فيها الاوعية الدموية الشعرية ، ويزعم الطبيبان جوز وده مارش ان فحص هذه الطبقة في حالتي استعمال الحامض التنيك والدهن بمركب الصوديوم المذكور أثبت ان الانساج والاوعية في الحالة الثانية اسلم منها في الاولى





لدكتور احمد غلوش

دعا الدكتور مكلانن عميد كلية العلوم الشرقية بالجامعة الاميركية صديقه الاستاذ احمد غلوش الى القاء محاضرة بالانكليزية على فريق من فضلاء الجاليتين الانكليزية والاميركية بالقاهرة ممن يهتمون بدراسة المسائل الشرقية فاجاب الاستاذ هذه الدعوة فوقف الدكتور مكلانن وقال ان قاعة الدراسات الشرقية كانت حتى الآن تعقد فيها اجتماعات لدرس تاريخ اعلام الشرقيين ومناقهم ولكننا في هذه الليلة سنسمع هنا لأول مرة رجلاً مصرياً مسلماً مثقفاً ثقافة اسلامية عالية وحاصلاً على درجات علمية شرقية من الجامعات الاوربية والاميركية وهو الدكتور احمد غلوش فهو سيحاضرنا الآن في موضوع اسلامي بحث يتعلق بالطرق الصوفية في الاسلام ويشرح لنا مراميها وأغراضها ونشأتها فقد آن الاوان ليتبادل سكان هذا الوادي الرأي فيما لديهم من صنوف الثقافة الروحية والعلوم والمعارف الدينية ويقدم كل فريق منهم الى الآخر احسن ما عنده من ذلك حتى يسود التفاهم بين الجميع مع احتفاظ كل منهم بآرائه الخاصة . قال ونحن معاشر الغربيين كثيراً ما سمعنا بوجود الطرق الصوفية بكثرة في هذه البلاد وسمعنا بالمشايخ والفقراء والدرأويش ولكننا في الواقع لا نعرف من حقيقة امرهم شيئاً . وقد تكفل صديقنا الدكتور احمد غلوش الذي اعتنق المبادئ الصوفية ومارس رياضاتها الروحية بان يشرح لنا ما بهما ان نعرفه منها . ثم دعا المحاضر الى منصة الخطابة فتقدم وبدأ كلامه بشكر الجامعة الاميركية التي اتاحت له هذه الفرصة للتحدث عن موضوع الصوفية في الاسلام ذلك الموضوع الذي كثيراً ما اخطأ فهمه الغربيون والمستشرقون . واسترسل في الشرح حتى وفي الموضوع حقه

(١) ترجمة المحاضرة التي القاها بالانكليزية بقاعة الدراسات الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة الدكتور

احمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات بالقطر المصري



من البيان. وقد استغرق القاء المحاضرة ساعة كاملة ونحن ننشر هنا ترجمتها لفائدة القراء

\*\*\*

انه لاجل معرفة حقيقة التصوف او اي علم آخر ينبغي عقلاً ان يلجأ في ذلك الى المتصوفين انفسهم او اصحاب ذلك العلم فهم اقدر من سواهم على مجلية الموضوع تجلية صادرة عن خبرة لا بشوبها زيف ولا تحريف واما نقل العلوم عن غير اهلها فقلما يوصل الى ادراكها على حقيقتها ولقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من الغربيين فألفتها في الكثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب فمن ذلك مثلاً ما يزعمونه من ان الصوفية والتصوف دخيلان في الاسلام غريبان عنه وانهما اما جاء بهما الا عاجم من الفرس قصداً منهم الى تشويه الدين ويزعمون ايضاً ان اصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوها ويقولون غير ذلك من المزاعم التي لا اصل لها

فالتصوف وان كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير في تدوينه وحمل لوائه فهو لا يمت الى المبادئ والمذاهب الآرية والبوذية بأدنى سبب. وشتان ما بين الناسك البوذي الذي يزعم انه يسلك طرق خاصة من الرياضة وتعذيب النفس ينمحي عنه في النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذا بنفسه أي إلهاً قد انحلت عنه صفات البشرية؛ وبين المسلم المتصوف الذي يعبد الله وحده طبقاً لاحكام الاسلام ومبادئ الدين الحنيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى وغايتها ان يصير بها أهلاً للفوز برضوان ربه والدخول في حضرته وتذوق طعم الايمان بالوجدان

وكثيراً ما خلط المستشرقون بين المتصوفين وبين المشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الاحاجي ويعرفون عندهم باسم أصحاب الاسرار الخفية Mysticism وترجع أسباب هذا الخطأ الى ان المتصوفين كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الاسرار الذوقية فظن أولئك المستشرقون ان أسرار الصوفي هي أمور خفية يحرص على حجبها عن أعين الناس كما هو الشأن عند اهل الشعوذة (Mystics) مع ان حقيقة معنى الاسرار عند الصوفيين انما هي الحقائق التي تنطوي عليها ظاهرات الاشياء والحكمة التي يتذوقونها من القيام بالاحكام والشرائع فهذه الاذواق والمواجيد لا يستطيع الصوفي ان يعبر عنها لاحد لا لانه يريد اخفائها عن الناس بل لانها فوق متناول الوصف والبيان إذ هي أمور ذوقية لا تعرف الا بالتذوق والوجدان. ومثلها كمثله حلاوة سكر القصب ونحوها مما لا سبيل الى إدراكه بغير التذوق

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدث وكل عالم ان يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذي أصابه فانه من العسير المنتعذر ان يبين لعامة الناس أسرار الانوار القدسية والفيوضات



الربانية التي تفيض على قلبه ثمرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته الروحية على انه لما يؤسف له جد الاسف وجود طوائف من الناس في الشرق ينسبون انفسهم الى الطرق الصوفية وما هم منها في شيء وهؤلاء قد يأتون بضروب من الهمهمة والتمتمة والايحاء الذاتي ويركنون الى التنجيم والطوالع والجفر وادعاء معرفة الغيب فيكأنوا بذلك نكبة على المتصوفة وسبباً دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف كما دعا آخرين الى القول بان التصوف ليس في شيء من الدين . بيد ان من يدرك سنة النمو لا بد ان يعرف انه كثيراً ما يوجد الى جانب النباتات النافعة والاعشاب الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا مندوحة من استئصالها حتى لا تعدو على النبات الطيب فتفسد عليه أمره .

وإن كان كل متصوف لا بد ان يستمد قواعده سلوكه الروحي من مبادئ الاسلام وتعاليمه الصحيحة فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفي والمسلم العادي ذلك بأن ايمان الاول ايمان تحقيقي ذوقي في حين ان ايمان الثاني ايمان يغلب ان يكون تقليدياً وراثياً انحدر اليه من الآباء او جاءه من طريق التلقين او التعليم او أصابه بحكم الوسط والبيئة التي يعيش فيها دون ان يعرف السر في ضرورة اعتناقه لهذه او تلك من المعتقدات الدينية التي لا بد منها لنجاته في الآخرة . وقد يظل القلب تخامره الشكوك والريب في كثير من هذه المعتقدات ويظل العقل يطالب صاحبه بوضع حد لها والتخاض منها . ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير بمفاوز الطريق المؤدي الى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان الى صحة السير على ان يكون هذا المرشد او الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادراً على هداية غيره اليها كراكب البحر يريد الوصول الى بلدين بعيداً فلا مندوحة له من الاسترشاد برابن ماهر يقدر على ان يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد في أمن وسلام . ومن ثم نشأت طائفة مشايخ الطرق والمسلكين فيها لارشاد المريدين الى الطريق حتى لا يضلوا السبيل . وكان أطباء الاجسام لا بد من الاستعانة بخبرتهم على شفاء العلل والاسقام فكذلك كان لا بد لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من امراض القلوب .

ولا بد للمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من ادران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلاً عن البعد كل البعد عن الوقوع في الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم وذلك لا يتم له الا بارشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التي يهندي بها قلبه ويطمئن خاطره ويسكن باله اذ يشعر شعوراً باطنياً انه قريب من حضرة مولاه ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالهية والاسرار القدسية الا بتصفية القلب



من الحظوظ الدنيوية حتى تنجلي بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الانوار الروحية والفتوحات الربانية

وعند المتصوفين ان الانسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً ولا صدفة وانما خلق لغاية سامية وان جسمه وان كان خسيساً ارضياً فان روحه شريفة علوية وان جسمه وان كان سيفنى بموته فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الابد فاذا ما تظاهر المرء في بوتقة الزهد والتقوى من ادران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية فانه ليلعب بذلك اسمى مراتب الرقي الباطني ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الا في عبادة الله والتسبيح بحمده فاذا اعطاه شكر واذا ابتلاه صبر ويصبر ولا هم له في الدنيا الا طاعة مولاه حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه لا ينفك عنها بأي حال من الاحوال فلا يلبث المرید ان يرى في كل ما امر الدين به حكمة خفية سامية ويرى مثل ذلك في كل ما نهى عنه الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى في القرآن الحكيم « واتقوا الله وبعلمكم الله »

وقد تطور التصوف في الاسلام على مدى الاجيال حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان

وقد بدىء بتدوين هذا العلم ونهذبت حواشيه ونظمت مبادئه ورتبت آدابه حوالي النصف الثاني للهجرة النبوية اي نحو عام ٧٦٠ للميلاد . ومع ان ابحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها في ستة موضوعات او مباحث عامة وهي معرفة الانسان نفسه ومعرفة الله تعالى ومعرفة حقيقة الدنيا ومعرفة احوال الآخرة ومراقبة النفس وايقاظ حب الله على كل ما سواه

ولما كانت هذه الفرصة لا تتسع امامي لشرح هذه المباحث كلها او بعضها فحسبي ان احدث عن التصوف اللبلة حديثاً بجملاً يجمع بعض ما تفرق من اطرافه الى ان تنهأ الفرصة لشرح مباحثه تفصيلاً . ولنبدأ بكلمة التصوف ومن اين جاءت فأقول : ان هذه الكلمة دخيلة على اللغة اعني انها ليست عربية الاصل ولم اقف في كتب الصوفية المعتمدة على رأي قاطع في اصل اشتقاقها . ففي المنفرقات للامام الجنيد وقوت القلوب لابي طالب المكي وعوارف المعارف للامام السهروردي والمنقذ من الضلال للامام ابي حامد الغزالي — وهذه امهات كتب الصوفية — يجد ان هؤلاء الائمة جميعاً كانوا في شك من حقيقة تلك الكلمة وقد ذهبوا في امرها مذاهب شتى دون ان يقطعوا بصحة ما ذهبوا اليه . وعندهم انها قد تكون مشتقة من الصفاء لان المتصوفين يدأبون على تصفية بواطنهم من الاهواء والشهوات . واما من التصفية لان الله تعالى تولى تصفية قلوبهم من حظوظ



الدنيا . واما من الصوف لانه كان الغالب في لباسهم لتقشفهم وزهدهم في الناعم من الثياب وأما من الصفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) وأصحاب الصفة قوم من اصحاب رسول الله زهدوا في نعيم الدنيا وآثروا الله ورسوله والدار الآخرة وفيهم نزل قرآن في مديحهم واطهار فضلهم . وليس في عدم قطع أئمة الصوفية في امر تسمية طريقهم ما يطعن في جلال قدرهم فانهم قوم عمليون يباؤون بالأعمال دون الاقوال ويهتمون بتحقيق المسميات دون التعويل على اصل الاسماء وقد خطر لي بعد طول التفكير ان من الراجح ان تكون كلمة التصوف مشتقة من كلمة نبوصوفية اليونانية التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحي يعتنقه النساك والزهاد السالفون قبل الاسلام بعدة قرون فكانوا ينأون بجانبهم عن الدنيا ويلجأون الى انواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه من انبيائهم ورسلمهم حباً في التقرب بالروح من خالقهم وتلقي الحكمة والمعارف القدسية منه تعالى . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في دائرة المعارف البريطانية من ان التبوصوفيين كانوا معروفين من ازمان بعيدة وكانوا يزهدون في الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم وان هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيباً مزجياً وهما لفظ ثيو ( Theo ) ومعناه اله و( Sofia ) صوفيا ومعناه الحكمة . اي ان اولئك القوم كانوا يزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأساً فهناك تشابه كثير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الوساطة والغاية

### ولكن ما هو التصوف ؟

ومهما يكن من خلاف في امر اشتقاق كلمة التصوف فانه لا خلاف البتة بين أئمة الصوفية في حقيقة معنى التصوف فقد اجمعوا على انه الطريق الوحيد السلطاني الذي يؤدي الى اكتساب المعارف الالهية والفتوحات الربانية والاذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والابهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التي لا بد من الايمان بها . ومنها مثلاً عقيدة القضاء والقدر التي تدل على ان الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء مع اعتقاد ان المهتدين يؤجرون بدخول الجنة وان العصاة يدخلون النار فان العقل قد يظل حائراً في سبيل التوفيق بين الامرين . وهناك مسألة الايمان بالبعث والنشور بعد الموت والفناء وهناك الاعتقاد بخلق الملائكة والجان والشياطين وهذه مخلوقات لا مثال لها من المنظورات والمحسوسات . ثم مسألة خلق البشر من طين وتراب وخلق الطين والتراب من لا شيء . وهناك مسألة النبوة والرسالة وان الله تعالى يكلم المصطفين الاختيار من عباده وينزل عليهم الوحي من سمائه . فما هذا الوحي وكيف يكون . وما هي تلك النبوة وكيف تكون وهناك مسألة المسائل وهي



الاعتقاد بوجود الله تعالى وجوداً أزلياً وأبدياً قبل ان يوجد الزمان والمكان فالعقل الراجح والمنطق الصحيح يوضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والايمان به في غير ما تردد ولكن الايمان بالشيء متفاوت درجاته فقد ينقص الى حد ان يكون ظناً او اقل من الظن تبعاً للمعاصي التي يرتكبها الانسان فله وكثرة وقد يتزايد الى حد ان يكون عياناً ومشاهدة وهذا تبعاً لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والاقبال على عبادته ضعفاً وقوة. وقد دلت سير المتصوفين الاولين السابقين ممن وصلوا الى الله تعالى وصول مشاهدة ومعاناة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على ان هذه الطريقة هي الكفيلة حقاً بالقضاء على كل غموض وابهام في امور الدين وعقائد الايمان كما قال سيد المتصوفين علي ابن ابي طالب لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً وان هي الا رياضة روحية مباركة ورحلة في طريق العبودية موفقة حتى يبلغ امام قلب السائر فيها نور اليقين فعين اليقين فحق اليقين حيث تنهزم من امام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويمتلئ الباطن عرفاناً وايماناً بكل ما نطق به الرسل الكرام وجاهلوا به من عند الله وعند الصوفية ان دين الله تعالى واحد في جميع العصور والاحبال ولم يكن في اي زمن سبق سوى الاسلام واعني به التسليم المطلق والخضوع التام لاوامر الله تعالى وما جاء به المرسلون من الشرائع والاحكام وان اختلاف الاديان لم يتناول العقائد قط وانما يتناول اعمال العبادات وكيفياتها وطقوسها تبعاً لحاجة العصر وتعاقب الازمان فالاديان جميعها من حيث اصولها لا تباين بينها ولا خلاف. واساس ذلك الاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل ما يتصور من صفات الكمال وتنزهه عن كل نقص يخطر على البال والاعتقاد بملائكته وبكتبه المنزل وبرسه المرسل وباليوم الآخر وهو يوم الحساب والقضاء خيره وشره من الله. وليست العبادات في جميع الاديان مطلوبة لذاتها من صلاة وزكاة وصوم وحج وقربة وانما هي وسائل لا بد منها للمتدين كما يصل بها الى تطهير قلبه من أدران الشهوات تطهيراً ترقى به الروح الى القرب من الله ودخول الجنة فهي اشبه بالعلاج الذي يتداوى به الجسم من الامراض. وكما ان تعاطي المريض لما يصفه له طبيب الاجسام من علاج يهمله وحده دون الطبيب الذي يعالجه اذ المريض هو الذي سينال به الشفاء دون الطبيب فان الله تعالى غني بذاته عن عبادة عبادهم فهم الذين سيجنون وحدهم فائدة هذه العبادة

ولما كانت النفوس البشرية بحكم تكوينها وخلقتها الحيوانية بحاجة الى تطهيرها ومداوتها من آثار العلل الشهوانية حتى تصفو وترتقي وتصير اهلاً للعودة الى ربها وخالقها راضية مرضية فان المتصوفين هم اشد عباد الله تمسكاً باحكامه واوامره المقررة في الشريعة كما اتى بها الرسول من عند الله فمن قال ان الصوفيين اهل تفريط في التمسك باهداب الشرائع الالهية فقد ظلمهم



وافترى عليهم فما جاء في كتب المستشرقين من الاوربيين عن تهاون ارباب الطرق الصوفية برسوم الشريعة مخائف للواقع بعيد عن الصواب

والحق ان المتصوف لا يكتفي مثل سائر المسلمين بالقيام بظاهر العبادات المسنونة في الدين بل ينظر بنور البصيرة الى ما تنطوي عليه الرسوم والاحكام من حكمة واسرار فيغوص لالتقاطها واستخراج هذه الاسرار من بواطنها ومكائنها كما يغوص السباح للماهر لالتقاط الاصداف من قيعان البحار لا رغبة في الاصداف ذاتها بل ليستخرج منها الجواهر واللؤلؤ الغالي فالصلاة مثلاً عبادة مطلوبة لانها تنهي عن الفحشاء والمنكر وفيها ذكر الله وذكر الله أجل شأنًا وإكبر وهي لا تحقق هذا الغرض اذا كان المصلي لا يؤديها وهو حاضر القلب لا يفكر في اثنائها الا في ادائها على الوجه الاكمل. فالمتصوف يحرص كل الحرص على الفوز باسرار الصلاة على هذا الوجه فلا يصلي وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه في خلالها نحو السوق ومصالح الدنيا من مال أو ولد. وكذلك الشأن في سائر العبادات المفروضة فان الصوفي يعرف ما تنطوي عليها من حكمة واسرار فيحرص على بلوغها ويحذر من كل ملاسة تؤدي الى ضياعها. ولم يشفق المتصوفون على عوام المسلمين حين يصلون وهم عن صلاتهم ساهون فلا يفيدهم قيامهم بها على هذا الوجه أجراً فضلاً عن تظهيرهم من الفحشاء والمنكر وهذا الذهول من المسلمين عن اسرار العبادات وعدم الحرص عليها وقلة الحذر من تقويت حكمتها عليهم كان السبب الاكبر في نظر المتصوفين لما أصاب المستوى الروحي في المهود المتأخرة للاسلام من الضعف والانحطاط

### التصوف من الناحية التاريخية

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة الى التصوف في صدر الاسلام وعدم ظهور هذه الدعوة الا بعد عهد الصحابة والتابعين. والجواب عن هذا انه لم تكن من حاجة اليها في العصر الاول لان اهل ذلك العصر كانوا اهل ورع وتقوى وأرباب مجاهدة واقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله فلم يكن ثمة ما يدعو الى تلقينهم علماً يرشدهم الى امرهم قائمون به فعلاً وانما مثلهم في ذلك كمثل العربي الفصح يعرف اللغة العربية بالتوارث كبراً عن كبر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون ان يعرف شيئاً من قواعد اللغة والاعراب والنظم والقريض فمثل هذا لا يلزمه ان يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تبليغ اللسان او لمن يريد من الاجانب ان يفهمها لينتفع بها او عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي



العصور في أوقاتها المناسبة. فالصحابة والتابعون وإن لم يتسموا باسم المتصوفين فإنهم كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً. وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه والتخلي بالزهد وملازمة اسباب العبودية والاقبال على الله بالروح والقلب في جميع الاوقات بما وصل به الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي الى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالانقار بعقائد الايمان والقيام بفروض الاسلام بل قرنوا الانقار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الاثنيان بكل ما استحبه الرسول من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة في قلوبهم وفاضت الاسرار الربانية من جواهرهم. وكذلك كان شأن التابعين وتلاميذ التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الاسلام وخيرها على الاطلاق. وقد جاء عن رسول الله وخاتم الانبياء قوله خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه

فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الاسلام أتم شتى واجناس عديدة واتسعت دائرة الارشاد والتبيين في مختلف ميادين المعرفة والعلوم فنمَّ وجب تقسيم العمل وتوزيعه بين ارباب الاختصاص فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الاول علم الفقه وعلم التوحيد وعلوم الحديث وأصول الدين والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الاصول والفرائض (الميراث) وغيرها وغيرها. وحدث بعد هذه الفترة ان أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتناسون ضرورة الاقبال على الله بالعبودية بالقلب والهمة مما دعا ارباب الرياضة والزهد الى ان يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف واثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم. ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الاخرى الى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأ بعض المستشرقين بل كان كما يجب ان يكون سداً للنقص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد اسباب البر والتقوى

وقد بنى ائمة الصوفية الاولون اصول طريقتهم على ما ثبت في تاريخ الاسلام نقلاً عن الثقات الاعلام انه حدث في العام الاول للهجرة ان اجتمع بضعة عشر رجلاً من المهاجرين ومثل ذلك من الانصار من اهل المدينة وتقاسموا بينهم ان يزهدوا في الدنيا ولعيهم الزائل وبقبلوا على الله والدار الآخرة وبشغلوا جميع اوقاتهم ولا سيما في اوقات السحر والغسق بصنوف العبادات حباً بالله واقتداء برسوله فكان هذا التقاسم بمنزلة عهد قطعوه على انفسهم لله لا مناص لهم من الوفاء به والآن كانوا آثمين وذلك ما يسمى بالعهد بين اهل الطريق الى الآن. وكان أساس زهدهم في الدنيا قول النبي صلى الله عليه وسلم «الفقر فخري» ومن هنا جاءت التسمية



التي أطلقوها على أنفسهم ومن دخل في طريقهم وسلك سبيلهم وهي ( الفقراء ) فالواحد منهم كان ولا يزال يسمى بالفقير ومعنى الفقير عندهم ليس من هو بحاجة الى معونة الغير بل معناها الفقير الى رحمة الله المستغني به عن الخلق جميعاً

كذلك ثبت عندهم ان النبي لقن أصحابه ذكر لا اله الا الله جماعة وفرادى فأما تلقينه لأصحابه جماعة فقد رواه شداد بن أوس في حديث صحيح قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام هل فيكم غريب ؟ يعني من أهل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا اله الا الله فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا لا اله الا الله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أبشروا فان الله قد غفر لكم . وأما تلقينه صلى الله عليه وسلم لأصحابه فرادى فقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله دلني على أقرب الطرق الى الله عز وجل وأسهلها على عبادهم وأفضلها عند الله فقال يا علي عليك بمداومة ذكر الله عز وجل سرراً وجهراً فقال علي كل الناس ذاكرون يا رسول الله وأما اريد ان يخصني بشيء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي ان افضل ما قلت انا والنبيون من قبلي لا اله الا الله الى آخر الحديث الشريف . فهذا اصل سند القوم في تلقين الذكر الى اليوم وهم يرون من فوائده ارتباط القلوب بعضها ببعض الى رسول الله وان اقل ما يحصل للمريد الصادق اذا دخل في سلسلتهم بهذا التلقين ان يكون اذا حرك به حلقة لسانه جاوبته ارواح الاولياء من شيوخه الى رسول الله فمن لم يدخل في طريقهم بالتلقين فهو غير معدود منهم ولما يفتح عليه بما فتح به عليهم

ويروى ان أبا بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين كان يتولى قيادة فريق من أولئك الفقراء كما ان علي بن أبي طالب بن عم النبي ورابع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر . وبعد وفاة أبي بكر خلفه في طريقته سلمان الفارسي أحد كبار الصحابة من أهل فارس وبعد وفاة علي تولى خلافة طريقته الحسن البصري وكان كل منهما يسمى بالخليفة ولهذا صار يطلق اسم الخليفة الى يومنا هذا على كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية

\*\*\*

وبتمسك المتصوفون في اقبالهم على الله بالهمة وصدق العبودية ، بما جاء في القرآن وهو قوله تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى بصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »



ولهذا اوجب الفقراء اي المتصوفون على انفسهم ان يكونوا في جميع الجالات على قدم الاستعداد للتضحية بهذه المصالح الدنيوية كلها في سبيل قيامهم بحق العبودية لله وحده فلا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا اي متاع آخر عن ذكر الله وعبادته واضعين نصب اعينهم الغرض الاسمي من خلقهم ووجودهم في هذه الحياة الدنيا وهو ما جاء في قول الله تعالى في القرآن وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون

وقد دل تاريخ هؤلاء القوم على ان عمدتهم في التقرب الى الله فوق قيامهم بالمفروض عليهم في الاسلام التزامهم اذكراً واوراداً كل صباح ومساء وأهم هذه الاذكار ذكر لا اله الا الله ثم الصلاة على النبي ومعناها استنزال البركات الديمومية الربانية على روحه صلى الله عليه وسلم وعندهم كما ثبت بالتجارب والممارسة ان لذكر الله باللسان مع حضور القلب وبالكيفية الخاصة المتفق عليها لدى شيوخهم وطوائفهم اثر كبيراً يعجز القلم عن وصفه في تصفية الباطن وتوير القلب بالانوار والفتوحات الربانية كما ثبت مثل ذلك للصلاة على النبي. والمسلمون مأمورون في القرآن بهذه الصلاة وهي فرض عين على كل مسلم صوفياً كان او غير صوفي وانما المتصوفون يكثرون منها جهد الطاقة لما لها من الاثر العظيم في جلاء مراة القلب وصفاء الروح صفاء عيياً مظهره الا كبر تملك حب الله ورسوله من صميم نفوسهم

وأما تسميتهم بالمتصوفين فلم تحدث او بالاحرى لم يرد لها ذكر في كتب التصوف المعتمدة الا بعد عصر الخليفة المأمون سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨ هجرية او ٨١٣ — ٨٣٣ ميلادية) وقد كان ذلك العصر ازهر عصور الادب العربي وفيه توفر العرب على نقل العلوم والفلسفة الاجنبية. والظاهر انهم التقوا فيها بكلمة تيوصوفية اليونانية فربوها ونحتوا منها اسماً معرباً اطلقوه على جماعة الفقراء فكان هذا الاسم هو التصوف لان كلمة الفقراء لم تكن وافية في ذاتها في الابانة عن المعنى الذي يتميز به المتصوفون عن غيرهم من المسلمين وقد المعنا الى بيان ذلك من قبل وأما كلمة الصوفية وكلمة الصوفي فهما كذلك منحوتان من نفس كلمة تيوصوفية المتقدم ذكرها وقد اطلقت الاولى اي الصوفية على العلم نفسه والصوفي على من تحقق بهذا العلم وتلبس به. واما كلمة المتصوف والتصوف فقد استعملت الاولى منها للدلالة على السالك في هذا الطريق الآخذ في اسباب التحقيق به واستعملت الثانية (التصوف) على سلوك الطريق

وقد كان تأسيس اول طريقة نظامية من الطرق الصوفية الطريقة العلوانية لمؤسسها الشيخ علوان في سنة ١٤٩ هجرية (٧٦٦ ميلادية) وبعد ذلك توالى انشاء الطرق الاخرى بنوالي القرون وكانت كل واحدة منها تسمى باسم شيخها ومؤسسها. وقد يتعذر اليوم تعداد الطرق الموجودة الآن كلها لكثرتها. فنجتزئ الان بذكر اشهرها وهي : —



اسم الطريقة	مؤسسها	تاريخ تأسيسها
١ العلوانية	الشيخ علوان المدفون بمجده	١٤٩ هـ — ٧٦٦ م
٢ الادهمية	الزاهد ابراهيم بن ادهم » بدمشق	١٦١ هـ — ٧٧٧ م
٣ البسطامية	الامام ابو يزيد البسطامي » جبل بسطام	٢٦١ هـ — ٨٧٤ م
٤ السقاطية	الامام سري الدين السقطي المدفون ببغداد	٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م
٥ الحيلانية	سيدي عبد القادر الحيلاني »	٥٦١ هـ — ١١٦٥ م
٦ الرفاعية	سيدي السيد احمد الرفاعي »	٥٧٦ هـ — ١١٨٢ م
٧ السمروردية	الامام شهاب الدين السمروردي »	٦٠٢ هـ — ١٢٠٥ م
٨ الشاذلية	سيدي ابو الحسن الشاذلي القصير بالبحر الاحمر	٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م
٩ المولوية	سيدي جلال الدين الرومي قونية	٦٧٢ هـ — ١٢٧٣ م
١٠ الاحمدية	سيدي احمد البدوي طنطا	٦٧٥ هـ — ١٢٧٦ م
١١ النقشبندية	سيدي بير محمد نقشبند قصر عرفان	٧١٩ هـ — ١٣١٩ م
١٢ السعدية	الامام سعد الدين دمشق	٧٣٦ هـ — ١٣٣٥ م
١٣ البختاشية	سيدي الحاج بختاش كيرشر بالباينا	٧٥٦ هـ — ١٣٥٧ م
١٤ الخلوتية	سيدي عمر الخلوتي قيصرية	٨٠٠ هـ — ١٣٩٥ م
١٥ البرهامية	سيدي الحاج برهام انقره	٨٧٦ هـ — ١٤٧١ م
١٦ البكرية	سيدي ابو بكر الوفاي حلب	٩٠٢ هـ — ١٤٩٦ م
١٧ الجلشانية	سيدي ابراهيم الجلشاني القاهرة	٩٤٠ هـ — ١٥٣٣ م
١٨ الجمالية	سيدي جمال الدين اسطامبول	١١٦٤ هـ — ١٥٧٠ م

فهذه الطرق الصوفية المشهورة وكثير غيرها مما لم نذكره ليس من خلاف بينها من حيث الاسس والمبادئ الاصلية وانما الفرق في نوع الاذكار والاوراد التي يواظب عليها المريدون من اتباع كل طريقة منها فقد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الالهام ويؤتي حظاً كبيراً من الانوار القدسية فيكشف بفائدة ذكر اسم معين من اسماء الله الحسنى فيكون ذلك سبباً او اساساً لانشاء طريقة جديدة مشتقة في الواقع من طريقته الاصلية ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور والازمان

وليس في الامكان ان نأتي على تبيان مختلف الاذكار والاوراد وصنوف الرياضات ومدارك السلوك لدى ارباب الطرق المتنوعة وحسبي ان اصف لحضراتكم بالايجاز المراحل التي يقطعها اتباع الطريقة الخلوتية وقد قطعها بنفسه بتوفيق الله وبارشاد شيخه العارف بالله سيدي عبد الله بن محمد



البناء المدفون في الاسكندرية قدس الله سره وهذا الوصف ينطبق في مجموعه على حال الطرق  
الآخري — فأقول:

### طريق المنصوف في سلوكه الى الله

يبدأ سلوك هذا الطريق باستشعار رغبة ملحة تستولي على القلب فتبعث بها في باطن المرء  
داعية قوية نحو تذوق الايمان بالوجدان وعدم الوقوف عند حد التصديق او اليقين الذي حصل  
عليه بالتوارث او بالاستدلالات المنطقية والعقلية فما أبعد الفرق بين من يعتقد من اهل مصر بوجود  
لندن في انكلترا وهو لم يشاهدها في حياته وانما آمن بها لتوفر الأدلة العقلية على وجودها وبين  
من رآها رأي العين وعاش فيها زمناً . وتأخذ هذه الرغبة زداد في القلب تمكناً بمقدار صفاء  
الروح واستعداد النفس الى الرقي الروحي فيتمسكها الحنين والشوق الى معرفة خالقها  
معرفة ذوقية لا عقلية ولا عقلية ويغلب ان تساور الانسان في هذه الحالة شكوك وظنون  
وأوهام خفية فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون ان يجد من عقله مرشداً كافياً لحل معضلاتها  
والخروج من ظلمات الحيرة المترتبة على تلك الظنون والشكوك فيلجأ عند ذلك الى احد  
المُرشدين الى طريق الحق من مشايخ الصوفية بشرط ان يكون هذا الشيخ من المحققين  
العارفين بالله ممن سبق لهم سلوك هذا الطريق بعينه وهو مأذون من شيخه بالتسليك فيه ويطلب  
اليه ان يدخله في عداد اتباعه الآخذين في السلوك الى الله على يديه . ففي هذه الحالة يسمى  
الطالب (مريداً) أي يريد السير في الطريق وهذه اولى المنازل وتسمى منزلة الارادة فيتلقي الشيخ  
بالفرح والسرور ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبري من حوله وقوته واخلاص النية  
في مقصده وغايته القيام بما يفرضه الطريق على السائر فيه من الاذكار والاوراد المشروعة فضلاً  
عن القيام بما يستوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه ويوصيه بملازمة التقوى في السر  
والعلانية ومراقبة الله في كل حال ثم يلقنه الذكر ويعطيه الاوراد ومن ثم يبدأ سلوك المريد  
ويسمى عند ذلك (سالكاً) جاعلاً أكبرهم في الدنيا الاشتغال بالعبادة والزهد والرياسة بحسب  
ما يرسمه له الشيخ فيقبل على الله بصدق النية وتصفية القلب عما سوى الله حيث ينتقل بذلك  
الى مقام يسمى بمقام العبودية ويظل السالك يجاهد في الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليهما  
بالاكثار من الضراعة والتذلل والتزلف الى بارئيه حتى اذا ما أقبلت عليه العناية الالهية وتقبلت  
مناجاته وضراعتة ارتقت الرغبة في قلبه فصارت عشقاً لله وحباً لذاته العلية وهنا يصل السالك  
الى مقام في الطريق يسمى (مقام العشق)

ولا يزال هذا العشق يملك قلب السالك حتى يطرد من باطنه كافة الاماني والحفوظ



والرغبات الدنيوية فيقوده هذا الحال الى مقام ارتقى يعرف بمقام (الزهد) حيث تتم فيه تصفية القلب وجلاء مرآته جلالة بحيث يصير مستعداً لاستقبال ما تنعكس عليها من المعارف القدسية والانوار الالهية بدون واسطة العقل او المنع او اي عمل من اعمال الجسم الفسيولوجية وهذا يواصل السالك سيره الى الله وهو دائم التفكير في معبوده الاوحد لا يهنأ له عيش ولا يطيب له وقت الا اذا اقترن بذكر الله والتسبيح بحمده وعند ذلك تنبثق في قلب السالك انوار تلك المعارف الدنية اي التي تهبط على القلب بطريق الالهام الباطني بكيفية تجل عن الوصف وبها تحصل لديه ادواق وجدانية يفهم بها ما لم يكن يفهمه بعقله من معاني النبوة ويعرف هذا المقام عند المتصوفة بمقام (المعرفة)

ويظل السالك بعد ذلك مواظباً على اذكاره وأوراده التي يتلقاها من شيخه آناً بعد آناً بحسب ما يبدو للشيخ من استحقاق المريد لزيادة الترقى الروحي فيشغل بها اوقاته مقرناً ذلك بالعزلة والحلوة والاقلال ما امكن من الطعام والشراب والكلام والنوم الا ما تستوجبه الضرورة والطبيعة مع ملازمة التهجد وقيام الليل والناس نيام فعند ذلك تتملكه حالة شريفة علوية روحية ينتقل بها الى المقام الذي يسمى مقام (الوجد والهيام) وهو اسمى من مقام العشق اذ يستولى على النفس آثاره من جميع نواحيها

فاذا بلغ الفقير هذا المقام السني تواردت على قلبه النفحات الربانية والبركات الالهية نوادراً زداد به معرفته الباطنية بصفات الذات العلية ما يصل به الى الحقيقة المجردة التي كان ينشدها عندما جاء الى الشيخ وهو اذ ذاك مريد يطلب الوصول اليها . وتسمى هذه المنزلة عند أرباب الطريق بمقام (الحقيقة)

على ان وصول السالك الى هذا المقام لا ينتهي عنده سلوك الطريق بل انه يظل بعده يرتقي بالروح الى منازل ثلاث أخرى تعرف بمنزلة (الفناء فاللقاء فالبقاء) . أما الفناء ففناء العبد عن حظوظه وعن نفسه في الله بل عن اختياره أيضاً ويكون كما قال سيدي ابو الحسن الشاذلي لبعض مريديه « اذا شئت أن تختار فاختر ان لا تختار وفر من ذلك المختار ومن فرارك هذا ومن كل شيء الى الله تعالى »

ففي هذا المقام تجل عظمة الخالق على قلب السالك فلا يرى الا الله حتى نفسه لا يرى لها أثراً ولا يجد في الوجود من الكائنات الا واجب الوجود وحده وتمحي آثار جميع الموجودات في وجوده تعالى وتجل في فؤاد الفقير معنى قوله عز وجل في القرآن مخاطباً عباده المتقين فأنيبوا الى ربكم وأسلموا له . ويتضح له بعد الافاقة من سكر الوصول الى هذه الحال الزهية معنى قول الحلاج ما في الحبة الا الله اي ان نفسه تلاشت فلم يعد لوجوده عنده من أثر



وقد وصف الامام جلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية في أبيات له بالفارسية حالة الفناء هذه أبدع وصف وبلوح لي ان هذه الابيات لم تترجم الى العربية حتى الآن وهذا مضمون ما قاله في ذلك :

« حينما يستولي روح من الجن على لب انسي من الناس تضعف صفات الانس فيه الى حد التلاشي ويصبح كل ما يصدر منه من قول آتياً من وحي ذلك الروح الجنى وسلطانه لا من عقل هذا الانسي وتفكيره اذ تلاشى ذاته وفقاً ما يعود في خلاله كأنه الجنية ذاتها » وفي تلك الحالة العجيبة تصبح العربية عند التركي لغته ان كانت العربية لغة ذلك الجنى المستولى عليه فينطق بها دون ان يعرف منها شيئاً وهذا يحدث منه في غير إلهام يحسه او وحي يتلقاه ومتى عاد الانسي الى نفسه وأفاق ، لم يذكر لفظاً واحداً مما قاله وهو تحت ذلك السلطان فاذا صح هذا عن الجنية وسلطان استيلائها على لب انسان ، أف يكون خالق الانسان والجان أقل شأنًا وأضعف سلطاناً من الانس والجان ؟ حاشا ان يكون ذلك شأن الاله الواحد القهار » وفي أبيات له أخرى يقول سيدي جلال الدين بالفارسية ما ترجمته بالعربية :

« لو تكلم امامكم رجل سكران من اثر ما شربه من روح الخمر بكلام غريب قلتم انها الخمر التي تتكلم اف يكون لروح الخمر هذا الاثر ولا يكون لروح الله مثله اذا استولى على قلب انسان فيجعله ينطق بكلام ليس بكلامه وعبارات ليست هي عباراته الا ان القرآن وان جاءنا من بين شفقي النبي محمد فقد كفر من قال انه ليس كلام الله »

### الفناء عند الصوفي

#### ومقارنته بالفناء لدى البوذيين

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا ان من المستشرقين من الغربيين من ذهب الى حد تشبيه حالة الفناء عند المتصوفين المسلمين بحالة تسمى نيرفانا Nirvana عند البوذيين الوثنيين وهي الحالة التي يتوهم هؤلاء انها نتيجة تعذيبهم انفسهم حتى تلاشى وتنمحق عنهم فلا تعود النفس الى صاحبها ابداً اذ يزعمون انه يقلب فيصير بوذا بذاته اي إلهاً آخر تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . ولست بصدد اظهار ما في هذه المزاعم الوثنية الوهمية من الضلال والخالفه للتعاليم الدينية الحقة . وانما اقول ان فناء السالك المتصوف غير هذا اذ معناه فناؤه عن نفسه وصفاته الحيوانية الارضية حبساً في ذات الله بالتزام التهذيب لا التعذيب ومتى تم له هذا الفناء اشرف به على طور لا يشهد معه في الوجود الا الله حتى ولا نفسه التي بين جنبيه فلا يرى وجوداً إلا لواجب الوجود وحده وأما وجود سواه أياً ما كان فهو وجود مجازي غير ذاتي لقبوله العدم والفناء اما الوجود الحقيقي الذاتي فهو للذات العلية الابدية الدائمة البقاء وحدها



وتلك المشاهدة لا تحصل بحاسة البصر بل تحصل بعين البصيرة أي بنور ينبعث في القلب انبعثاً إلهياً اذ تكون الحواس الظاهرة كلها في غيب عن نفسها كما يحدث لمن يدخل على ملك ذي شوكة وسلطان فتتملكه الهيبة والجلال الى حد انه لا يرى شيئاً قط مما في بيت الملك من رياش وغير رياش ولا يرى أحداً ممن يكون جليساً للملك حين دخوله عليه حتى ولا يعلم من أمر نفسه شيئاً حين دخوله على حضرة الملك وذلك لاستيلاء الذهول كله عليه.

فهذا الامر مشاهد في امور الخلق فكيف بنا وحديثنا يدور حول الفناء في الخالق . ثم ان السالك بوصوله الى مقام الفناء الذي وصفنا طرفاً منه يتحقق له قول النبي عليه السلام لأصحابه موتوا قبل ان تموتوا اي موتوا عن رؤية وجودكم واختياركم وإعتمادكم على حولكم وقوتكم لتعلموا ان الوجود والاختيار هما في الحقيقة وقف على الله الواحد المختار وانكم وان زرعتم الزرع بأيديكم فان الزارع هو الله ولكنكم أسباب وقد يخلق الله بسبب ويخلق ايضاً بلا سبب فهو مسبب الاسباب ورب الارباب وهذا ما ترونه كشفاً وعياناً بعد انقضاء أجلكم في الدنيا ويكون الحال كما وصفه الله في القرآن بقوله تعالى ( فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد )

وبعد ان يفيق الطالب من سكر الفناء ينتقل تَوَّأً الى مقام يسمى مقام اللقاء ويعرف عند الصوفية أيضاً بمقام (الوصول) او المشاهدة والمكاشفة ومن ذلك قولهم في مواضع كثيرة من كتبهم فلان الواصل الى الله وهذا المقام حالة وراء العقل المجرّد يعجز القلم عن وصفها وتدق الافهام عن تصور كنهها اذ هي بمنزل عن نطاق المدارك العقلية لانها حالة ذوقية روحية لا تعلق للعقول بها الا بأن تقر بجواز حصولها وعدم استحالتها ومثلها بالنسبة الى المدركات العقلية كمثل ما يؤكل وما يشرب بالنسبة الى حاسة البصر فكما ان هذه الحاسة لا تتعلق الا بالمرئيات دون الازواق اذ ليس ادراك الازواق من شأنها ولا من واجباتها بل هو مقصور على حاسة الذوق وحدها فكذلك المواجيد الروحية والازواق الباطنية القلبية لا تدرك بالعقول والافهام . وانما تدرك بنور البصيرة وطهارة والالباب

وقد تلبث حالة الفناء التي أسلفنا ذكرها مقدار لحظة واحدة او قد تطول اكثر من لحظة وكذلك حالة اللقاء او المكاشفة قد تدوم ساعة او اكثر من ساعة حيث يعود السالك بعدها برضوان الله وفضله الى نفسه ولكن ليس الى نفسه الاولى الامارة بالسوء التي كان يجاهد في تهذيبها وصقلها بمهذبات الشرع ويحاول قهرها ويحاول قهره ويسعى في ضبطها ضمن حدود الشريعة وهي تاتي الا الغلبة عليه والخلاص من قهره . بل يعود الى النفس الراضية المرضية المهذبة الكاملة المطمئنة بالايمان الراضخة لاحكام الشرع والدين . يعود الآن الى مقام البقاء بالله اي مقام العزة الانسانية المشروحة الصدر المستنيرة بانوار التقوى والصلاح بعيداً عن



الشوائب الشهوانية والحظوظ النفسية والصفات الدنيئة وأخصها العجب والزهو والكبر والرياء والنفاق والحسد والتطلع الى ما في ايدي الناس وقلة الرضى بما قسمه الله من الرزق يعود ليشهد فيه الخلق مثلاً حياً على صدق روح الاسلام وتكفله بان يبلغ النفس البشرية اقصى ما تتوق اليه من الكمالات والرقى الروحي اذ يصير قلبه مليئاً بالصدق والمروءة والنخوة والطهارة والصفاء والعطف والرأفة والحنو على عباد الله بل على الخلائق جميعاً حتى الطير والحيوان الاعجم يعطف عليه ويرأف به حتى لقد قال في وصف هذه الحال مولانا العارف بالله سيدي محي الدين العربي اياتاً منها قوله قدس الله سره : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي      اذا لم يكن ديني الى دينه داني  
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة      فرعى لغزلان ودبر لرهبان  
وبيت لنيران وكعبة قاصد      وألواح توراة ومصحف قرآن  
أدين بدين الحب أنى توجهت      ركائبه فالحب ديني وإيماني

وقد أراد سيدي جلال الدين الرومي تصوير حالة الوصول الى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء فكتب في كتابه المسنوي شعراً بالفارسية هذا معناه : —

« توهم المحب انه قد فني في محبوه فلما اهتدى الى بيته بعد طول السير والجهاد وقف بالباب فدق عليه يطلب الاذن في الدخول فسمع من الداخل صوتاً ينادي : من بالباب ؟ فقال المحب انا بالباب. فقال الصوت داخل البيت : كلاً. كلاً. ان هذا البيت لا يسعني ويسع احداً سواي. وظل الباب مغلقاً كما كان فأطرق المحب ملياً فأدرك ان ما حجبهُ دون الاذن له بالدخول الا شعوره بوجود نفسه معه فعاد ادراجه وعاود جهاده ثم رجع بعد عام يقرع الباب فعاد الصوت يسأل من بالباب ؟ فقال انت انت الذي هنا وانت انت الذي هناك وانت وحدك ملء الوجود ولا موجود سواك. وهنا فتح الباب على مصراعيه فدخل منه المحب ليحظى بوصال الحبيب »  
وبهذه الصورة الشعرية الطريفة أمكن للعارف جلال الدين ان يصور لنا كيف ان سلوك سبيل التصوف الحق ينيل النفس المتعطشة اقصى ما تصبو اليه من الرقي الروحي

\*\*\*

هذا ايها السادة ما وسع المقام ذكره من الامام ببعض اطراف التصوف في الاسلام اجمالاً وعسى ان تتاح لي فرصة اخرى لازيد الموضوع جلاءً وتفصيلاً. واني شاكر لكم حسن استماعكم لي زمناً طويلاً



## قبلة الروح !!

هات أدني من في شفتي ذا البرعم  
يا لثغر عذمي<sup>(١)</sup>

أي سحر قطفه ذوب شهد رشفه  
وشهي وكفه

أترام قد شفاني ؟ أم ترام قد سقاني  
وجباني بالاماني ؟

لا ... فما بل الظلما أوشفي جرحاً همي  
كان نغراً ظالماً !!

هات روحاً ملهمي سلسليه في دمي  
تحتويه أعظمي

ها ... سرينا في سما هي لغز أبهنا  
أتراني حالماً ؟ !

ها أرانا هائمين في انتشاء ذاهلين  
قد غدونا طائرين كيف طيرنا؟ بل وأين؟  
لا وربنا ما درينا !!

\*\*\*

آه من قبلة صب يحتمي روح المحب  
خلقت أكوان حب إنها قبلة .. رب !!  
إنها يا أخت روعي قبلة الروح لروحي  
هددت مني جروحي لا تضنني بل أبيحي  
امنحها للعرج !! ...

محمد فرهمي



# حضارة الميثانيين

بقلم قيصر صادر

عضو جمعية العاديات السورية

— ٢ —

﴿ اللغة ﴾ عندما نهضت الآثار الميثانية من جوف الثرى ومسحت عن جفونها غبار الالام حاول علماء الآثار ان يستجولوا معاني تلك السطور العالقة على بعضها فلم يوفقوا في محاولتهم ولبتت كتابات الميثانيين غامضة صامتة لا تنبس بينت شفة عما تتضمنه من الاسرار ريثا يتسنى العثور على لوحات ميثانية مثل لوحات بوغاز كوي ورأس الشمرء التي تدوّن فيها النصوص الواحدة مترجمة الى عدة لغات تساعد على تفسير بعضها بعضاً. غير انه يلوح من اسماء بعض الملوك الواردة باللغات المصرية والحثية ان لغة الميثانيين كانت مزيجاً من الفاظ اسبوية وآرية وهي تشبه بذلك لغة القوقاس الحثية وقد اشارت ألواح بوغاز كوي الحثية الى وجود قصص وقصائد موضوعة باللغة الميثانية اشيد فيها باعمال البطل جيلجاش العجيبة كما ان الكتابات الميثانية التي عثر عليها في حفريات تل العمارنة تدل على ارتقاء الفكر وسعة انتشار ادب المراسلة عند الميثانيين كرسالة الملك توزارطا الموجهة الى امنوفيس الثالث التي تنطوي على ٤٩٤ سطراً وهي مخطوطة بقلم المسامري وتعد هذه الرسالة المطولة من اهم ما عثر عليه حتى يومنا من الاسانيد التي تمهد لدرس اللغة الميثانية بفضل مقدمتها حيث تيسر حل مدلول بعض الفاظها التي يخاطب عادة بمثلها فراعنة مصر على انه ينتظر عند اتساع حلقة الحفريات في اراضي الميثانيين ان تنو الى اليبينات التي تساعد على حل رموز هذه اللغة العويصة حلاً نهائياً

﴿ الانظمة والقوانين ﴾ ما برحت لغة الميثانيين مستعصية الحل على علماء الآثار فليست معلوماتنا عن انظمتهم وقوانينهم غير معلومات مقتضبة اخذناها عن كتابات جيرانهم الذين المعوا الى هذه الانظمة والقوانين في سياق البحث عن انظمتهم وقوانينهم الخاصة او عن عقود ميثانية محررة بلغة اجنبية فقد كان العرش وراثياً تحرسه كوكبة من الجيش يطلق عليها اسم الحرس المارياني . اما طراز الحكم فكان اقطاعياً ينحصر تولىه في طبقة من الاعيان تتحدّر من عنصر آري مثل العائلة المالكة نفسها وتكاد تكون قوانين الدولة مستعارة برمتها من قانون همورابي الذي كان له اعنف تأثير في كل الدول التي قامت فيما بين النهرين . بيد انه كان يستثنى من ذلك تشريع التعامل



التجاري عند الميتانيين الذي عرف بميزة خاصة تنطبق على حاجة جماعة معظمهم من الزراع . وقد اشار الاستاذ كوك الى الخصائص التي تميز العقود الميتانية عن سواها وأهمها وجوب بيان المحل الذي تم فيه الصفقة ويدون العقد مع ذكر أسماء الشهود الحاضرين مما كان يفصل في معظم العقود الحثية . زد على ذلك ان المكاييل والاقيسة الوارد ذكرها في العقود الميتانية كانت أقرب الى ما هي عليه في آشور مما هي عليه في بابل . فقد كان الكيل المدعو إمبر الشائع عندهم يستوعب من الحبوب مبذر مساحة معينة من الارض ويوازي أربعين لترأ من مكاييلنا

﴿شرائع الزواج﴾ كان الخطيب عند الميتانيين ينقد والد الفتاة مبلغاً من المال يرمز فيه الى عادة مشترى المرأة تلك العادة التي كانت متفشية في بابل . بيد انه كان يترتب أدباً على الوالد الميتاني ان يسرع باعادة المبلغ المذكور الى الخطيب بعد قبوله شكلاً ومهر ابنته بياثمة تساعدها على تقديم هدية ثمينة الى بعلمها ليلة الزفاف مما لا نرى له مثيلاً في تقاليد الجوار . وقد كان مباحاً للزوج ان يطلق امرأته اذا كانت قاقراً أما اذا كانت ولوداً فلا يحق له ذلك دون ان يعوضها بالمال ويخسر في حال طلاقها حقوق الابوة على اولاده مع بقاء حق الارث محصوراً بعده في أولئك الاولاد دون غيرهم ﴿شرائع التبني﴾ ومما كان شائعاً في البلاد الميتانية شريعة التبني وقد عرفت منها ثلاثة أشكال : ففي الشكل الاول المدعو (أنا شمتي) كان يختار المرء قريباً له يتبناه بطريقة غير قابلة التكرار فيرعاها بحمايته ويفدق عليه خيراته . أما في الشكل الثاني المعروف باسم (أنا معروف) فيصح تبني شخص غريب عن العائلة ويحق للمتبنى ان يرث حصة معينة من مال المتبني

ولما كانت أراضي الخراج المقطعة للموظفين او الجنود لقاء خدماتهم غير قابلة الانتقال الى الغير الا بطريقة الارث الشرعي فقد أوجد لها المشرع الميتاني حيلة تساعد صاحبها العاجز عن العمل على الانتقال بها او استقلالها بواسطة الغير . وذلك بأن يتبنى مالكمها شخصاً يهبها له لقاء هدية من الفضة او الحبوب تعادل ثمنها وهذا هو الشكل الثالث وقد أطلق عليه الاستاذ سبزر الذي اكتشف لوحات كركوك اسم البيع بالتبني

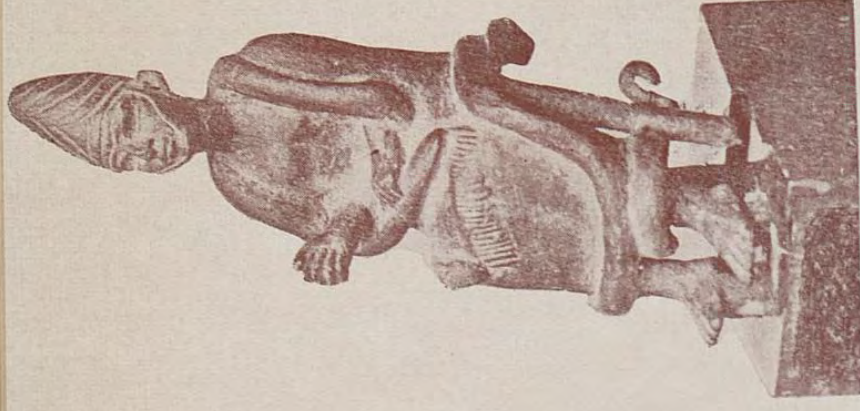
﴿شرائع التعامل التجاري﴾ تكاد طريقة الاستقراض التي كان يجري عليها الميتانيون تشابه طريقة التعامل المعروفة في أيامنا في كثير من الوجوه ولا سيما فيما يتعلق بتعيين موعد الدفع في عقود الاستقراض التي كانت تدون على لوحات من الآجر يختم في ذيلها المدين وتلي توقيعه توقيعات شهود الحال . بيد ان معدل الفائدة كان يتفاوت بحسب نوع البضاعة المشتراة . فإذا كانت هذه البضاعة من مواد البناء كاللبن مثلاً تبلغ الفائدة نحو ٥٠ بالمائة في حين ان شريعة حمورابي لا تحيز تقاضي الفائدة بمعدل يربى على ٢٠ بالمائة في قرض النقود و ٣٣ بالمائة على قيمة الحبوب . وإذا تعدد المدينون كان القانون الميتاني يسوِّغ للدائن استيفاء تمام دينه عند الاستحقاق من المدين الاقرب اليه باعتبار المدينين متكافلين متضامنين في وفاء ما عليهم . وقد عثر على عقد



غريب ينص على أن السرية المدينة اذا وضعت خلال مدة الدين يتختم عليها ان تتخلى عن مولودها الى الدائن أما اذا توفيت اثناء الوضع فلا يكون الدائن ملزماً بدفع ثمنها كما كان مسموحاً للدائن ان ينتفع بما هو مرهون لديه تأميناً على دينه سواء أفضت كان ام تحفة حتى ولو كانت الرهينة انساناً وكان مفروضاً في بعض العقود كفالة شخص ثالث وهذا مأخوذ عن القانون البابلي . وكان التأجير معروفاً عند البابليين وكثير الرواج فيما يتعلق بمعامل صنع اللبن والآلات الزراعية . أما العقوبات الواجب إنزالها بمن يتخلف عن الدفع فقد كان منصوفاً عليها في العقود نفسها وكانت تسري على المدين من طبعها حين تقصيره في القيام بالشروط الملحوظة وهي على الغالب نقدية ولكنها شديدة في معظم الاحوال لكيما تجعل للمدين رادعاً عما قد تسول له نفسه من التواني والتقصير . وقد نصت بعض العقود على عقوبة مؤلفة كاللحم على الفم وكسر الاسنان وما شابه ذلك من صفوف التعذيب التي كانوا يسومون المدين إياها عند اول بادرة تم على سوء نيته فيستفاد مما تقدم ان معظم الشرائع الميثانية كانت مستعارة من بابل كما ألعنا اليه آفاقاً انما كان بطراً عليها بعض التعديلات حسبما كانت تقتضيه أحوال البلاد وحاجاتها ولا مصرية في ان معلوماتنا هذه ستزداد مع الايام اضعافاً وتتسع حلقة بحثها عندما ندرك معاني تلك الكتابات العديدة التي اخرجها المنقبون من مكائنها الدفينة

﴿ الديانة ﴾ عندما درسنا ديانة الحثيين على ضوء نصوص لوحات بوغاز كوي تبينا ان معابدهم كانت تضم عدداً عديداً من الآلهة تجمعت لديهم بنتيجة فتوحهم لانهم كانوا يبقون على آلهة البلاد التي يستعمرونها وتقاليدها ويكرمونها خشية من سخطها وموالة لعبدتها حتى ضاقت هياكلهم عن استيعابها وأحييت عقائد ديانتهم بغموض لا مفر منه . وكذلك نرى الامر نفسه قد جمّع عند الميثانيين طائفة من الآلهة عندما ضموا تحت لواهم شتى العشائر التي كانت تقطن سوريا الشمالية وما بين النهرين . وقد أتاحت لنا الظروف ان نتعرف الى معظم هذه الآلهة التي وردت اسمائها في ذيل المعاهدة المصرية الميثانية التي وضعت تحت رعايتها . وبدل تعداد تلك الآلهة على مختلف العناصر التي تألفت منها المملكة الميثانية اذ كانت تعرف الشعوب قديماً من اسماء الآلهة التي تنسب اليها . وقد وجدنا في طليعة هذه الاسماء آلهة الميثانيين الاصلية اي الاله تحشوب ورفيقتة هيبا . ثم تليها آلهة البلاد المجاورة والمنضمة الى المملكة الميثانية او التي كان يسطو عليها نفوذها وتخللها اسماء بعض آلهة بلاد الهند وسومر وبابل التي استقت من عناصرها الحضارة الميثانية . وكذلك نجد اسماء آلهة جبال زاخو ونهري الدجلة والفرات والسماء والارض والريح والسحاب . ويجدر بنا ايضاً ان نلمع الى ورود ذكر اسماء آلهة عشائر حيري التي يذهب البعض الى انها آلهة اليهود أنفسهم الذين كانوا على عهد ازدهار تل العمارنة جماعة من المأجورين يحاربون تحت قيادة اي كان في سبيل الكسب والغزو . اما الاله تحشوب الكبير الذي كان





تمثال مشرفة البروتري، صغير الحجم، مصنوع من البرونز بـ ١٧٥  
السنتيمتر اكتشف بين تقاض مدينة قطة القديسة المروفة اليوم  
بقريّة المشرفة في ضواحي حمص ونقل إلى متحف « اللوفر »  
حيث صُنّف بين الآثار الميثانية



تمثال السفيرة، تمثال حجري صغير يبلغ علوه ٤٥ سنتيمترًا  
وهو مقطوع الرأس والرجلين يمثل شخصاً يدعى ( ادوني  
ايا بن انبيا) حفر عليه اسمه وقدمه هدية الى معبد الهه وهو  
يتمت الى الآثار الميثانية وقد اكتشف في قرية السفيرة التي  
تقع على مسافة ٢٥ كيلو مترًا شرقي حلب





تمثال كبرى المعبودات الميتانية من الحجر البركاني الأزرق بحجم (٧٤ر٢ × ٧٢ر٠ × ٥٠ر٠ مترًا) اكتشف في تل حلف ونقل إلى متحف حلب يمثل الهة واقفة عارية القدمين ممسكة بيدها اليسرى وعاء صغيراً كان يملأ عادة بالماء المطهر وأما يدها اليمنى فمبسطة على الصدر وفي رقبته عقد ذو ستة صفوف وعلى معصمها وكعبيها أساور وشعرها مسترسل على الظهر





تمثال معبودة ميتانية ، من مكتشفات البارون اوبنهايم في تل حلف تمثل معبودة ميتانية  
تمسك في يدها اليمنى كأس التقدم وهي تلبس رداء مزركشاً يغطي الجسم بتمامه ويكشف  
عن الساعدين وعن قدمين عاريتين حجمه ١٨٩ × ٨٦ × ٩٧ سمتراً من الحجر  
البركاني الازرق نقل الى متحف برلين بعد ان سكب عليه نسخة معروضة في متحف حلب





نقش ييسان — يمثل في القسم الاعلى منه أسدٌ وكلبٌ منتصبان أحدهما مقابل الآخر في  
 القسم الاسفل كلبٌ يعقر أسداً في ردفه وهو من الآثار الاشورية الميتانية. وقد اكتشف  
 في قرية ييسان من اعمال فلسطين



يدن به الحثيون أيضاً فقد كان اله العناصر الاربعة والصواعق والانواء والامطار والخصب ويشبه الاله حداد الغربي في كثير من الصفات وتمثله النقوش الميثانية رجالاً مرتدياً لباساً قصيراً مغطى الرأس بتاج او بنحوذة ماسكاً بيده البني فأساً وبيده اليسرى رمز الصاعقة المثلث الشعب (انظر رسمه في الصفحة ٥٢٧) من مقتطف ديسمبر ١٩٣٦) وزاء في اكثر مواقفه على ظهر ثور وفي بعضها واقفاً على ذرى الحبال. وهيا رفيقة تحشوب على شاكلة الالهة عشتار كان يتهل اليها لا كنثار النسل وخصب الارض وقد مثلت في النقوش الميثانية برداء طويل وعلى رأسها تاج. وهذان الالهان هما المثل الأعلى للديانات الوثنية القديمة وعبادتهما كانت اكثر كل العبادات شيوعاً في هذه البلاد منذ اقدم العهود

(الفن الميثاني) جدير بأن نطلق تسمية الفن الميثاني على الآثار المستخرجة مما بين النهرين ومن سائر الانحاء المجاورة والتي تمت الى العهد الذي طغى فيه العنصر الحوري الميثاني على هذه المناطق اي العهد الذي يمتد بعرفنا منذ القرن السادس عشر حتى الرابع عشر ق. م. وتأتي في مقدمة هذه الآثار مجموعة الاسطوانات واللوحات المكتشفة في كركوك والتي تعد من اغنى مجموعات الآثار الحورية الميثانية. وتعتبر صنفاً مهماً بين مختلف الصنوف التي تماثلها اذ تمتاز صناعة حفر هذه الاسطوانات بكثرة وجوه الشبه التي تقربها من صناعة الحفر السومرية تلك الصناعة التي تعتبر النواة الاولى لكل صناعات الحفر المعروفة ليومنا هذا في اسيا الصغرى. تدلنا على ذلك النقوش المتشابهة في الصناعتين والافراط في استعمالها عند الشعبين. ويلوح ان الميثانيين كانوا اخذوا من سائر معاصريهم في استعارة الفن السومري واكسابه طابعاً خاصاً بهم لانهم كانوا بطبيعتهم الاسيوية اقرب من البابليين وسائر الشعوب السامية الاصل الى فهم خاصة الفن السومري وليد حضارة قريبة من الحضارات الاسيوية. ويبدو ايضاً على بعض الآثار الميثانية انها كانت متأثرة في بعض الاحوال بالطابع المصري وفي بعضها بطابع الايجي وادلتنا على تأثرها بالطابع المصري كثيرة نخص منها بالذكر استعمال قرص الشمس المجنح في بعض النقوش الميثانية. ذاك الرمز الذي يعد بلا جدال ظاهرة مصرية بحتة (راجع الصورة أمام ص ٤٥ من مقتطف يونيو الماضي) كما ان تأثرها بطابع الايجي بارز جلياً في نقش الشجرة المقدسة التي احتقرها الميثانيون على آثارهم بشكل نخلة مهدلة الاغصان كثيرة الزخرف بحرسها إلهان وفي بعض الاحيان اسدان على نحو ما هي عليه في نقوش الايجي. اما سائر الرموز فتكاد تكون كلها مشتقة من اصل سومري كالضفائر التي تغشي معظم اسطوانات كركوك ومشاهد انتصارات البطل جيلجاش في مصارعة الثيران والاسود التي يوشك ألا يخلو منها اثر ميثاني. وقد يحسن بنا ان نلمح في هذا الصدد الى بعض الآثار الكبرى التي تغلب عليها السمة الميثانية

(اله الخصب) نجد اكثر هذه النقوش بروزاً وأوثقها نسبة الى صنع الميثانيين نقشاً بارزاً اكتشف في اشور ونقل الى متحف برلين يمثل اله الخصب منحوتاً نحاً خشناً على الطراز القديم



بلحية طويلة وعينين مجوفتين كانت ترصعها بعض الحجارة ، يعلو رأسه تاج مزين برسوم حراشف السمك وكذلك القسم الاسفل من ثوبه نقشه رسوم مشابهة وترمز هذه الحراشف في فن ما بين النهرين الى الارض الحيلية فيكون اذاً هذا الاله من آلهة الجبال الا ان بروز جذعي شجرة من جسمه يحملان ثمرأ يشبه الصنوبر واتصاف وعلين عند قدميه يقطان ذلك الثمر بحملات على الاعتقاد بانه اله الخصب الذي جاء في الاساطير القديمة انه كان يغذي بنفسه الاوعال التي تحرس الشجرة المقدسة كما ان وجود الهتين صغيرتين بجانبه حاملتين الى صدرهما وعائين تندفق منها المياه مما يزيد الرمز جلاءً ويثبت اشتقاقه من الفن السومري القديم

﴿ رأس الجبول ﴾ يأتي بعد ذلك الرأس الحجري المكتشف في ملاحاة الجبول الواقعة على مسافة أربعين كيلو متراً شرقي حلب والمنقول الى متحف اللوفر وهو رأس يزيد عن الحجم الطبيعي قليلاً من الحجر البركاني الازرق وقد نحت نحتاً خشناً مماثل نقش الاله الخصب الآف الذكر . بيد ان هذا الرأس تكاد تنبض فيه عروق الحياة اكثر من كل أثر آخر . له جبين ضيق تكلمة قبعة مخروطية الشكل ذات خطوط طولية متقابلة كأنها قرون ترمز الى الالهة . أما العنان فيلوح ان تجويفي خدقتهما كأنهما رصعين ببعض الحجارة ويعلوها حاجبان كبيران في وسطهما أف أفطس يحيط به وجه ضعيف التركيب خددته غضون تمتد من المنخرين الى خد الشفتين كما ان الذقن كثيرة الاخاديد . وخلاصة القول ان هذا الرأس تحفة نادرة المثال بين سائر الآثار الميثانية المعروفة ليومنا هذا (صورته بمقتطف يونيو الماضي صفحة ٤٤)

﴿ تمثال مشرفة البرونزي ﴾ واعي به تمثالاً صغيراً مصنوعاً من البرونز عثر عليه في الحفران التي أجراها الكونت دي بويسون منذ عشر سنوات في تل المشرفة بالقرب من حصص حيث اكتشف انقاض مدينة قطنة القديمة . وقد صنع هذا التمثال البرونزي على نمط رأس الجبول . أما سائر أعضاء جسمه فلا تدل منها غير قبضتين مطبقتين وقدمين حافيتين لانه جالس على عرش وملتحف برداء طويل موشى بالقرى على مثال أصنام سوريا العليا في ذلك العهد وكذلك اكتشف في حفريات مشرفة نفسها رأس حجري ذو لحية قصيرة بعينين مجوفتين تعلوها قبعة منحوتة نحتاً كثير التواء وعليه مسحة من الصناعة القديمة

﴿ أسد الشيخ سعد ﴾ عثر في قرية الشيخ سعد بالقرب من دمشق على تمثال أسد ضخم الحجم من الحجر البركاني حفظ مؤقتاً في المعهد الفرنسي للفن الاسلامي في دمشق وهو من الى الآثار الميثانية بشبه شديد لا سيما في هذه الخاصة القوية التي تكسبه هيئة تحال معها كان الحياة نابضة بين جنبه

﴿ تمثال السفيرة ﴾ اكتشف في قرية السفيرة التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقي حلب تمثال حجري صغير مقطوع الرأس والرجلين يبلغ علوه ٤٥ سنتيمتراً يدخل في عداد الآثار



الميتانية يمثل شخصاً لا لباً رداءً لاصقاً بجسمه يشده الى وسطه نطاق عريض وضع في طياته غمد خنجر مزخرف وقد أمسك بكلتا يديه كأساً مقربة من صدره وتعلمنا الكتابة الاشورية القديمة المنقوشة عليه ان صاحب هذا التمثال يدعى أدوني أيبا بن انبيا وقد قدم تمثاله هدية الى معبد آلهة تسمى هذه المجموعة القليلة عن الميزة التي اختصت بها الآثار الميتانية ألا وهي متانة التعبير وروعة الصنع وهي تصلح لان تكون خير مقدمة لكثير من الآثار التي ينتظر ان تسفر عنها الحفريات المقبلة في العاصمة واشوكاني وفي سائر نواحيها كما انها تعد حلقة وثيقة الاتصال بين الآثار السومرية التي استمدت منها أصولها وبين سائر الآثار التي نحتت على مثالها وابتات تحت تأثيرها مثل بعض الآثار الحثية التي يغلب عليها تأثير الفن الميتاني على شاكلة الحجر البارز النقش المكتشف في قلعة حلب سنة ١٩٣٠ وعليه معبودان مجنحان رفعان على قبضتهما قرص الشمس داخل هلال وقد نشر رسمه في مقتطف شهر فبراير ١٩٣٧ وبعض الآثار الاشورية الميتانية مثل نقش بيسان الذي صور في القسم الاعلى منه أسد وكلب منتصبان احدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلب يعقر اسداً في ردفه مما يجعلنا ان نلحس فيه امتزاج الفنين الاشوري والميتاني خصوصاً في نحت عضلات الاسد وحركة وثوب الكلب. ويجدر بنا قبل اختتام هذا الموضوع ان نأتي ايضاً على ذكر مجموعة الآثار التي اكتشفها البارون اوبنهايم في تل حلف على مقربة من نهر الخابور وبجانب رأس العين تلك الآثار التي حيرت العلماء في تعيين عهدها ثم كادوا يجمعون على عقيدة الاستاذ جودس الذي يرى انها تمت الى الميثانيين بأوثق الاسباب بالرغم مما يبدو عليها من تأثير الطابع الاشوري وقد حدام ذلك الى الاعتقاد بأن هذه الآثار صنعت في اواخر عهد الميثانيين عندما بدأ ينجو نفوذهم تحت سطوة الاشوريين وتفوقهم فجاءت تحمل على وجهها مسحة اشورية كادت تخفي وراءها اصلها الميتاني. اما الكتابة الارامية المحفورة على هذه الاصنام والتي اشكل على العلماء في بادى الامر تفسيرها فقد اتضح انها ترجع الى عهد ملك ارامي يدعى كابارا كان اقام على هذا التل المهجور منذ نحو الف سنة وعثر بين انقاضه القديمة على كمية كبيرة من الآثار المذكورة فأعاد استعمالها واحتفر عليها الكتابات المذكورة باسمه

نقف اليوم عند هذا الحد من دراسة الحضارة الميتانية على أمل ان نعود اليها بعد حين عندما نواصلنا الاكتشافات الجديدة بمعلومات اوفر من شأنها ان تساعدنا على الوقوف على كثير من الامور التي ما برحت متوارية عنا في جوف الثرى. ولعلنا لا نكون على ضلال اذا عقدنا كبير الامل على النتائج الخطيرة التي قد يؤدي اليها اجراء حفريات واسعة النطاق في واشوكاني المعروفة اليوم برأس العين تلك العاصمة الميتانية التي لم يقيض لها بعد من ينشئ اطلالها الدارسة ويخرج كنوزها للنور فعسى ان يوفق في القريب من يكشف لنا القناع عن عظمة تلك الحضارة العريقة في القدم ويشق امامنا طريق الوصول الى كنهه الحقائق



## قبل ان تسكت الحياة...

شاعر أصيب في حادثة كتب الله له السلامة منها. وهو لم يزل بعد في ميعة الصبا وعنفوان الشباب. فتعفى لو انها كانت القاضية على حياته. فراراً من انقار الحياة، وأعباء الدنيا.... فكتبنا اليه هذه الايات [عبد الغني]

عمرٌ مدد لك الله مداً كيف لم تلق بالسلامة حمداً ؟  
 كيف تلقى السلامة اليوم نحسا ويراها الورى نعيماً وسعدا ؟  
 كيف تقضي وما تهدمت ركننا كيف تطوى وما تثلت حدّاً ؟ ؟  
 كيف تمضي ودين مصر علينا لم يسدّد وحققها لم يؤدّي ؟ ؟  
 عجباً شاعر تغفّى على الأيـك ويرجو عن ذلك الايك بعدا  
 عجباً شاعر تأبّى على القيـد ويرجو في وحشة القبر قيداً ؟  
 لم يكد يستريح للمهد حتى رام في التربة السحيقة لحداً ؟  
 غنّ يا صاحبي على الروض واطرب قبل أن تصبح الحائل جُرّداً...  
 غنّ يا صاحبي على النهر واشرب قبل أن تبخر المياه فتصدى  
 غنّ يا صاحبي كما شئت والعب قبل أن تُملأ المقابر جدّاً !!  
 غنّ يا صاحبي على العود واضحك قبل ان تسكت الحياة وتهدا....  
 غنّ في هذه الحرارة يوماً قبل ان تملأ الحديقة برداً !!  
 غنّ والورد في الحميلة غضّ قبل أن يذبل الشناه الورددا....  
 كنت يا صاحبي كما أنت ... أبكي فرأيت الحفاظ بالدمع أجدى ...  
 كنت لا استسبح عيشي...ولكن لم أجد يا أخي من العيش بدا...!!  
 كيف تقضي وما تخطيت عمراً كيف تمضي وما بلغت الأشدّ ؟  
 واذا عفت في الحياة مقاماً فلن ذلك المقام أعدّاً ؟ ؟ ؟

محمد عبد الغني حسن

المنصورة

تضو بمئة سابق



# الاسلام

والرفق بالحيوان

للمشيخ احمد مصطفى المراغى  
استاذ الشريعة الاسلامية بدار العلوم

يرى الناس صنوفاً من اعمال البر والاحسان مسماة بأسماء غير ما عهدوها ولها نظم دون ما ألفوها فيخيل اليهم ان هذه من مبتكرات العصر الحديث عصر المدنية والنور وان مؤسسها قوم أشربت قلوبهم بروح الفضيلة وتسامت نفوسهم عن ارتكاب الرذيلة لما لأعمالهم من جليل الخطر وعظيم الاثر مما يشاهد عياناً فهي تقيم كل يوم للناس برهاناً وتظهر لهم حسناً واحساناً في تخفيف ويلات الناس من مختلف الشعوب والطوائف مما لا يخص قبلاً دون قبيل ولا فئة دون فئة اخرى بل ترى آثارها تعدت الانسان الى الحيوان بطلب الرفق به والشفقة عليه ووقايتيه من العلل والادواء وتخفيف آلامه ولاجل هذا أسست (جمعيات الرفق بالحيوان) في انحاء المعمورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وهي تسير في اعمالها قدماً وتتلقى معونة من بني الانسان في كل بقاع العالم . وكان الفاتنين بمنزل هذا القول يؤمنون بان الشرائع السماوية قصرت في طلب الرفق بالحيوان ولم تطلبها من الاحاد او الجماعات او كان العقول البشرية كشفت انواعاً من اعمال البر والاحسان لم تنبه اليها الشرائع السماوية ، كبرت كلمة تخرج من افواههم — فكانوا الشريعة الاسلامية ملائى بالحض على الشفقة بالحيوان ومواساته بكل ما يكفل له حياة هنيئة ويحلب له خيراً ونفعاً ويخفف عنه المأى ويدفع عنه ضرراً والوعيد بالويل والثبور لمن لا يعيد المساعدة لذلك الحيوان الاعجم . وسيأتي لك بعد من الادلة والبرهانات ما تطمئن اليه نفسك وتعلم ان الشريعة لم تفرط في شيء وان كل ما يخطر ببالك من المعاني السامية والاخلاق الفاضلة التي ترفع النفوس الى مستوى العزة والجلال وتسمو بها الى مراتب الكمال وبها يتاح العطف والمحبة للناس جميعاً وينطبق عليها قوله علي لابنه الحسن « يا بني أحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها » فهو مسطور في أسفار الشريعة بأجلى بيان بل أعطت دستوراً للشفقة بالحيوان لما



له من شعور واحساس بالآلام والويلات فأوجبت الحذب عليه والشفقة به . وها نحن أولاء  
نفتح لك أبواب تلك الكنوز لتري جواهرها ولا لئلا المكنونة وتعلم انها آتت بما ليس وراءه  
زيادة لمستزيد وان كل الصيد في جوف الفرا<sup>(١)</sup> وان المسلمين هم المقصرون في عرض تلك  
الجواهر على النظارة<sup>(٢)</sup> وانهم ان فعلوا ذلك بهرهم سناها وراقهم زبرجها<sup>(٣)</sup> وزخرفها وعلوها  
ان تلك التحف الثمينة لم يحسن أهلها استعمالها فتراكت عليها الاصداء فحجبت جمالها عن أعين  
الناظرين حتى أصبحت في حاجة الى من يعيد اليها رواءها<sup>(٤)</sup> ويعيدها سيرتها الاولى . وبرز  
محاسنها ويعرضها على الجماهير وهي تلبس أثوابها القشب<sup>(٥)</sup> وتختال في معارضها<sup>(٦)</sup> من أبواب  
المذاهب والنحل المختلفة في الشرق والغرب وعندئذ تظهر تلك السجاجة<sup>(٧)</sup> في التشريع وبلم  
الناس مقدار ما لا حظنه الشريعة الاسلامية من الشفقة والرحمة بالحيوان بله<sup>(٨)</sup> الانسان

روى البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله (صلم) قال بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش  
فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فاذا هو بكلب يلهث ويأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا  
مثل الذي بلغ بي فملا خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول  
الله وإن لنا في البهائم أجراً قال في كل كبد رطبة أجر<sup>(٩)</sup> وجاء هذا المعنى في رواية أخرى  
لمحمد بن اسحاق عن الزهري بسنده المتصل الى سراقه بن مالك قال — سألت عن الضالة من  
الابل تغشى حياضها قد لظنها الابل فهل لي من أجر ان سقيتها فقال نعم في كل ذات كبد حرى  
أجر<sup>(١٠)</sup> كما جاء الحديث الاول بأسلوب آخر عن أبي هريرة ان النبي صلم قال ان رجلاً رأى  
كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعل يفرق له به حتى أرواه فشكر الله له حتى  
أدخله الجنة . وهأنذا ترى ان هذا الحديث يكاد يسيل شفقة بالحيوان انساناً كان او غيره لما  
فيه من الجزاء العظيم على من أحسن اليه فإنه (صلم) اخبر بشكر ان الله تعالى لفاعلي الاحسان اليه  
وثنائه على من أسدى اليه خيراً ووعد بالجنة كفاء شفقته ورحمته . وبالضد من هذا ورد الوعد  
الشديد لمن قسا قلبه وغلظ كبده ولم يشفق بالحيوان . فقد روى البخاري عن ابن عمر رضي الله  
عنهما ان رسول الله (صلم) قال — عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت  
فيها النار قال . . فقال (والله أعلم) لا هي اطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا هي أرسلها

(١) مثل يضرب لمن يفضل على اقرانه والفرا الحمار الوحشي وجمعه افراء (٢) المتفرجين (٣) الزينة  
(٤) بهجتها (٥) الجديدة (٦) جمع معرض كمنبذ ثوب تلبسه العروس ليلة الزفاف (٧) السهولة في  
التشريع (٨) دع وارك (٩) الثرى التراب الندي ولهت الكلب أخرج لسانه من العطش والحر والهبان  
العطش ورقى كصلد وشكر الله له اي قبل عمله . وقول وان لنا في البهائم أجراً اي في سقيها او الاحسان  
اليها . ورطبة اي برطوبة الحياة (١٠) الضالة هي التي تترك عطفها وتذهب الى جهة أخرى . ولط الحوض  
بدره بقاء بالحجارة حتى لا يجف ماؤه



فأكلت من خشاش الارض <sup>(١١)</sup> . . اخبر عليه السلام بوحي من ربه بحلول العقوبة بأمرأة عذبت قطعتها فحبستها الى ان ماتت جوعاً وعطشاً ولم تطعمها من فضلات طعامها او تتركها حتى تطعم من فضل ربه فدخلت بسبب ذلك النار وما اشدها عظة وابلغها نكالاً لمن لا يرعوي وزدجر من الدهماء <sup>(١٢)</sup>

والسوقة الذين يحملون الحيوان مالا يطيق او ينهالون عليه ضرباً وكدماً <sup>(١٣)</sup> ولكم لغير سبب ففهمه الحيوان حتى يتقي امثاله فما هي الا الغلظة والفضاظة التي لا تجد لها ما يبررها لدى العقلاء ومثل هذا ما تراه من تركهم الحيوان يسيل من جرحه الدم او يتقيح <sup>(١٤)</sup> وهو يألم مما به ثم هو لا يجد له رحماً منهم بل هم يسومونه سوء العذاب فيحملونه ثقيلاً الاحمال فوق جرحه النافر او يحملونه يدور بالساقية او الطاحونة او نحوها من الاعمال الشاقة التي تصعب على السليم فضلاً عن المريض وقد حكى الغزالي في كتابه (احياء العلوم) ان النبي (صلم) كان له ديك فرض فكان يقوم بتمريضه بيده الشريفة ويعني بشأنه. وحكي ايضاً انه (صلم) اكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ الثوى في يساره فررت به شاة فأشار لها بالثوى فجعلت تأكل من كفته اليسرى وهو يأكل يمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة. وروى الدارقطني والحاكم وأبو نعيم من حديث عائشة ان النبي (صلم) كان يصفي <sup>(١٥)</sup> الى الهرة الاناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلهما <sup>(١٦)</sup>. وقالت عائشة رضي الله عنها ما ضرب رسول الله (صلم) شيئاً قط آدمياً او غيره ضرباً مؤذياً الا ان يجاهد في سبيل الله فيضرب . فقد قتل في وقعة أحد ابني خلف وما قتل بيده أحداً سواه وما ضرب خادماً ولا امرأة وما أجل تلك الاسوة لاتباعه المؤمنين الذين يهتدون بهديه ويقفون به في عمل . وان تعجب فموجب ان ترى الشريعة طلبت الينا الرأفة بالحيوان عند ذبحه كما طلبتها له حال حياته فأمرت بذبحه محدد غير مألوم ليكون الذبح سريعاً والشعور بالألم في مدى قصير فقال عليه السلام : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وبنيت السنة طريق الذبح الشرعية حتى تقوم بأدائها على أكل وجه فقال عليه السلام : ما أنهر <sup>(١٧)</sup> الدم وذكر اسم الله فكل ليس السن والظفر وسأخبركم عنه . اما السن فعضم وأما الظفر فدى الحبشة . فأبان (صلم) ان كل آلة تسيل الدم يصح بها الذبح قصباً <sup>(١٨)</sup> كانت او مرده <sup>(١٩)</sup> او حديداً ما خلا السن والظفر . والحكمة في ذلك واضحة فان السن تخرج ولا تقطع فترقى الروح ببطء من غير ان تستيقن من الزكاة الشرعية التي لا تكون الا بقطع الخلقوم <sup>(٢٠)</sup>

(١١) في هرة بسبب هرة وخشاش الارض حشراتهما (١٢) العامة (١٣) الضرب على الوجه مع بسط الكف ومع قبضها لكم (١٤) تقيح الجرح صارت فيه مدة او سال فيحه (١٥) يميل (١٦) بما في بعد شربها (١٧) أسال (١٨) كل نبات أعوج الساق (١٩) حجر أبيض كالسكين (٢٠) مجرى النفس



والمرىء (٢١) والودجين (٢٢) كذلك الظفر يدمي فترهق الروح خنقاً وتعذبها : وندب احدات الشفرة قبل اجتماع الذبيح كما كره تعذيب الحيوان بلا داع اليه لقطع الرأس والساخ قبل ان يسكن اضطرابه . ومن اجل هذا حرم اكل الاصناف الالية لما فيها من الضرر بآكلها والغلبة والقسوة بالحيوان او اشراك المسلم غير ربه في افعاله وتعظيم سواء في اعماله وقد ارشدت الى ذلك الآية السكرية « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل (٢٣) لغير الله به والمنخنقة (٢٤) والموقوذة (٢٥) والمتردية (٢٦) والنطيحة (٢٧) وما اكل السبع (٢٨) الا ما ذكيت (٢٩) وما ذبح على النصب (٣٠) وان تستقسموا بالازلام (٣١) ذلكم فسق (٣٢) » . وقد راعى الشارع الحكيم في تحريم ما ذكر المصالح والحكم التي تترتب على تركها والاضرار التي تتولد من فعلها وان السر في كل منها لحلي واضح . اما الميتة فالضرر في اكلها يؤيده الطب وترشد اليه التجربة فان الحيوان المريض اذا مات يكون مليئاً بالجراثيم والادواء التي كانت السبب في هلاكه فاذا اكل منه الانسان أصيب بأمراض قتالة . وكثيراً ما رأينا وسمعنا عن حوادث في الريف والقرى ذبح فيها ناس حيواناً مريضاً واكلوه فمرضوا وماتوا من ادوائهم او اسعفوا بالعلاج حتى شفوا بعد امد طويل . ولهذا السبب عينه حرم الدم المسفوح شرباً واكلاً من قبل . ان كثيراً من الحيوان حتى الصحيح منه قد يكون في دمه بعض جراثيم قتالة ولائس ما طلب الينا الطب الا نشرب اللبن الا بعد غليه خوفاً من وجود جراثيم ضارة في الحيوان الذي حلب لبنه . وانا لنجترى بهذا وندع القول لحضرات الاطباء ليقولوا كلنهم ويدلوا برأيهم الشافي في تلك المسألة الطيبة . كذلك يقول الطب ان في الخنازير ديداناً وجراثيم لا تموت بالغلي المعتاد بل تبقى حية بعد ذلك . ومن المعروف ان العرب وغيرهم من سكان البلاد الحارة يأكلون اللحم شيئاً على النار أو على الرصف (٣٣) تحت اشعة الشمس وبهذه الوسيلة الهينة في الانضاج لا تقتل الجراثيم وكذلك المنخنقة تبقى دماً فيها متجمدة في عروقها وكثيراً ما تكون ملأى بالجراثيم والأمراض ومثلها الموقوذة فان دماءها تبقى مكتنزة في عروقها وربما كانت حافلة بشتى الجراثيم وأصناف الادواء وكذلك المتردية والنطيحة فكل اوائك تبقى دماً فيها ولا تخرج من اجسادها وقد عرفت ما في ذلك من اخطار وكذلك ما اكل منه السبع والمراد به الحيوان الضاري كالذئب والضبع والثعلب ونحوها اذ ربما تكون مصابة ببعض الامراض فالأكل من فضلاتها يؤدي ويولد في الجسم امراضاً من

(٢١) مجرى الطعام (٢٢) مجرى الدم (٢٣) رفع الصوت لغير الله (٢٤) التي تموت بالخنق (٢٥) ما ضربت بخشخشة او بجحر (٢٦) التي زردت من علو (٢٧) التي نطختها أخرى فان (٢٨) الحيوان الضاري (٢٩) ذئب (٣٠) حجارة عند السكبة معدة للذبيح عليها والشرع (٣١) جمع زلم وهو القدح والاستفهام بها طلب معرفة ما لهم قسم بوساطتها (٣٢) خروج عن حدود الدين وقواعده (٣٣) الحجارة المحماة



جنس ما في ذلك السبع الا كل الا اذا ادركنا الحيوان المأكول وفيه بقية من الحياة بها يضطرب عند الذبح ويخرج منه بعض الدم وعندئذ تخف اضراره بقدر المستطاع . اما اذا ذبح على النصب ففي ذبحه على تلك الشاكلة اشراك من المسلم لغير ربه في اعماله وفيه كفران بنعمة الله وتعظيم للأصنام والاولئان ورجوع الى الجاهلية وكذلك ما استقسم بالآلام فقد كان من عادتهم انهم اذا قصدوا عملاً كغزو او سفر او تجارة او أمر من عظام الامور ضربوا بثلاثة أقداح مكتوب على احدها أمرني ربي . ومكتوب على الثاني نهاني ربي . والثالث غفل <sup>(٣٤)</sup> فان خرج الآمر مضوا في أعمالهم وان خرج الناهي اجتنبوا العمل وان خرج الغفل أجالوها <sup>(٣٥)</sup> مرة أخرى . وفي هذا فسق وخروج على الدين ودخول في معرفة علم الغيب وافتراء على الله بقولهم أمرني ونهاني او اشراك بالله ان أريد بالآمر الصنم

فقد اتضح لك مما سلف ان بعضاً من تلك المحرمات اما حرم خوف الضرر وبعضاً حرم لما فيه من الشرك بالله والرجوع الى زعات الجاهلية والوثنية . وقصار القول ان محمد بن عبد الله وضع منذ ثيف وثلاثة عشر قرناً قوانين للرفق بالحيوان وألف موادها كحدث القوانين لتلك الجماعات واذا نحن استخلصنا ذلك من بطون الشريعة ونصوصها يمكن ان نضعها كما يلي : —

١ — تؤسس الشريعة الاسلامية قانوناً للرفق بالحيوان للمسلمين كافة أسودهم وأحمرهم على اختلاف اقليمهم وبلدانهم

٢ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان ويساعده في مطعمه ومشربه في صحته ومرضه فلا يحمله فوق طاقته ولا يضربه ضرباً مبرحاً ويداويه اذا مرض بجميع وسائل العلاج حتى يبرأ

٣ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان عند ذبحه فيذبحه بسلاح ماض بتار حتى ترهق روحه بسرعة ولا يطول تعذيبه

٤ — من رفق بالحيوان حياً كان او ميتاً كان له الاجر الجزيل على عمله والثواب العظيم عند ربه فيدخله فردوس جنانه

٥ — من آذى حيواناً بضربه ضرباً مبرحاً او حمله ما لا يطيق او حبس عنه الطعام كان عقابه عند ربه ناراً سعيراً وعذاباً ألماً

٦ — على كل مسلم حراسة هذا القانون وتنفيذه في خاصة نفسه ونصيحة غيره من المسلمين بتنفيذه وله عند ربه كفاء ذلك أجر المسلم العامل وهو رضوان ربه ورضوان من الله اكبر وذلك هو الفوز العظيم



# كتابان من مصر

يرجع تاريخهما الى القرون الوسطى

مخطوطتان ثمينتان

احداها في استنبول والاخرى في رومة

من ذا الذي كان يخطر بباله أن الامام الغزالي حجة الاسلام والفيلسوف الشهير الذي توفي سنة ١١١١ ميلادية (٥٠٥ هجرية) ، سيلقي نوراً أمام علماء النصرانية في القرن العشرين على تاريخ الترجمة العربية للكتاب المقدس !

على ان هذا هو الذي وقع فعلاً . ففي المكتبة التركية تحت قبة أيا صوفيا في استنبول ، يرى الناظر مقاليتين مخطوطتين احتوتا بعض آثار الامام العلامة الغزالي التي لم تنشر بعد : احداها بعنوان « الرد الجليل لاهليات عيسى بصريح الانجيل » . ومن الغريب حقاً أن يبقى هذا الأثر لعالم من اجل العلماء ، ثماني مائة سنة دون ان ينشر على الملأ ! على أننا قد علمنا مع السرور أن طبعة منه قد أعدت الآن للنشر في باريس في سلسلة نفيسة للدراسات العليا بجامعة السوربون . ومع شكرنا لجامعة السوربون هذه الخدمة الجليلة للادب العربي ، كنا نود ان يصدر هذا الكتاب عن القاهرة ، حيث كتبت هذه المخطوطة — المحفوظة الآن في استنبول — في سنة ١٢٧٣ ميلادية (٦٦٧ هجرية) . وذلك لان هذه المخطوطة لم تكتب في القاهرة فقط ، بل هي متصل اتصالاً وثيقاً بزيارة الامام لمدينة الاسكندرية ، كما ستري ، ومن هنا شأنها الخاص لدى العلماء المصريين ، من نصارى ومسلمين . ولقد رأى العلماء والباحثون ، في تاريخ الكتاب المقدس باللغة العربية ، انفسهم امام لغز يستوقف العناية حقاً . فان الامام الغزالي رضي الله عنه اقتبس في كتابه « احياء علوم الدين » اقوالاً كثيرة منسوبة الى عيسى بن مريم . وهذه قد جمعها ونشرها المستشرق الاندلسي العظيم « أسين بلشويس Asin Palacios » ، وقد ثبت أنها جميعاً ، ما عدا قولين منها ، ليست من الانجيل ، وهي شديدة النزعة التبعية التصوفية ، ولعلها مستفعاة من بعض النساك في بلدان الشرق الادنى . ولم يعثر العلماء حتى اليوم على الكتاب أو الكتب التي نقل عنها الامام هذه الاقوال ، ولكنه يبدو في جلاء ان الكتاب الذي نقل عنه لم يكن العهد الجديد . والآن نحيى الى منار الدهشة . فان السيد ماسينيون ، الاستاذ بكلية فرنسا « كوليج ديه فرانس » كان اول من وجهه الانظار الى ان مقالة الغزالي الخطية المحفوظة في استنبول حافلة



بمقتبسات مأخوذة عن الترجمة العربية للانجيل ، ولن يمكن ان يقتبسها الكتاب الا اذا كانت امامه نسخة من هذه الترجمة . فما مصدر هذه المعرفة الجديدة لاقوال السيد المسيح ؟ وكيف ومتى اطلع امامنا العلامة على الانجيل الكريم ؟ يذهب الاستاذ « ماسينيون » الى ان هذه المعرفة الجديدة قد تهبأت للامام العلامة في غضون زيارته للاسكندرية بعد اعتزاله في بيت المقدس حوالي سنة ١١٠١ م ( ٤٩٥ هجرية ) وما يؤيد هذا الرأي ان الغزالي اقتبس عبارة من الانجيل القبطي في اللمحة « البحرية » ومن المستبعد جداً ان يتبها له هذا في غير مصر

ورغبة في استقصاء هذا البحث الشائق كان من المتعين ان أتابع البحث والدرس في مقتبسات الغزالي المنقولة عن الانجيل لعلي أتبين الترجمة التي أخذت عنها . ذلك لان ترجمات الانجيل الى اللغة العربية جرت في بلدان شتى نقلاً عن النسخ اليونانية والسريانية والقبطية . وفي لغة خصية بالالفاظ كاللغة العربية ، كان طبيعياً ان تتفاوت هذه الترجمات في اللفظ ، وان اتفقت كلها في المعنى وقد أتاحت الفرصة لكتابة هذه السطور لدرس مخطوطة الغزالي المحفوظة في مكتبة استانبول ، رغبة في العثور على حل لهذا اللغز والوقوف على مصدر مقتبسات الانجيل فيها

توفي الامام الغزالي سنة ١١١١ م فلا بد ان يكون قد اقتبس عن ترجمة قبل هذا التاريخ . والمعلوم لدينا ان ترجمات الانجيل الاولى الى العربية قد نقلت عن اليونانية او السريانية ، فراحت الكتابة تقابل مقتبسات الغزالي بنادج من الترجمات الاولى المدخرة مخطوطاتها في مكاتب رومية وغيرها من الجامعات الاوربية المختلفة او في دير جبل سيناء . ولكن واحدة منها لم تتفق مع الفاظ الغزالي لافي الترجمات المنقولة عن اليونانية ولا في الترجمات المأخوذة عن السريانية افلا يكون الامام قد اقتبس عن ترجمة عربية منقولة عن اللغة القبطية ؟ ان في اثبات هذا الرأي لذة وفائدة ، وذلك لانه يبي لنا الدليل على ان الامام الغزالي صنف كتابه في مصر ، ثم بقي نوراً على تاريخ ترجمة الكتاب المقدس في هذه البلاد . وان استطعنا العثور على الترجمة العربية المنقولة عن القبطية ، التي تتفق في الفاظها مع مقتبسات الغزالي ( وهو اقتبس خمساً وستين آية من الانجيل وحده ) ، فبدى ان تكون هذه الترجمة قد تمت قبل سنة ١١١١ م وهي السنة التي توفي فيها الامام . نقول ان استطعنا هذا ، كان لنا بمنزلة فتح جديد في التاريخ . فان اقدم المخطوطات العربية المنقولة عن القبطية ، المعروفة لنا ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . ويكون فيلسوفنا المسلم قد أضاف الى تاريخ ترجمة الكتاب المقدس حقيقة تاريخية هامة . ومن محاسن الصدف ان أدت بنا خاتمة البحث والاستقصاء الى العثور على هذه المخطوطة القديمة واثبات هذا الرأي الذي نذهب اليه ، فقد عثرنا في مكتبة الفانيكان على مخطوطة من الانجيل الكريم بعامودين احدهما باللغة القبطية والاخر باللغة العربية وهذه المخطوطة هي الترجمة عينها التي اقتبس عنها الامام الغزالي اقواله اذن يكون الامام الغزالي قد استقى معرفته بأقوال الانجيل من اقباط مصر . والمخطوطة



التي تحتوي هذه الآيات هي النسخة القبطية العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان ، التي كتبت حوالي سنة ١٢٠٤ أو ١٢٠٥ ميلادية ، أي بعد انقضاء قرن من الزمن على التاريخ الذي اقتبس فيه الغزالي من هذه النسخة عنها . أفتكون هناك نسخة خطية أخرى مماثلة لها كتبت قبل هذا التاريخ ونقلت هذه عنها ؟ ان تاريخ المخطوطة الفاتيكانية التي نحن بصدددها يبيء لنا الجواب على ذلك لأنها تلمسح الى الخطر الذي كان يهدد نسخ الانجيل في تلك الايام العاصفة

وانك لترى في هذه المخطوطة حاشيتين كتبنا في تاريخ متأخر بعد كتابة نصوصها . الاولى كتبت في كنيسة أبي سيفين التي مازالت قائمة بمصر القديمة وفيها يسجل غبطة البطريك القبطي غبريال ان المخطوطة مهداة لتكون وقفاً على دير القديس انطونيوس ، في صحراء العرب . وبأمر غبطة البطريك الآباء والاخوة النازلين في الدير ان يذكروا الواهب في صلواتهم ( وقد كان طبيباً ، هو الشيخ والشماس ميخائيل ) . ثم ينهي البطريك بتأناً اخذ الكتاب من كنيسة الدير . فيقول « إنه ليس كسائر الكتب » التي يجوز حملها الى البرج او إخفاؤها ( ولعله يقصد بهذا الاغلاق عليها في « خزانه » ) بل يجب ان يكون دائماً في الكنيسة مع الكتب الاخرى المعدة للعبادة في أيام الاحاد والاعياد ، يقرأونه صباحاً ومساءً . فان أراد أحد الرهبان ان يأخذهُ بصفة مؤقتة الى خلوته للدرس او البحث ، فله ان يفعل ذلك على ان يعيده الى الكنيسة ويخيل لنا ان تلك المخطوطة كانت تعد ثمينة جداً ، وان الرهبان قد حرصوا عليها كل الحرص في كنيستهم وراء اسوار موطنهم الصحراوي ، الذي كان اشبه بقلعة ضد غارات اعراب البادية ولكن الحاشية الثانية تبين انه حتى في تلك القلعة لم يكن الكتاب الثمين بآمن . فان هذه الحاشية قد اضيفت على الكتاب الاصلي بعد قرنين ونصف من تاريخ الحاشية الاولى ( في سنة ١٥٠٦ م ) بيد البطريك القبطي في ذلك الزمن - واسمه الانبا يوحنا - ويسجل فيها حل قبول الوقف التي خصت الكتاب بكنيسة القديس انطونيوس ، وذلك لان الدير « كان قد خلا من ساكنيه » وكان أهل البادية قد نهبوه وحملوا بين اسلابهم مخطوطة الانجيل . ولكن اعيدت المخطوطة فيما بعد ، ولم يقل البطريك في مذكرته ان كانت المخطوطة قد اعيدت في غارة مضادة قام بها بعض الانصار على العرب ، ام ان الناهبين اعادوها من تلقاء انفسهم لعدم حاجتهم اليها كان هذا حظ المخطوطات القديمة في تعرضها للنهب والسلب . واننا لنشكر الله ان اتى لنا على مخطوطتين من مصر ، يرجع تاريخهما الى القرن الثالث عشر ، لإحداها محفوظة في استنبول مع مقالة للإمام الغزالي والاخرى محفوظة في رومية مع المخطوطة السابقة لها وانا لواجدون في تينك المخطوطتين الثمينتين شعاعاً من النور يسطع على البحث القديم الذي يجد علماء النصرانية والاسلام لاراحة الحجب عنه ، لما فيه من لذة وفائدة تاريخية « بنت الحارث »





# مدام كوري

Mme Curie. A Biography, by Eve Curie



مختصر الكتاب الذي ألفته

ايف كوري

كريمة صاحبة الترجمة

نقلته عن مجلة « ريدرز ديجست » : الانسة ميغرفا عبيد

« لو أضفت أقل زخرفة الى قصة والدتي هذه ، التي تشبه الاساطير أتم الشبه ، لكان ذلك اجراماً مني . هذا ما كتبتُه ايف كوري في مقدمة كتابها . ثم استطردت قائلة : « اني لم أذكر أي حادث لم أكن مستوثة منه ، بل لم أخترع من عندي ولا لون فستان . فقد ذكرت الوقائع على حقيقتها وأعدت العبارات المقتبسة كما قيلت »  
« وانني لارجو ان يشعر القاري بما كانت تكنسه ماري ، وهو يشأو عملها ، ألا وهو بناء خلقها المتين ، تلك الصفة النفسية التي لم يتمكن من تغيير طهارتها الفذة ، لا الصيت الذائع ولا المعارضة اللاذعة . تلك الصفة التي حملت اينشتين على القول : « ان ماري كوري هي الشخص الوحيد ، بين جميع المشهورين ، الذي لم تفسده شهرته »



# مدام كوري

بقلم ايڤ كوري

## قصة حياة فذة

في خريف سنة ١٨٩١ انتظمت فتاة من المهاجرين البولنديين تدعى ماري سكلودفسكا في قسم دراسات العلوم بجامعة السوربون بباريس . وكثيراً ما قابل الشبان هذه الفتاة الحية العنود المرتدية ملابس تدل على الفقر والحشونة وتساءلوا فيما بينهم « من هي » . الا ان الجواب كان غامضاً : « هي أجنبية يصعب نطق اسمها ، تجلس دائماً في الصف الامامي في فصول علم الطبيعة » . وكانوا يتبعون قوامها الرشيق بنظراتهم ، ويتهايمسون « ما أجمل شعرها ! » . وقد ظل شعرها الاشقر ورأسها الصغير السلافي مدة طويلة كل ما يعرف به طلبة السوربون ، زميلتهم الخجول اما هي فكان اقل ما يسترعي التفاتها هؤلاء الشبان لان دراساتها العلمية استحوذت عليها فكانت تنكب على العمل بجرارة كحرارة المحموم ، حاسبة كل دقيقة لا تنفقها على التحصيل وقتاً ضائعاً ولما لم يسمح لها حياؤها المتناهي بصداقة الفرنسيين لجأت الى الحي الذي سكنه مواطنوها وقد كان بذاته جزيرة بولندية مستقلة في وسط الحي اللاتيني بباريس وهناك عاشت عيشة بسيطة منعزلة جعلتها وفقاً على العمل . اما دخلها فكان عبارة عن اربعين « روبلاً » شهرياً وكان يشمل ما اقتصدته من عملها كمرية في بولندا وكذلك المبالغ اليسيرة التي ارسلها اليها والدها ، وكان معلم رياضة وطبيعة في بولندية . فمن هذا الراتب ، وهو ثلاثة فرنكات يومياً ، كانت توفي اجرة غرفتها وثمان اكها ولبسها ونفقاتها بالجامعة

لم تشترك ماري عمداً في اي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية خارج برناجها الدراسي حتى امتنعت عن مقابلة الاصدقاء . فعاشت عيشة تقشف سبارطية غريبة عن ميول البشر ، وصلت بها الى عدم الاعتراف بتأثرها بالبرد او الجوع . فكانت تهمل اشغال موقدها حتى لا تضطر الى شراء فحم كما كانت تكتب الارقام والمعادلات دون ان تلاحظ ان اصابعها متجمدة او ان كنفها يرتعشان . بل لقد كانت الاسابيع تنقضي دون ان تأكل شيئاً غير الخبز والزبدة والشاي ، فاذا ما ارادت ان تنعم بولبة اشترت يعضتين او قطعة من الشوكولاته او قليلاً من الفاكهة



ولكن سرعان ما اصبحت تلك الفتاة القوية التي تركت وارسو قبل اشهر قليلة بالانيميا ، فكثيراً ما كانت تشعر بالدوار حال قيامها من جانب طاولتها ثم لا تلبث ان تفقد وعيها قبل وصولها الى فراشها . فاذا ما استعادت رشدها وساءلت نفسها عما اصابها ظننت انها مريضة فاحتقرت مرضها شأن كل شيء يعترض عملها . الا انه لم يخطر ببالها حينئذ ان مرضها الوحيد هو افتقارها الى التغذية

### بيير كوري

كانت ماري قد حذفت الحب والزواج من برنامج حياتها فاذا استولى عليها حبها للعلم بقيت منسكة تمسكاً شديداً باستقلالها حتى بلغت السادسة والعشرين ثم ظهر في الميدان بيير كوري ، وهو عالم فرنسي نابغة وقف روحه وحياته على البحوث العلمية وبقي غير متزوج الى سن الخامسة والثلاثين . كان طويل القامة ، ذا يدين طويلتين عصيتي الاصابع ، ولحية كثة ، ووجه يعبر عن الذكاء النادر الممتاز تقابلا اولاً عام ١٨٩٤ في المعمل وسرعان ما قرّب بينهما تبادل الشعور وتشابه الميول . فلقد وجد بيير كوري في الآنسة سكلودفسكا الصموت شخصية تبعث على الدهشة . ما اغرب الحديث الى فتاة ساحرة بلغة الاصطلاحات العلمية والتراكيب المعقدة ... بل وما احلاه ! تأمل بيير في شعر ماري الاشقر وجبينها العريض المقوس ويديها المتأثرتين بأحماض المعمل فغيره ظرفها الخالي من اي ادعاء . فحاول بلطف وحزم ان يفوز بصداقة تلك الفتاة . وطلب اليها السماح له بزيارتها . فاستقبلته في غرفتها بود ولكن بكل تحفظ . فانقبض قلب بيير مما رآه حوله من دلائل الفقر المدقع ولكنه قدر في الوقت نفسه الانسجام التام بين خلقها ومسكنها . ففي غرفتها الخالية من الاثاث تقريباً وفي ملابسها المتساهة في البساطة وملامحها الغيورة العنيدة ، ظهرت ماري اجمل منها في اي وقت آخر . فلم يخلفه فقط اخلاصها المتناهي لعملها بل وأيضاً شجاعتها ونبلها . فهذه الفتاة الرقيقة تحلت بأخلاق الرجل العظيم ومواهبه . وبعد اشهر قليلة طلب بيير كوري يد ماري ، فلم تقبل هذه الفتاة العنيدة فكرة الزواج الا بعد مضي عشرة اشهر لانها رأت ان الزواج من فرنسي وترك بلادها المحبوبة المظلومة خيانة شائنة

\*\*\*

قضى بيير وماري الايام الاولى من حياتهما معاً في التجول في منطقة «ايل دي فرانس» على جبلتين اشترهما بنقود قدمت اليهما هدية عند زواجهما . فتغذيا بالخبز والجبن والفاكهة واستراحا في فنادق لا يعرفانها ، صادفتها في الطريق . وهكذا نهما بالوحدة اياماً وليالي طويلة لم ينفقا اثناءها الا الطاقة التي تقضيها العجلمان قليلاً من الفرنكات بالفنادق القروية . اما



الشقة الصغيرة التي استوطناها أخيراً بشارع جلاسير رقم ٢٤ فكانت مفتقرة الى جميع وسائل الراحة ، كما انهما رفضا قبول الاثاث الذي قدمه اليهما والد بيير لانه لم يكن لماري متسع من الوقت لتنظيفه . فلم تظم تلك الجدران العارية الاً بعض الكتب ومقعدين وطاولة من الخشب الايض عليها رسائل في علم الطبيعة ومصباح بضاء بالغاز وباقة من الازهار . فلم يكن هناك بد لاجسر زائر من ان ينسحب عند ما يرى نفسه امام مقعدين لم يعد احدهما له

الا ان ماري تقدمت تدريجياً في علم تدبير المنزل فاستنبطت بعض المأكولات التي لا تحتاج الى إعداد يذكر او التي يمكن تركها على النار مدة دون مراقبة حتى تنضج . فقبل خروجها الى عملها كانت تضبط حرارة الموقد ضبطاً علمياً وتترك الطعام عليه لينضج ثم تعود الى الدور الاسفل لمشاركة زوجها في العمل وهناك بعد ربع ساعة تضبط حرارة النار المشتعلة وعليها مواد تختلف كل الاختلاف عن المواد التي تركتها في مطبخها

لم تختلف السنة الثانية من زواجهما عن السنة الاولى الاً بالنظر الى حالة ماري الصحية التي تأثرت بحملها . ومع ان مدام كوري كانت ترغب كثيراً في ان ترزق بطفل الاً انها تضجرت من مرضها وعجزها عن الوقوف في المعمل لمراقبة مغنطيسية الصلب

قد يظن البعض ان حالة ماري الصحية ألانت من حماسة بيير وحملته على قضاء صيف هاديء معها . الا ان الاثنين ، وكأنهما مجنونان في عدم تبصرهما ، قاما برحلة الى بريست على عجلتها في أثناء الشهر الثامن من شهور حملها ، فقطعا في رحلتها مسافات بعيدة كالمعتاد . ولقد صرحت ماري بعد ذلك انها لم تشعر بتعبٍ ما كما تملك من بيير شعور غامض بأن زوجها خارق للطبيعة فلا تخضع للقوانين البشرية . الا أنه سرعان ما اضطرت الزوجة ان تقطع رحلتها ، على الرغم عن شعورها بان في ذلك اذلالاً لها ، وعادت الى باريس حيث وضعت ابنتها الاولى ايرين ، تلك الطفلة الجميلة التي فازت بجائزة نوبل سنة ١٩٣٤ مع زوجها الاستاذ جوليو

لم يخطر ببال ماري موضوع الاختيار بين حياة البيت ومواصلة حياتها العلمية . فمع انها عبت بأمور المنزل ، وشؤون كريمتها ، وإعداد الطعام ، الا أنها في الوقت نفسه واصلت عملها في معملها الحقيق ، ذلك المعمل الذي توصلت فيه الى أعظم اكتشاف في العلم الحديث

### اكتشاف الراديوم

في نهاية عام ١٨٩٧ اظهرت ميزانية اعمال ماري درجتين جامعتين وزمالة ورسالة في مغنطيسية الفولاذ المستقي . وكان مرماها التالي هو نيل درجة الدكتوراه . وبينما كانت تفكر في موضوع تختص في بحثه استرعت نظرها نشرة حديثة للعالم الفرنسي هنري بيكرل . اما بيكرل فكان



قد اكتشف ان املاح الاورانيوم اطلقت اطلاقاً ذاتياً اشعة لم تعرف ماهيتها . فركب الاورانيوم متى وضع على لوحة للتصوير الضوئي يحيط بها ورق اسود يترك أثراً على اللوحة بعد اختراق ذلك الورق . فكانت هذه المشاهدة الاولى لتلك الظاهرة التي اسمتها ماري بعد ذلك بالنشاط الاشعاعي Radio-activity . الا ان طبيعة الاشعاع وأصله بقيا سرّاً غامضاً

اخذ آل كوري باكتشاف بيكرل وتساءلا عن مصدر الطاقة المنبعثة من مركبات الاورانيوم في هيئة اشعاع ففتح لهما هذا السؤال باباً واسعاً للبحث بل قفز بهما قفزة نحو مملكة مجهولة . الا انهما واجها في الوقت نفسه صعوبة الفوز بمكان موافق للمضي في ابحاثهما فيه . وأخيراً اعطى لماري الحق بفضل مدير مدرسة الطبيعة التي كان يدير مدرّساً فيها ، في استعمال غرفة ارضية رطبة كانت تخزن فيها الماكينات المنبوذة

لم يكن المضي في البحث العلمي في هذا الجحر بالامر الهين . فالحالة الجوية فيه اضرّت بالآلات الحساسة الدقيقة كما اضرّت بصحة ماري . غير انها لم تعر هذا الامر اهتماماً ما فكلمها شرحت ببرودة الجو انتقمت لنفسها منها بتدوين درجة البرد في جدولها !

وكما زادت ماري تعمقاً في دراسة كنه اشعة الاورانيوم زادت اعتقاداً انها الاولى من نوعها . وبعد ان قامت بتلك المهمة الشاقة ، مهمة امتحان جميع الاجسام الكيميائية وجدت ان مركباً من عنصر آخر هو عنصر الثوريوم اطلق اطلاقاً ذاتياً ايضاً اشعة تشبه الاشعة التي يطلقها الاورانيوم . هذا فضلاً عن ان النشاط الاشعاعي في كلتا الحالتين كان اقوى مما كان ينتظر متى روعي مقدار الاورانيوم او الثوريوم الذي في الجسم الذي اطلق ذلك الاشعاع فما مصدر ذلك الاشعاع غير العادي ؟ لم يكن هناك الا جواب واحد . لا بد ان تحوي تلك المواد مقادير صغيرة من عنصر اقوى في نشاطه الاشعاعي من الاورانيوم والثوريوم . ولكن ما هو ذلك العنصر ؟ كانت ماري في اختباراتهما قد امتحنت جميع العناصر المعروفة ولم تجد بينها رداً على سؤالها . فلا بد للعالم لئذا ان يجيب بتلك الجسارة الفذة : « ان تلك المواد تحوي عنصراً غير معروف للآن ، وهو يمتاز بهذا النشاط الاشعاعي العجيب »

عنصر جديد ! نظرية خلافة ! ولكن لا بد من كشف القناع عن تلك المادة المجهولة حتى تتمكن ان تعلن وهي واثقة : « ها هي ذي »

وبعد ان تتبع بيير كوري باهتمام كبير تقدم زوجه السريع في تجاربها انضم اليها لمساعدتها صادقاً عن بحوثه الخاصة . فتعاون الا ان عقلاّن واربعة أيدي في الكشف عن ذلك العنصر المجهول في تلك الغرفة الصغيرة الرطبة ، ثم دام هذا التعاون ثمانية أعوام كاملة ولم ينه إلا حادث أليم بدأ بيير وماري بجمعها بقياس النشاط الاشعاعي اكل عنصر من العناصر الداخلة في مادة البتاشاند ،



وهو ركاز الاورانيوم فتوصلا الى أن هناك عنصرين لا عنصر واحد يتصف بالنشاط الاشعاعي، وفي شهر يوليو من عام ١٨٩٨ أعلن اكتشاف أحد هذين العنصرين. وقد سمته ماري « بولونيوم » تيمناً باسم بلادها المحبوبة بولندة

وفي ديسمبر من عام ١٨٩٨ أعلن آل كوري اكتشاف العنصر الآخر الذي سماه « الراديوم » وهو يتميز بأن نشاطه الاشعاعي عظيم للغاية

### العنصرين في سقيفة

لم تتفق الصفات الخاصة بالراديوم مع كثير من النظريات العلمية التي قبلها العلماء مدى مئات السنين . فذلك كان موقف علماء الطبيعة نحو الاكتشاف الجديد موصوفاً بالتحفظ الشديد علاوة على أن علماء الكيمياء كانوا أكثر تحفظاً منهم لان الكيمياوي بطبيعته لا يستلزم بوجود عنصر جديد إلا بعد أن يراه ويختبره ويمتحن تأثير الحوامض فيه ويقرر وزنه الذري

اما الراديوم فلم يره احد ولم يقرر وزنه الذري بعد . فلكي يبرهن آل كوري على وجود هذين العنصرين ، البولونيوم والراديوم ، تعين عليهما العمل المتواصل مدة اربع سنوات . ومع انهما كانا قد توصلا الى طريقة فصل المعادن بعضها عن بعض الا أن مهمتهما الجديدة اقضت الاشتغال بمقادير وافرة من المواد الخام

كان ركاز الاورانيوم الذي يحوي عنصري البولونيوم والراديوم يعالج في مناجم سن جواشمستال بيوهميا لتستخرج منه املاح الاورانيوم المستعملة في عمل الزجاج وقد كان هذا الركاز غالي الثمن ، الا أن آل كوري توصلا ببعثهما الى ان استخراج الاورانيوم منه يترك عنصري البولونيوم والراديوم كفضلات لا قيمة لها دون ان تتأثر البتة بهذه العملية . فلم لا يستخدمان هذه الفضلات التي لا قيمة لها ؟

فحصا من الحكومة المساوية على طن من فضلات ركاز الاورانيوم وبدأ عملهما في سقيفة مهجورة بجوار الغرفة التي اجرت فيها ماري تجاربها الاولى . اما هذه السقيفة الجديدة فكانت تستخدمها كلية الطب قديماً حجرة للتشريح الا أنها عادت لا تصلح حتى لحفظ الجثث . اذ كانت عارية من البلاط وخالية من الاثاث لولا بضع طاولات مطبخ قديمة وسبورة وموقد غاز قديم من الحديد الصلب

كانت هذه السقيفة خائفة في الصيف مثل المستنبتات الحافظة للحرارة ، كما انها كانت في الشتاء مثل المنطقة الثلجية في بردها رغماً عن اشعال الموقد بها . الا أنهما لم يستعملها كثيراً بل



أجرباً أغلب تجاربهما في الحلاء لافتقارها الى المداخل الصارفة للغازات الخائفة  
وقد كتبت مدام كوري بعد ذلك قائلة : « ان اسعد سني حياتنا وأفضلها هي تلك التي  
قضيناها في هذه السقيفة التعسة حيث وقفنا كل وقتنا على العمل . فكثيراً ما قضيت اياماً كاملة  
وأنا احرك بعض المواد ، وهي تغلي ، بهراوة من الحديد يقرب وزنها من وزني . فاذا ما أتى  
المساء شعرت اني منهوكة القوى تماماً »

وعلى هذا المنوال استمر الاستاذ كوري وقرينته في عملهما من عام ١٨٩٨ الى عام ١٩٠٢  
وقد كانت ماري وهي تعمل في صحن تلك الدار ، بملابسها الرثة الملوثة بالاحماض ، وشعرها  
المتشور تداعبه الريح ، يحوطها الدخان الكثيف الخافق ، كانت ماري وحدها عبارة عن معمل كامل  
وقد كتبت مرة تقول : « وصل بي الامر ان اشتغلت بمقدار من المواد يبلغ وزنه عشرين  
كيلو جراماً مما اضطرني الى حمل الحجرة بأوعية السوائل والرواسب . ولقد كان حمل تلك  
الوعية وصب السوائل منها وتحريك المواد المغلاة ساعات طويلة ، عملاً مضيقاً حقاً »

وامتدت ايام العمل اشهرأ وانعقدت الاشهر سنوات ، غير ان ذلك لم يثبط من همة بير وماري  
وكانا أحياناً يتركان اجهزتهما مدى لحظات قليلة فينتقلان في حديثهما عن الراديوم المحبوب من  
البحث في ناحيته الفائقة الى التحدث في الامور الصبائية المتعلقة به

ففي احد الايام سألت ماري بحماسة وتشوق تقربان من حماسة الطفل الموعود بلعبة جديدة :  
« يا ترى ما هو شكله ! وبأي هيئة تتصوره يا بير ؟ »

فأجاب العالم بلطف : « لا أدري ولكني أتمنى ان يكون لونه جميلاً » . واذا استمرت  
ماري في معالجة الطن من ركاز الاورانيوم الذي ارسل اليها من سنت جواشمستال امتلات  
الطاولات القديمة في حجرتها بالمواد الحاوية لمقدار من الراديوم اوفر مما حصلت عليه قبلاً .  
وفدقارت الدور النهائي ، دور تنقية السوائل ذات النشاط الاشعاعي القوي ، حين طاقها عن  
العمل افتقارها الى الاجهزة اللازمة والاستعداد الكافي . ففي هذه السقيفة المعرضة للرياح  
اختلفت ذرات الحديد والفحم الطائرة بالمواد المنقاة وهي المواد التي اقتضت تنقيتها عناية كبيرة  
فأقبض قلب ماري من تلك الحوادث اليومية النافذة التي استنفدت كثيراً من وقتها ومجهودها

وهنت عزيمة بير امام هذه العقبات المستمرة وفكر في اعتزال العمل لوقت ما لعل الايام  
تبري لها أحوالاً أكثر موافقة للبحث العلمي

الآن أنه في تفكيره هذا لم يحسب لاختلاق ماري حساباً . فلقد ارادت ماري فصل الراديوم  
عن المواد الاخرى وانها لفاعلة ذلك ، مستخفة بالمتاعب والمشاق غير آبهة لما يعوزها من المعارف  
لأنام عملها ، تلك الصعوبة التي زادت مهمتها تعقيداً . فما لا يخفى انها كانت طالمة حديثة



العهد بالاساليب العلمية ولذا كثيراً ما صادفتها ظواهر طبيعية وعمليات حساسية لم تعرف عنها إلا القليل فاضطرت الى دراستها دراسة عاجلة حتى تتمكن من مجاباتها  
وفي عام ١٩٠٢ بعد انقضاء خمسة واربعين شهراً على اليوم الذي اعلن فيه آل كوري فرض وجود عنصر الراديوم تمكنت ماري من احراز النصر بعزيمة واصرار يفوقان صفات البشر .  
نعم فلقد توصلت الى اعداد ديسجرام من الراديوم النقي كما تمكنت من تقرير وزنه الذي  
فما كان للكيميائيين مفر من ان يطأطئوا الرأس امام الوقائع ويعترفوا بوجود الراديوم

### حياة ساقية

ومما يؤسف له انه كان امام آل كوري نضال غير نضالها مع الطبيعة في معملها . فلقد كان مرب  
يبير بمدرسة علم الطبيعة خمسمائة فرنك شهرياً فقط ولذلك اضطرت الميزانية البيتية حين اضطرا  
الى استخدام مربية بعد مولد أيرين فكان لا بد من البحث عن موارد أخرى  
وفي سنة ١٨٩٨ خلا كرسي أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة السوربون فقرّر بير ان يطلبه .  
فعلاوة على ان مرتبه كان عشرة آلاف فرنك كانت ساعات التدريس المخصصة له أقل من ساعات  
التدريس بالمدرسة . إلا أن طلبه رفض ، ولم يتمكن من الوصول الى مرتبة أستاذ إلا في سنة  
١٩٠٤ بعد ان اعترف العالم كله بمكائته العلمية العالية . أما حينئذ فقد اضطرت الى قبول منصب أقل  
درجة من المنصب الشاغر بالسوربون ، حيث كانت الادارة راضية كل الرضى ان تعهد اليه بتعليم  
بعض العلوم ذات المقام الثانوي مما يستغرق كل يومه . وفي الوقت نفسه حصلت ماري على منصب  
مدرسة في مدرسة للبنات بالقرب من فرساي

توصل الآن آل كوري الى موازنة ميزانيتها إلا أنها أثقلا كاهلها بالعمل المضني في  
الوقت الذي احتاجا فيه الى كل قواهما لمواصلة تجاربهما في النشاط الاشعاعي . فحاول اصدقاؤه  
يبير جهدهم ان يقربوه من ذلك المقام الذي يصعب الوصول اليه ألا وهو منصب أستاذ . فخطر  
لهم ان عضويته في أكاديمية العلوم لا بد أن ترفع من شأنه ولذلك اقترحوا عليه أن يرشح نفسه  
لها في سنة ١٩٠٢ . تردد أولاً ثم سلم غير راض ، لانه كان يشغل على طبعه القيام بالزيارات  
المعتادة لاعضاء الاكاديمية ، والكلام عما أحرزه من شرف ، وما قام به من جلائل الاعمال ،  
بل أنه وجد أنه يتعذر عليه بتاتاً القيام بهذه المهمة . فنتج عن ذلك انه قام بالزيارات ولكنه  
امتنح منافسه المسيو أماجا . . . . . فاختار أعضاء الاكاديمية المسيو أماجا

بعد مدة قصيرة رفض يبير قبول وسام اللجيون دونور لانه ظهر له أنه من بواعث السخرية  
أن يقدم الى عالم ، اوصدت أمامه أبواب العمل ، صليب مغشى بالميناء ومربوط بشريط أحمر من  
الحرير وذلك على « سبيل التشجيع »



ومضى آل كوري في التعليم بروح طيبة وبدون تدمير باذلين جهدها في تأدية واجبهما .  
ولأنهما كهما الشديد في عملهما بين تعليم واجراء تجارب علمية نسيا حاجتهما الى الطعام والنوم ،  
بل تماديا في حمايتهما هذه حتى اساءا الى نفسيهما والى صحتها . فكثيراً ما كان يضطر بير الى  
الامراع الى فراشه من جراء ألم شديد في رجله . اما ماري فتمكنت بصلاية اعصابها من المقاومة ،  
ومع ذلك فقد افزع اصدقاءها شحوب وجهها وهزاله

وكذلك تقدم النشاط الاشعاعي ونما ، بينما كان بضني تدريجياً العالمين الذين وهبوا الحياة

### قرار « لا قيمة له »

هذا الراديوم العجيب ! عند ما حضر كلوريداً ظهر مسحوقاً أبيض عادياً يشبه ملح الطعام  
تمام الشبه . الا ان خواصه مذهشة حقاً . فاشعاعه قاق في شدته غاية ما يمكن توقعه ، حتى كان  
اقوى من اشعاع الاورانيوم مليوني مرة فاخترقت أشعته أقسى المواد غير الشفافة ولم تحجبها  
الا ستارة كثيفة من الرصاص

أما أحدث أعاجيبه وأعنفها أثراً فهي التمكن من الاستعانة بالراديوم في محاربة السرطان .  
وهكذا ثبت ان الراديوم نافع اي ان اكتشافه لم يقتصر في خطورته على الناحية التجريبية فقط  
بل تعداها الى انشاء صناعة جديدة

عندما عرفت قيمة الراديوم الطبية نشطت حركة في مختلف البلدان ، ولاسيما في بلجيكا واميركا ،  
لاستغلال الركاز الغني بالنشاط الاشعاعي ، ولكن العلماء لم يتمكنوا من استخراج هذا « المعدن  
العجيب » منه لجعلهم سر العمليات الدقيقة اللازمة لذلك

شرح بير هذه المسألة لزوجته في صباح احد ايام الاحاد عقب قراءته رسالة وصلته من بعض  
ارباب الصناعات بالولايات المتحدة الاميركية الذين يريدون استخراج الراديوم ويطلبون منه  
زويدهم بالمعلومات اللازمة

فقال لها بير : « أمامنا طريقان يمكننا الاختيار بينهما . فأما أن نشرح لهم نتيجة بحثنا  
دون تحفظ ، بما في ذلك عملية تنقية الراديوم . . . ولما »

وهنا أشارت ماري اشارة ميكانيكية تدل على الموافقة وتمتت : « نعم . طبعاً . » . ثم  
مضى بير في حديثه :

« وأما ان نعتبر أنفسنا مالكي الراديوم او بعبارة أخرى « مخترعيه » ونسجل طريقة  
معالجة ركاز البتشيلند فنحفظ لانفسنا بامتياز صناعة الراديوم في كل العالم »

تأملت ماري بضع ثوان ثم قالت : « هذا مستحيل لانه يتعارض والروح العلمية »  
فانفجرت أسارير وجه بير . ولكن لكي يريح ضميره استطرد الحديث في الموضوع مكرراً



وهو يضحك ضحكاً لطيفاً، مشيراً الى الامر الوحيد الذي عزّت عليه تضعيته: «ويمكننا حينئذ ان نمتلك معملًا كامل المعدات». أما نظرة ماري فلم تتغير لانها ثبتت على رأيها وهي رفض الربح المادي «إن علماء الطبيعة ينشرون دائماً بحوشهم كاملة. فإذا كان اكتشافنا له فائدة تجارية فهذا عارض يجب ألا نستفيد منه وحيث أن الراديو سيستخدم لمعالجة الامراض فيجب ألا نستغله»  
لم تحاول ان تقنع زوجها لانها وثقت بأنه ذكر أمر ملكية الاكتشاف من سبيل الاحتياط فقط. فالكلمات التي فاهت بها بثقة تامة ما كانت إلا لتعبر عن شعورها كليهما، عن رأيها الصادق في مكان العالم في الحياة. ثم اضاف بيير وكأنه يقرر أمراً لا قيمة له:  
«سأكتب هذه الليلة الى الخبراء الاميركيين وأزوّدكم بالمعلومات التي طلبوها مني»  
وبعد ربع ساعة من هذا الحديث القصير في صباح الاحد قام بيير وماري بنزهة على عجبتهم في الغابات، بعد ان اختارا الى الابد بين الفقر والغنى. وفي المساء رجعا منهوكين وأذرعهما ملأى بأوراق الحقول وأزهارها!

### العرو

والآن بدأت مقدمة تلك القطعة الموسيقية الرائعة التي سرعان ما بلغت أوجها. ففي يونيو من سنة ١٩٠٣ دعا المعهد الملكي بلندن بيير لكي يحاضر به في موضوع الراديو وتبع ذلك سيل من الدعوات لحضور الحفلات والولائم لان لندن بأسرها تأقت الى مشاهدة «والدي الراديو» تحمل آل كوري هذه الحفاوة مدة ايام قليلة بشيء من التامل ثم رجعا الى مسكنهما الصغير. ولكن الانكليز السكسونيين متصفون بالولاء لمن يعجبون به. ففي نوفمبر سنة ١٩٠٣ منحت الجمعية الملكية بلندن بيير وماري مدالية دافي وهي من اسمى أوسمتها  
وكانت بلاد السويد التالية في تقدير فضلها. ففي ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠٣ اعلنت اكاديميا العلوم بستوكهولم ان جائزة نوبل لعلم الكيمياء في تلك السنة قد قسمت مناصفة بين هنري بيكرل من ناحية ومدام كوري وزوجها من الناحية الاخرى لاكتشافهم النشاط الاشعاعي  
كانت قيمة جائزة نوبل هذه سبعين ألفاً من الفرنكات ولم يكن قبولها «يتعارض والروح العلمية» فحازت فرصة عظيمة الآن لانقاذ بيير من ساعات التدريس الطويلة ورعاية صحته. وحالما قبضت تلك النقود أعادها الهدايا والقروض على اخي بيير وأخت ماري، والهبات للجمعيات العلمية والعطايا لبعض الطلبة البولنديين ولاحدى صديقات ماري منذ طفولتها. كما ان ماري جهزت حماماً حديثاً في بيتها الصغير وأثنت غرفة بسيطة به. ولكن لم يخطر ببالها قط ان تحتفي بتلك الفرصة بشراء قبة جديدة. كما انها استمرت في التعليم مع انها اصرّت على ان يعتزل بيير عمله بمدرسة الطبيعة واذ ذاع صيتهما تكسدت طاولتهما بأكوام الرسائل البرقية، ونشرت عنهما آلاف



القاتلات بالجرائد ووصلتهما مئات الطلبات للحصول على امضاهما او صورتها ، وكثير من الخطابات من المخترعين ، والاشعار في مدح الراديو . حتى وصل الامر بأحد الاميركيين ان طلب السماح له بتسمية فرساً للسباق باسم ماري . ولكن سوء تفاهم مستديم فصل بين آل كوري وبين الجمهور الذي اعارها التفاته الآن . فلقد وصلا الى لحظة مؤلمة جداً في حياتهما لانهما كانا بحاجة الى التفرغ للعمل ليتما رسالتهما التي لم تنته بعد ، حين لم يحسب الصيت اي حساب لذلك . لان الصيت يطغى على العطاء بحمله الثقيل ويحاول ان يعيق تقدمهم غير عابئ بالمستقبل الذي يجاهدون نحوه .

فما انالته جائزة نوبل للنشاط الاشعاعي من الصيت الذائع حمل الملايين على حساب هذا الاكتشاف الذي لم يتجاوز بعد دور الطفولة ضمن الانتصارات المحققة . بل ان الكثيرين شغلوا انفسهم بالتدخل في حياة هذين الزوجين الخاصة التي تقرب من الاساطير فسلبوها الكنز الوحيد الذي اعتزا بالاحتفاظ به ، ألا وهو التأمل والهدوء . ولقد علقت ماري على ذلك ، بما كتبت في ربيع سنة ١٩٠٤ :

« ... ضواء مستمرة . فالقوم يلهوئنا عن عملنا ولذا اعتزمت على التسلح بالشجاعة ورفض مقابلة الزائرين ولكنهم يصرون على ازعاجنا . لقد أفسد علينا الصيت حياة العمل الهادئة التي كنا نحياها » . ولقد تأملت ماري بنوع خاص من الدور الذي انتظرها العالم أن تمثله لان طبيعتها لم تنفق وتلك المظاهر التي تقتضيها الشهرة من الاندماج في الحياة الاجتماعية ، والصدقة المتكلفة ، والفسوة في المعاملة أحياناً وادعاء التواضع أحياناً أخرى فالحادثة التالية ، من آلاف الحوادث مثيلاتها ، تبين جلياً موقف آل كوري تجاه حماسة الجمهور نحوها . فبينما كانا يتناولان الطعام مرة بقصر الاليزيه مع الرئيس لوبيه وقرينته سألت مدام لوبيه ماري قائلة : « هل ترغبين في ان أقدمك الى ملك اليونان ؟ »

فأجابت ماري بكل بساطة وأدب واخلاص : « لا أرى جدوى من ذلك » ولكنها لاحظت حينئذ دهشة السيدة التي تكلمها فامتقع وجهها وقالت مستدركة كلامها : « ولكن ... ولكن ... بالطبع أعمل ما يسرك . اي شيء يسرك »

وقد كان يجب على الصيت الذائع الذي أحل بآل كوري كثيراً من النكبات أن يأتيتها بشيء من البركات مثل مقام الاستاذية ، ومعمل لائق ، وفريق من العلماء للتعاون معها . ولكن متى نحل هذه النعم يا ترى ؟

الاستاذة معاً

لما حلت نهاية حمل ماري الثاني في سنة ١٩٠٤ كانت منهوكة القوى لطول المدة التي لازمت



فيها فراشها وهي في حالة تعب شديد وأخيراً في ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٤ ولدت طفلة سمينة بعلو رأسها شعر كث أسود وهي لبث (١). ولكن سرعان ما عادت ماري الى عملها بالمدرسة والمعمل . حاول آل كوري كالمعتاد عدم الظهور كثيراً في المجتمعات ولكنها لم يجدوا بداً من حضور الحفلات الرسمية لتكريم العلماء الاجانب. ففي هذه الحفلات فقط كان بيير يلبس سترته الطويلة الرثة وماري فستان السهرة الوحيد الذي امتلكته

فهذا الفستان الذي احتفظت به ماري سنين طويلة ، مستعينة باحدى الخياطات من وقت لآخر على تغييره بعض الشيء ليوافق الزي المتبع ، كان من الحرير « الجرينادين » الاسود . ولا غرابة اذا كان موضع احتقار آية سيدة عادية ، أما ماري فقد اوجدت لنفسها بما انصفت به من الاتزان والتحفظ ، ضرباً خاصاً ملائماً لملابسها . بل لقد ظهرت بمظهر فاخر حقاً حين صفت شعرها الاشقر وعقصة فوق رأسها وتحت بعقد لطيف من الذهب صياغته في غاية الرقة كما كشف جسمها النحيل ووجهها البهيج عما بها من سحر وجمال وفي احدى هذه الحفلات تتم بيير قائلاً : « انه من المؤسف حقاً عدم حضورنا الحفلات فلابس السهرة تناسبك جداً ولكن يعوزنا الوقت »

وتوصل بيير أخيراً في ٣ يوليو سنة ١٩٠٥ الى الانضمام الى الاكاديمية ولكن مع ذلك نال منافسة اثنين وعشرين صوتاً. وفي السنة نفسها أيضاً عينه السوربون في منصب أستاذ للطبيعة. فتحققت جميع آماله ما عدا الحصول على معمل وافر الاستعداد لبحوثه وبحوث زوجته بقيت أمام ماري ثماني سنوات كاملة قبل تمكنها من وضع أجهزة النشاط الاشعاعي في معمل لاثق بها ، ذلك المعمل الذي لم يسعد الحظ بيير برؤيته . فبقيت طول عمرها منقصة العيش متألمة ، لان زوجها حرم من تحقيق الامنية المفضلة على جميع أمانيه

في ١٤ ابريل من سنة ١٩٠٦ كتب بيير يقول : « اتنا نعمل معاً أنا ومدام كوري لنقيس بالضبط مقدار الاشعاع الذي يطلقه . قد يبدو هذا أمراً هيناً ولكننا قضينا الشهور في بحوثنا والآن فقط بدأنا نصل الى نتائج حاسمة »

« اتنا نعمل معاً أنا ومدام كوري ... »

تلك الكلمات التي خطها بيير قبل موته بخمسة ايام فقط تعبر احسن تعبير عن ماهية اتحاد جميل قوي، ما كانت لتنال منه الحوادث اي منال . فكل تقدم في العمل ، سواء أ فوزاً كان ام اخفاقاً، كان مدمعاً لتعزيز تلك الرابطة القوية بين الزوجين وزيادتها متانة وقوة ، فبين هذين الندين اللذين أعجب احدهما بالآخر اعجاباً كبيراً نشأت زمالة قوية كانت اسمى تعبير عن حبهما العميق



## وصيرة

حوالي منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦ ، في يوم قائم مطر ، ودع بير زملاءه أساتذة كلية العلوم بعد ان تغدئ معهم وخرج الى شارع دوفن وحاول عبوره دون ان يلتفت الى عربة نقل قادمة . فلما رآها وقف مذهولاً وحاول الامساك بصدر الجواد الذي يقودها ، فراجع الجواد الى الوراء . الا ان بير ترحلق على الارض المبتلة ومرت عليه تلك العربة الضخمة المحملة بستة اطنان من البضاعة فسحقت حجمته ، رغم محاولة السائق ان يوقفها . فرفع رجال البوليس ذلك الجسم الدافئ الذي فارقه الحياة في اسرع من لمح البرق الا ان الساعة السادسة مساءً ، وماري ، ملائ بالهجة والحياة ، واقفة بباب المنزل تستقبل بعض ضيوف وافدين ولكنها لاحظت في نظرهم وسلوكهم عطفاً خاصاً . فوقفت ماري جامدة ، عديمة الحركة ، بعد ان رووا عليها وقائع الحادث وبعد صمت طويل فاهت بهذه الكلمات : « أحقاً ان بير قد مات ؟ مات ؟ مات حقاً ! » . ومنذ اللحظة التي سجل فيها عقلها تلك الكلمات الثلاث « بير قد مات » غدت ماري امرأة حزينة ، وحيدة ، لا تعزى وبكلمات قليلة طلبت نقل جثة بير الى المنزل . ثم طلبت الى احدي صديقاتها ان تأخذ ايرن وايڤ الى بيتها ، وبعثت رسالة برقية الى والدها بوارسو . وبعدئذ خرجت الى الحديقة وجلست صامتة ، ساكنة ، محدقة في غير وعي ، ممسكة برأسها بين يديها تنتظر وصول زميلها ادخلت النقالة ببطء من الباب الضيق الى غرفة بالدور الارضي بالمنزل ، فبقيت ماري بعض الوقت وحدها مع زوجها وهي تقبله ، وما زال جسمه ساخناً ، بقيت هكذا الى ان اخرجت بالقوة من الغرفة حتى لا تشاهد الجثة عند وضعها في الاكفان . اطاعت دون التفات ولكن سرعان ما تنهت انها بخروجها من الغرفة قد حرمت من تلك الدقائق القليلة الباقية فهزولت الى الداخل الى جانب جثة زوجها . وبعد موت بير عرضت الحكومة رسمياً على زوجها ان تمنحها هي وطفلتها معاشاً فأبت ماري بحجة بشجاعتها المعنادة : « لست بحاجة الى معاش . فاني صغيرة السن ويمكنني العمل لكسب عيشي انا وطفلي »

وفي ١٣ مايو سنة ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم بالسوربون باجماع الاصوات اسناد منصب في التعليم العالي بفرنسا الى امرأة . وبعد ان اصغت ماري بدون اهتمام الى كلام حميها في ان الواجب عليها يقضي بقبول هذا المنصب لتتم رسالتها اجابت بهذه العبارة القصيرة : « سأحاول ذلك » حل ميعاد محاضرتها الاولى بالسوربون فملأت الجماهير بهو المحاضرات وازدحمت بالدلهيز وامتدت الاعناق في انتظار مدام كوري وبدأ القوم يتساءلون : ما تكون اولى كلماتها يا ترى ؟ هل تبدأ بشكر وزير المعارف او الجامعة ، او تذكر شيئاً عن بير كوري ؟ لا بد ان تذكر شيئاً



عنه فقد جرت العادة ان يبدأ الأستاذ الجديد محاضراته الاولى باطناب سلفه . . . وفي منتصف الساعة الثانية فتح الباب الخلفي وتقدمت ماري كوري الى المنصة في عاصفة من التصفيق . أخذت رأسها لتحيي الجمهور، ولكن حركتها كانت جامدة بعض الشيء . ثم بقيت واقفة حتى هدأت العاصفة وهنا تطلعت ماري الى الامام وقالت : « متى فبكر المرة في التقدم الذي توصل اليه علم الطبيعة في العشر السنوات الاخيرة ، أخذته الدهشة في مبلغ ما طرأ على أفكارنا من التغيير بشأن السكرباتية والمادة . . . » . وهكذا واصلت مدام كوري ، بهذه العبارة ، الكلام في نفس الموضوع الذي عالجته ببيير كوري قبيل مصرعه ، فاغرورقت عيون الحاضرين وسالت الدموع على وجوههم . وبعد ان انتهت من محاضرتها خرجت بدون توقف بنفس السرعة التي دخلت بها والجمهور يهتف لها

### انجازات ونجارب

ذاع صيت مدام كوري ومنحت كثيراً من الدبلومات ودرجات الشرف من الأكاديميات الاجنبية . ومع ان أكاديمية العلوم أثبت ان تشرفها بعضويتها — اذ أخفقت بالانتخاب بصوت واحد — الا ان السويد كافأتها بجائزة نوبل لعلم الكيمياء في سنة ١٩١١ ، وهذه هي المرة الوحيدة التي منحت جائزة نوبل مرتين لاي رجل او امرأة في العالم

بعد ذلك اشترك السوربون ومعهد باستير في انشاء معهد للراديوم ، يضم قسمين أحدهما معمل لاجتاث النشاط الاشعاعي تحت ادارة مدام كوري ، والاخر معمل للابحاث البيولوجية ودراسة معالجة السرطان تحت ادارة طبيب مشهور . ورغمما عن معارضة آل ماري ، تبرعت الاخيرة للمعمل بجرام الراديوم الذي جهزته هي وبيير بيديهما وكان يساوي أكثر من مليون فرنك ذهب . وقد بقي هذا المعمل محور حياتها الى النهاية

وفي أثناء الحرب خدمت ماري وطنها الثاني بكل تضحية واخلاص فاذا وجدت ان المستشفيات تعوزها الاشعة السينية التي يمكن بواسطتها معرفة موضع الرصاص بالمصابين ، قررت في الحال مهمتها ، ألا وهي اعداد مراكز خاصة بالكشف بالاشعة السينية فجمعت أجهزة الاشعة التي تمكنت من الحصول عليها في المصانع ومعامل الجامعات ووزعتها على المستشفيات القريبة من باريس ، كما حشدت عدداً كبيراً من المتطوعين من الاساتذة والمهندسين والعلماء لكي يدبروا تلك الآلات والى جانب ذلك أعدت ماري سيارة خاصة بنقل المصابين من الخطوط الامامية في الحرب الى المستشفيات وكانت تلك السيارة ، المعدة بحماة الرنتجن وبيدينامو ، الوحيدة المستعملة اثناء واقعة المرن جاهدت ماري طويلاً حتى تمكنت من الحصول على عشرين سيارة لهذا الغرض جهزتها كسابقتها ، فدعيت تلك السيارات « بالكوريات الصغيرة » . ولم تتأخر عن قيادة احداها بنفسها رغمًا عما طأته في سبيل ذلك من التعب



أضافت مفخرة أخرى الى تاريخ جهادها وذلك بان تمكنت من اعداد مائتي غرفة بأجهزة الراديوم، حتى بلغ عدد المصابين الذين عولجوا فيها ما يزيد عن المليون . امام كل ما لاقتنه ماري من المناعب والصعاب لم تظهر ادنى تملل أو كلل بل لم تكن بتأثير الاشعة السينية فيها أو بضرها لخطر النيران حولها . وبما هو جدير بالذكر انها لم تقل ازاء جميع خدماتها لفرنسا في اثناء الحرب اي تقدير رسمي ، ولكنها شعرت في الوقت نفسه انها قامت بالواجب على اكمل وجه

### أمير

في سنة ١٩٢٠ اكتتبت نساء اميركا بمبلغ مائة الف دولار لشراء جرام من الراديوم لاهدائه الى ماري كوري وطلبن منها مقابل ذلك زيارتهن فترددت ماري اولاً في اجابة طلبهن ولكنها ازاء كرمهن لم تجد بداً من التغلب على حياتها وازواجها والتعرض لأول مرة في حياتها ، وذلك في سن الرابعة والخمسين ، لما تفرضه عليها رحلة رسمية عظيمة كذلك الرحلة

وهناك على ميناء نيويورك انتظرتها الجماهير الغفيرة مدة خمس ساعات كاملة فعبرت لها بذلك عن مبلغ اجلالها لها بل كان اخلاصها لها اقرب ما يكون الى شعور ديني عميق منه الى أي شيء آخر . والآن وقد وجدت ماري في وسط تلك الجماهير زاد الامير كيون تفانياً وتقديراً لان أحاول في هذا المقام ان أعرف روح أمة ، ولكني أقرر ان الحماسة المنناحية التي قابل بها الامير كيون ماري كوري لها مغزاها العميق . قال الشعوب اللاتينية مع اعترافها بعبقريّة الاميركيين ونبوغهم تدعي لنفسها الانفراد بتبجيل المثل العليا . ولكنه ثبت الآن ان الاميركيين ما ساروا في احتفائهم بماري هذا الاحتفاء العظيم الا وراء تلك المثل العليا التي يحجلونها . فمن المعقول ان تثير سيدة كهذه بشخصيتها ومكتشفاتها شيئاً من حب الاستطلاع والتعجب ولكن ليس هذا كافياً لوصف ما أظهره الامير كيون من العطف والحب . فانهم ما كانوا حينئذ الا محققين بالنبل في الحياة ، النبل الممثل في احتقار الارباح المادية ، والتفاني في حب الحياة الفكرية الخالصة ، والرغبة الملحة في خدمة الغير . كانت الجامعات الاميركية جميعها قد دعت مدام كوري لزيارتها وأعدت لها الميداليات والدرجات العلمية ولكن مدام كوري وقفت مذهولة حينما أحاطها القوم بالاعجاب والتبجيل وشعرت بالحجل والحياء كلما تطلعت اليها الجماهير المتشوقة لرؤيتها ، بل ان خوفاً غريباً استولى عليها ألا وهو الخوف من ان تقع تحت أرجل الجماهير . وأخيراً ضعفت صحة ماري فلم تتمكن من اتمام رحلتها واضطرت الى الرجوع الى فرنسا نزولاً على ارادة أطبائها ، رجعت ماري منهوكة ولكنها مسرورة راضية لان حياتها وتواضعها ما كانا ليحجبا عنها الحقيقة وهي أنها قد أدخلت السرور على قلوب ملايين من الاميركيين ولاني اعتقد ان رحلة والدتي الى أميركا قد علمتها ان حياة العزلة التي تحياها تتناقض ومقامها



العالي . فمع ان مدام كوري الباحثة قد تمكنت قبلاً من العزلة عن العالم إلا أن مدام كوري في سن الخمسين لم تكن باحثة وعالمة فحسب بل ان مقامها الاجتماعي هيباً لها النجاح في رسالتها الى العالم فكان لا بد لها ان تحمل تلك الرسالة

كانت الرحلات التي قامت بها ماري مشابهة لسابقتها اذ شملت حضور المؤتمرات العلمية والمحاضرات والاحتفالات الجامعية وزيارة المعامل فكانت حينها حلت موضع التكرم والتبجيل وفي ذلك الوقت جمعت وارسو مبلغاً من المال عن طريق الاكتتاب العام وأنشأت به معهداً للراديو سمته « معهد ماري سكلودفسكا كوري » كما قامت النساء الاميركيات بالاعجوبة الثانية وهي تبرعهن بجمام آخر من الراديو لمدام كوري . فأعاد التاريخ نفسه مرة اخرى اذ زارت ماري نيويورك في ١٩٢٩ ، كما زارتها في سنة ١٩٢١ ، لشكر النساء الاميركيات ولكن زيارتها كانت باسم بولندا هذه المرة . فحلت ضيفة على الرئيس هوفر في البيت الابيض وما يسترعي الانتباه ان مدام كوري لم تتغير عنها قبلاً فلم تتغلب على خوفها من الجماهير المحتشدة كما ان الشهرة لم تؤثر في اخلاقها . ويخيل إلي أنها لم تتمكن من الوصول الى اي اتفاق ودي مع الصيت بل كان حليفها الاول والاخير هو المعمل حتى كتبت مرة تقول « اني أشك في لو كنت أتمكن من الحياة بدون المعمل » ولفهم هذه العبارة يتعين علينا فهم مدام كوري وتعرف نفسياتها فلقد كان يغمرها السرور والغبطة متى نجحت في اية تجربة تقوم بها حين كانت تنقص عليها صواعق الهم اذا ما أخفقت فيها

### هاتمة الرسالة

استمرت ماري في عملها الى النهاية بنشاط فذٍ وباهمال فريد ايضاً لراحتها وصحتها . فلم تحترس البتة من خطر الراديو فتناولته واشتغلت به دون ان تتبع الاحتياطات التي نهت طلبها اليها وبعد جهد جهيد أذعنّت لان تمتحن دمها في معهد الراديو . فأظهر الكشف مادة غريبة به . وما هي ؟ ... لقد قضت مدام كوري خمساً وثلاثين سنة وهي تعمل بالراديو وتتففس الهواء المشع به كما تعرضت اثناء سني الحرب الرابع لاشعاع اخطر من الاول وهو اشعاع جهاز رنتجن ولكنها لم تحسب ما اصابها من ألم او حروق الا شيئاً يسيراً في مقابل الاخطار التي تعرضت لها لم تعر ماري اصابها بالحمل أخيراً التفاتاً كبيراً ولكن في مايو سنة ١٩٣٤ لازمت الفراش لاصابتها بنزلة صدرية حادة . ولما توقف قلبها القوي أخيراً عن النبض أصدر العلم حكمه وهو ان ما أظهره دمها من العوارض الغريبة يرجع الى الراديو ، المجرم الحقيقي . وفي يوم الجمعة في السادس من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ أودعت ماري مقرها الاخير بدون اي احتفال رسمي - تليها لوصيتها - فدقنت بجانب زوجها بير في مدفن « سو » بحضور أقاربها واصدقائها وزملائها



# ایران

## مفاخر فنونها

للدكتور زكي حسن

أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الإسلامية

## نهضتها الحديثة





# في الفن الإيراني

للمكتوب زكي حسن

أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار  
الإسلامية

نوطية

لسنا نقصد أن نعرض في هذه السطور للفن الإيراني بالدرس أو الشرح المفصل ، ولكننا في هذه المناسبة السعيدة — التي تجمع بين الامتين اللتين كانت لهما الزعامة في ميدان الفنون الإسلامية — لا يسعنا إلا أن نذكر تراث الإيرانيين في هذه الفنون ، وأن نبين ما كان لطبيعتهم ولاستعدادهم الفطري من أثر في تكييف الفنون الإسلامية ، والسير بها إلى العظمة التي بلغت بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر بعد الميلاد

ولا غرو فقد كان لإيران منذ العصور القديمة فن ازدهر في عصر السكيانيين ثم الساسانيين من بعدهم . كما أن الاسكندر المقدوني حين أراد أن ينشئ عاهلية تجمع بين الشرق والغرب أنجز نظره إلى إيران ليجعلها مركز هذه العاهلية ، ولكن المنية عاجلة ، فلم يفر بتحقيق مطامعه . على أنه نجح إلى حد كبير في نشر الثقافة الإغريقية في الشرق الأدنى . وكانت إيران وأفغانستان ، فترة من الزمن ، ميداناً التقى فيه الأساليب الفنية الإيرانية القديمة بالأساليب الفنية الإغريقية . وكان لهذه الفترة أثر ملموس في العلاقة بين الأساليب الفنية الإيرانية والبيزنطية بعد ذلك ، بل أن أثرها كان ملموساً في مصر نفسها ، حين كانت تتبع رومة وبيزنطة في العصر الإغريقي الروماني ثم في العصر القبطي ، فكانت بيزنطة تنقل عن إيران الموضوعات الزخرفية ثم تهمها وتستخدمها في منتجاتها الفنية التي تبث بها إلى الأقاليم التابعة لها على شواطئ البحر الأبيض ، فنقل هذه الأقاليم تلك الموضوعات الزخرفية ، كما يتجلى ذلك في زخارف كثير من قطع المنسوجات التي اكتشفت في صعيد مصر ، وكما يبدو في الرسوم المحفورة على بعض أحجار العصر القبطي



ومما يستوقف النظر في تاريخ إيران أن سكانها كان لهم في جميع العصور ولع شديد بانقان منتجاتهم الصناعية، وذوق لطيف في أعداد مساكنهم وحدائقهم، ومهارة فائقة في الفنون الجميلة. ولم تكن تمنعهم حروبهم الطويلة مع الروم في العصر الساساني من العناية بالفنون الجميلة فكانوا يشيدون العمارات ويتجرون التحف الخزفية والمعدنية التي تشهد لهم بعلو السكب كما كانوا يخلدون انتصاراتهم على الروم بنقوش محفورة في الصخور كنقش رستم وطاق بستان وغيرها. وقد كانت هذه النقوش آية في قوة التعبير عن انتصار الإيرانيين وانكسار الروم وذلكهم.

ولما امتد الإسلام إلى إيران لم يلبث هذا القطر العظيم أن تزعم العالم الإسلامي في العلم والفنون كما تزعمته مصر في الأحداث السياسية. ويمكننا أن نقول في ثقة واطمئنان أن الطراز الإيراني في الفنون الإسلامية ولا سيما في الفنون الفرعية منها، هو أبداع الطرز الإسلامية على الإطلاق. فهو أكثرها تنوعاً، وأعظمها في حسن الذوق، ودقة الزخرفة، وتناسق اللون وجمال النسب. حقاً أن العمارات الإسلامية التي تزدان بها القاهرة من عصور الطولونيين والفاطميين والمماليك ثم عمارات الأندلس وعمائر مراکش ولا سيما في عصر بني مرين، كل هذه قد تفوق العمارات الإيرانية دقةً وجمالاً، ولكننا لا نظن أنها تمتاز عنها في الجلال والابهة. بينما منتجات الفنون الفرعية الإيرانية من خزف وسجاد وصور ومنسوجات وغير ذلك هي التي لا يتسامى إليها إلا النادر من منتجات الأمم الإسلامية الأخرى في هذا الميدان.

### التصوير

فالتصوير الإسلامي مثلاً لا تكاد الزعامة تنعقد فيه لغير الإيرانيين، بل انهم أساتذة الفنود والترك في هذا الميدان. وقد قامت في مراکش حركة حديثة على رأسها المصور محمد راسم ومثله الأعلى هو الرجوع في التصوير إلى الأساليب الفارسية.

وقد أثبت علماء الآثار الإسلامية في العصر الحديث أن ازدهار التصوير الإسلامي في إيران دون غيرها من الاقطار الإسلامية، ثم انتشاره منها إلى تلك الاقطار على يد فنانيين إيرانيين أو على يد تلاميذ لفنانين من إيران، كل هذا راجع إلى طبيعة الإيرانيين أنفسهم، وإلى التقاليد الفنية التي كانت لهم قبل الإسلام، وإلى المهارة التي اكتسبوها في هذا الميدان فجعلتهم يتساحون في شأن النحت والتصوير ولا يتأثر الفنانون بينهم بكره هذين الفنون في الإسلام، ذلك الكره الذي ثبت في الأمم الإسلامية السامية الأصل، والذي كان سبباً في انصراف المسلمين عن تصوير الخلوقات الحية واقبالهم على الزخارف الهندسية والنباتية.

ومهما يكن من شيء فقد ارتقت صناعة التصوير في إيران وكان ميدانها في أول الأمر توضيح



كتب التاريخ والقصص ودواوين الشعر بالصور الصغيرة ذات الألوان الزاهية الجميلة ، شرحاً لمحتوياتها ، أو زينة لها . وقد امتازت العصور الثلاثة الكبرى في تاريخ إيران بثلاث مدارس كبرى في التصوير فاشتهر الطراز أو المدرسة المغولية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واشتهرت المدرسة التيمورية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واشتهرت المدرسة الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وأما بعد منتصف القرن السادس عشر فقد تأثر المصورون الإيرانيون ببعض الأساليب الفنية الغربية في التصوير ولا سيما بعد أن أرسل الشاه عباس الثاني ( ١٦٤٢ —

١٦٦٦ ) بعض البعثات العلمية لتلقي العلم والفن في إيطاليا وبعض البلدان الأوروبية الأخرى وتماز الصور الإيرانية الإسلامية بألوانها الجميلة الذي يتغلب فيها الأزرق والذهبي والأخضر والبنفسجي والأحمر ، كما تتميز ببعض أساليب اصطلاحية اتبعها المصورون ، كإهمال الظل وكرسم الأشخاص في أوضاع معينة بغير الاهتمام بقوانين المنظور أو بصدق تقليد الطبيعة . وليس في ذلك ما يؤخذ على الصور الفارسية ، لأنه جزء من طبيعتها ، ولأنها حين تقلد الصور الغربية تفقد ذاتيتها ويحول عنها جمالها وسحرها . فضلاً عن أن الفنانين المصريين القدماء والسكندانيين والآشوريين والهنود كانت لهم في ميادين الفن المختلفة أساليب اصطلاحية تميز فنونهم الوطنية . ويعرف المتصلون بالحركات الفنية في العصور الحديثة أن كثيرين من رجال الفن يعملون على التحرر من تقاليد الفن الإغريقي في صدق تمثيل الطبيعة ، ويودون أن ينسجوا على منوال غيره من الفنون في عدم التقيد بالطبيعة . ولا ريب في أن كثيرين من المصورين الغربيين في العصر الحديث يرجعون إلى الشرق ولا سيما إيران — فيستلهمونه كثيراً من الموضوعات الزخرفية ويستمدون منه بعض الأساليب الفنية

وعلى كل حال فإن أعظم المصورين في الإسلام كانوا من الإيرانيين أو من تلامذتهم في الهند وتركيا — وحسبنا أن نشير هنا إلى بهزاد وسلطان محمد وقاسم علي وميرك ومحمدي ومعين مصور وجمال نقاش اصفهاني ورضا عباسي وغيرهم ممن تحدثنا عنهم في كتابنا عن التصوير في الإسلام عند الفرس أو ممن رجعوا أن نعرض لهم في بحث قريب . وكانت منتجات هؤلاء الفنانين مختلفة النواحي ، ففي بعضها مناظر صيد أو قتال عجيبة بأسلوبها القوي وبما فيها من روح وحركة ، بل أن بعضها صور أفراد مشهورين تظهر فيها دقة لم يكن يستطيع الوصول إليها في ذلك الوقت إلا مهرة المصورين في الشرق الأقصى . وفي كثير من الصور الإيرانية دعابة ومجون وطرب غير ما رآه في تصوير حوادث الشاهنامة من قتال ومناظر شجاعة وإقدام

وقد قام التصوير الإسلامي في الهند وفي تركيا على اكتاف الإيرانيين في بادئ الأمر ولكنه أخذ في الهند طريقاً آخر متأثراً بالأساليب الفنية الوطنية في الهند نفسها ، حتى أصبح



البون شاسعاً يفتن اليه كل من له الملم بسيط بالفنون الاسلامية . وقد ذاع صيت المصورين الايرانيين حتى كان السلاطين من العثمانيين ومن الهنود المغول يستدعونهم للعمل في بلاطهم وكان صغار المصورين في ايران والهند يكتبون على منتجاتهم اسماء مشهوري المصورين ، وذلك طمعاً في بيعها بأعلى الأثمان ، حتى ان بعض مصوري الهنود نسبوا منتجاتهم الى بهزاد كبير مصوري الفرس على الاطلاق او الى ماني زعيم المانوية ، وقد عاش في القرن الثالث الميلادي واشتهر واتباعه بالمهارة في التصوير وباستخدام الصور في شرح عقائدهم الدينية وقد تسمى باسمه مصور صغير في بلاط الشاه عباس . وفي دار الكتب المصرية وفي المكتبة الاهلية بباريس مجموعتان من الصور الهندية في اولاهما صور منسوبة الى بهزاد وماني وفي الثانية صور منسوبة الى بهزاد ولكن امثال هذه النسبة المفرضة سهل كشفه لمن لم يسطر بسيط من الدراية بتاريخ الفنون

### السجاد

على ان اكثر منتجات الفن الايراني انتشاراً في العالم انما هو السجاد . والظاهر ان شهرة ايران في هذا الميدان ترجع الى العصور القديمة فقد كانت تصدر السجاد الى الاغريق ثم الى البيزنطيين والغربيين في العصور الوسطى . ولعل السبب في ازدهار هذه الصناعة في ايران هو تشجيع الملوك والامراء ورجالات الدولة وانفاقهم الاموال الطائلة في انتاج احسن الفرس والابسطة وأنفراها مادة وحسن صناعة على يد كثيرين من العمال ، يشتغلون الشهور الطويلة في صنع سجاجيد تخرج آية في الفن ، لا يدري المرء بأي شيء يعجب فيها أبغظة الالوان وانسجامها ، ام بحمال الزخارف ودقتها ، ام بمتانة الصناعة واتقانها . بل ان الملوك والامراء كثيراً ما كانوا يطلبون الى مشهوري المصورين والرسامين ان يقوموا باعداد الرسوم التي تزين بها السجاجيد الفاخرة . وفي الحق ان المصورين كان لهم في البلاط وفي الحياة الاجتماعية الايرانية نفوذ كبير بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر ، فلم يكونوا يقومون بتصوير المخطوطات فحسب بل كانوا يشرفون على شتى انواع الزخرفة : في العائر ، وعلى المنتجات الخرفية ، والمنسوجات والسجاد واكبر الظن ان اهم من اشتغل من المصورين بعمل زخارف السجاد هم بهزاد وسلطان محمد وسيد علي . وقد وصل اليها أسماء بعض من قاموا على نسج السجاجيد المشهورة ومن أهمهم غياث الدين جامي ومقصود القاشاني في النصف الاول من القرن الخامس عشر ومحمد أمين الكرمانى ونعمت الله جوشغاني . واسماؤهم موجودة على سجاجيد محفوظة الان في متحف بلان ومتحف فيكتوريا والبرت بلندن وفي ضريح الشاه عباس الثاني بمدينة قم

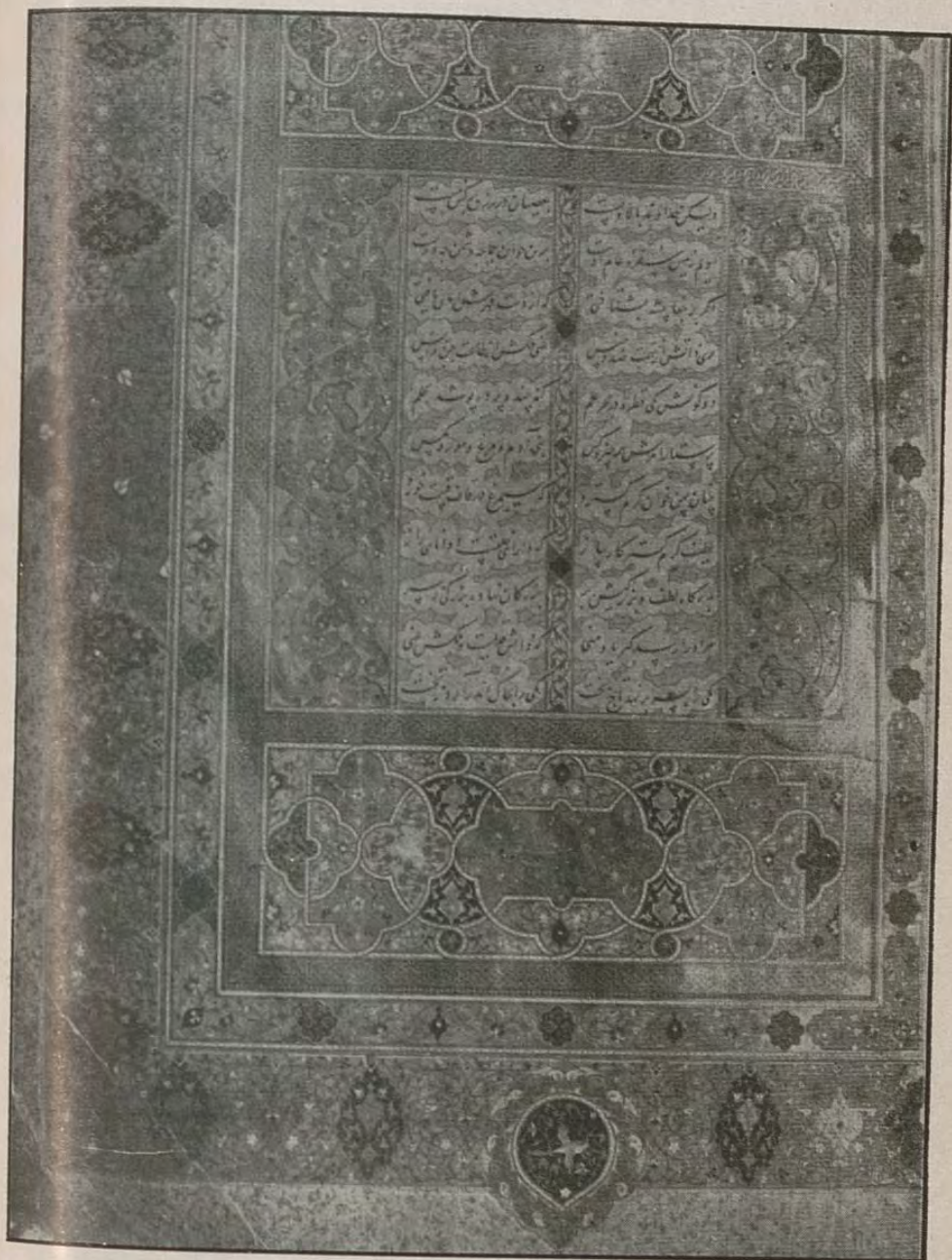
أما اهم المدن التي اشتهرت بصناعة السجاد في ايران فهي اصفهان وكرمان وقاشان وقم ونيز وكرباغ وهمدان وشستر وهرارة ( في افغانستان ) وطوس ويزد





صورة ضرب بالعصا ( فلقة ) من رسم المصور الإيراني محمد قاسم في بداية  
القرن السابع عشر





نموذج من الخط الفارسي والصحائف المذهبة في المخطوطات الإيرانية



ويرجع جمال السجاد الإيراني وشهرته إلى إبداع ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها، وإلى مائة الصناعة والعناية بالصوف (حتى لقد كانت الغنم تربى خصيصاً وبغنى بنظافة صوفها لينسج منه السجاد)، كما أن الحرير وخيوط الذهب والفضة كانت تدخل في صناعة السجاجيد المشهورة. ولأنفسى أن حجم السجادة كان يظهر إبداع الزخارف فيها ويساعد المصور أو الرسام على إظهار مهارته والسجاد الإيراني على أنواع مختلفة، ولكن أكثره يمثل غرام الإيرانيين بالحدائق، حتى نرى أن أهم أنواعه يشبه الحديقة بما فيه من أزهار ونباتات. وقد كانت هناك أبسطه وسجاجيد تمثل زخارفها مناظر الصيد، أو القتال بين الحيوانات المختلفة، غير أن ذلك كله كان على أرضية مملوءة بالأزهار والنباتات، ولسكنها أزهار ونباتات لم تكن دائماً تقليداً صادقاً للطبيعة، بل كانت كالأغلب عناصر الزخرفة النباتية في الفنون الإسلامية — مذبذبة بعض الشيء. فالمعروف أن المسلمين لم يصوروا النبات أو الإنسان أو الحيوان تصويراً صادقاً، بل كانوا يتخذونها موضوعات زخرفية، يكفونها كيف شاءوا مراعين فيها التناظر والبساطة والانسجام ومن ثم فقد كان يسودها في بعض الأحيان شيء من الجمود. ولعل الإيرانيين هم أقل الأمم الإسلامية اندفاعاً في هذا التيار، فامتاز الطراز الإيراني في الفنون الإسلامية بالزخارف النباتية ولا سيما الأزهار وبالأسراف في رسوم الإنسان والحيوان والطيور على المنتجات الفنية المختلفة، وعني الإيرانيون أكثر من سائر الأمم الإسلامية بصدق تمثيل الطبيعة — ألا فيما كانت لهم فيه اصطلاحات واساليب موضوعية. وقد كان اتصالهم بفنون الشرق الأقصى منذ العصر المغولي دافعاً لهم على الدقة في رسم النباتات والأزهار

ولا يجب أن ننسى أن صناعة السجاد في إيران لم تكن زاهرة في العصر الصفوي فحسب، بل إن ما نجده في كتب التاريخ من وصف بساط كسرى الذي غنمه العرب في المدائن لا كبر دليل على براعة الإيرانيين في هذه الصناعة الجميلة منذ العصور القديمة. ومن المحتمل أن يكون أهل الحيرة قد نقلوا عنهم أسرار هذه الصناعة، فالمعروف أن سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الإسلام

وقد اختلف رجال الفنون في تقسيم السجاجيد الإيرانية فبعضهم يقسمها باعتبار زخارفها إلى سجاجيد ذات زخارف شجرية، وأخرى ذات زخارف تمثل مناظر الصيد والعراك، وثالثة ذات زخارف من آية ومشكاوات وأزهار بينما يجتهد باحثون آخرون في تقسيمها تبعاً للبلاد الإيرانية المصنوعة فيها، ولكن الوصول إلى هذا التقسيم الأخير ليس سهلاً ميسوراً، لأن المعلومات الصحيحة بهذا الشأن نادرة جداً، فضلاً عن أن المصانع في البلاد الإيرانية المختلفة كانت تقلد أي طراز يقال رواجاً كبيراً ولو كان موطنه في بلد آخر



وقصارى القول انه من الممكن تقسيم السجاجيد الايرانية الى انواع مختلفة بحسب زخارفها كما يمكن نسبة بعض هذه الانواع الى مصانع بعض المدن الايرانية المعروفة ، ولكن بعض المدن الاخرى لا يمكن ان تنسب اليها انواع بالذات ، كما ان بعض الانواع لا نستطيع نسبتها الى اي مدينة بالذات

### المسوجات

اما المنسوجات الايرانية فقد ذاعت شهرتها منذ عصر هيرودوتوس . وكان اهل روما يدفنون فيها الاثمن الباهظة ، ثم اقبل اهل بزنطة على تقليدها . وبلغت صناعة النسيج أوج عزها في العصر الساساني . وقد وصلت الينا بعض قطع من المنسوجات الحريرية الساسانية . والزخارف مكونة في اكثر هذه القطع من مجموعات دوائر او اشكال هندسية اخرى ، فيها رسوم حيوانات او طيور او فرسان في الصيد ، متقابلة او متدايرة ، في ترتيب هندسي جميل ، كما ان بين الحيوانات المتقابلة رسماً تخطيطياً مذهباً يمثل شجرة . والمعروف ان الصينيين كانوا يحبون هذه المنسوجات الحريرية الساسانية ، وان حكام الاقاليم الصينية الواقعة بين الصين ويران كانوا يقدمون من هذه المنسوجات جزية الى ملوك الصين . والحق ان الايرانيين في ذلك العصر البعيد وفقوا في الوان منسوجاتهم جد التوفيق فكان انسجام هذه الالوان وهدهوها يبرزان عظمة الزخارف ويكسبان القطعة سحراً وجمالاً

ولما انتشر الاسلام في ايران ، وانقضى دور الزهد والتعشف الذي ساد العالم الاسلامي في نشأته ، واختلط العرب بغيرهم من الامم العربية في المدينة تقدمت الصناعات والفنون ، ولقبت صناعة النسيج تشجيعاً خاصاً في الاقاليم الاسلامية المختلفة ، لما سئله الخلفاء والامراء في مكانة رجال الدولة بالخلع الثمين من نفيس المنسوجات الحريرية . على ان القطع الايرانية التي وصلت الينا من صدر الاسلام نادرة جداً ، ولعل السر في ذلك هو غزو المغول الذي قضى على الحرث والنسل . ومهما يكن من شيء فقد ظل الايرانيون نحو ثلاثة قرون في صدر الاسلام يتبعون الاساليب الساسانية في زخارف منسوجاتهم ثم كان القرن العاشر فطفت عليها الاساليب الاسلامية في زخرفة المنسوجات بأشرطة من رسوم الحيوانات او بزخارف خطية ونباتية . وكان الايرانيون فضلاً عن ذلك يستوردون من الشرق الافنى الاقضية الحريرية المزينة بالزهور والنباتات الدقيقة ، فكانت مدينة مرو تصدرها الى سائر الاقاليم الايرانية فيعمل الصناع على تقليدها في كثير من الاحيان . ومن أهم المدن الايرانية التي اشتهرت بمصانع النسيج في العصر الاسلامي نيشابور وتبريز وسلطانية وهرات ويزد وشيراز وكرمان . ومن ابدع ما كانت تخرجه المصانع الايرانية الرايات والاعلام زينها العبارات بالخط الكوفي الجميل . ثم كان عصر



السلاجة في القرن الثاني عشر الميلادي عصر نهضة شاملة ورقي عام في صناعة النسيج ، فتقدمت أساليب الصناعة ، وعمد النسّاجون الى الزخارف الساسانية القديمة يستمدون منها موضوعاتهم الزخرفية بعد ان يدخلوا فيها ما يناسب العصر وما يتفق وتأثرهم بدقة الصينيين في رسم النباتات والطيور والحيوانات . وقد عثر المتقنون في قبور مدينة الري على قطع من منسوجات هذا العصر تشهد ببراعة النسّاجين الإيرانيين

وزاد تأثر المصانع الإيرانية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالأساليب الصينية في زخرفة المنسوجات بسبب ازدياد الوارد من الأقمشة الصينية واتساع تجارة إيران مع الشرق الأقصى وغزوات المغول في إيران

\*\*\*

أما في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر فقد كانت زخارف المنسوجات متأثرة كل التأثر بصور المخطوطات في ذلك العصر فكثيراً ما نرى عليها صور مجنون ليلي وصور بعض حوادث الشاهنامة وبعض الأساطير المشهورة في التاريخ الإيراني وفي مؤلفات الشعراء والأدباء الإيرانيين . وكان لمدينتي هراة وتبريز قصب السبق في إنتاج الديباج الذي تزينه هذه الزخارف . وهناك بضع قطع من هذا الديباج عليها امضاء صانعها « غياث » وهي محفوظة في ليون وباريس ولندن وفلورنسة

على ان أبداع ما أنتجه النسّاجون الإيرانيون هي القطيفة ( المخمل ) التي امتازت بهدهو ألوانها وبرقها المتناهية . وأهم المدن التي ذاع صيتها في نسج القطيفة هي قاشان

وزادت ثروة إيران في عصر الشاه عباس وزاد الاقبال على المنسوجات الفاخرة ، فزادت المنتجات زيادة أثرت قليلاً على جودة النوع وجمال الزخرفة ، اللهم إلا فيما كان يصنع للبلاط ورجالات الدولة . وكان أهم أنواع الزخارف في ذلك العصر رسوم أشخاص ذوي قدود هيفاء وأوضاع فيها كثير من التكلف وفتيات او فتيان يكاد المرء يحسبهن نساء . ونحو ذلك من طراز المصور رضا عباسي . والواقع ان تأثير هذا المصور وذبوع صور فتيانه وفتياته لم يكن في المخطوطات المصورة والمنسوجات فحسب ، بل كان في صور الجدران وفي زخارف القاشاني

ثم عاد الإيرانيون الى الولوج برسوم الازهار والنباتات فالتخذوها لزخرفة عدد كبير من منسوجات القرنين السابع عشر والثامن عشر ووقفوا فيها توفيقاً كبيراً وساعدتهم على ذلك تجار البضائع الصينية الذين كانوا ينزلون مدينة أردبيل والحزفيون الصينيون الذين كانوا ينزلون شتى المدن الإيرانية ولا يتسع المقام هنا لتفصيل بعض الانواع الجديدة من المنسوجات الإيرانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر فحسبنا ان نشير الى منتجات اصفهان وكرمان وقزوین وشيراز ودرشت



## الخزف

وثمة ميدان آخر من ميادين الفنون الإسلامية كان للإيرانيين فيه قدم سبق . ذلك هو الخزف . ولا غرو فقد توافرت في أرض إيران عجينة تصلح لصنع الاواني الخزفية وبسمل تشكيلها وتمتاز برقتها وقلة وزنها . وإن صح لدى بعض الخبراء أن بلاد الاغريق من ناحية وبلاد الشرق الأقصى من ناحية أخرى قد بلغت في صناعة الخزف درجة من التقدم تفوقت بها على إيران فإن بعض الهواة الآخرين يرون في خزف تلك البلاد جموداً ودقة وثقلاً لا يرونه في الخزف الإيراني

ومهما يكن من شيء فقد امتاز الخزف الإيراني في العصر الإسلامي بجمال الاشكال، وتناسق النسب، وبريق الطبقة الزجاجية المغطية، وابداع الزخارف وتنوعها . وليس هذا بمستغرب فقد كان لإيران تقاليد قديمة في هذه الصناعة منذ عصر قبل التاريخ كما يبدو من القطع الخزفية التي كشفت في نهاوند والتي تزينا زخارف هندسية جميلة . ثم كان عصر الساسانيين وصارت الجدران المصنوعة من الآجر تغطي — كما في قصور مدينة السوس — بطبقة من المينا، وتنبه عن الخزف الذي قُدر لجدران العمائر الإيرانية أن تكتسب به في العصر الإسلامي . ثم جاء العصر الساساني الذي ازدهرت فيه صناعة الخزف كما ازدهرت الفنون الأخرى . ولما انتشر الإسلام في إيران ظل الخزفيون يتطورون شيئاً فشيئاً حتى تركوا الأساليب الفنية الساسانية ، وطبعت منتجاتهم بظايع يجمع بين العناصر الزخرفية الإسلامية وبين ما ورثوه من أساليب إيرانية

وأقدم أنواع الخزف الإيراني في العصر الإسلامي هو النوع الذي يعرف باسم « جابري » وهو اسم عبدة الشمس في إيران . ويظن أنه من صناعتهم قبل أن ينتشر في كل أنحاء الدين الإسلامي بعد الفتح العربي ببضعة قرون . والزخارف في هذا الضرب من الخزف تكون في الغالب من رسوم فرسان في الصيد وطيور أو حيوانات غير دقيقة الرسم ، ولكنها محفورة حفراً عميقاً في الطبقة البيضاء الرقيقة التي تكسو السطح بحيث يصل هذا الحفر إلى العجينة الحمراء المصنوعة منها الاناء . وتعلو العجينة الحمراء والطبقة البيضاء التي تغطيها مادة زجاجية شفافة ذات لون أصفر أو أخضر أو اسمر قائم

على أن بعض القطع الخزفية من هذا النوع قد وجد عليها كتابات بحروف كوفية تجعل من السهل نسبتها إلى القرنين العاشر أو الحادي عشر . فمن المحتمل أن يكون خزف « جابري » من منتجات إيران في الأربعة القرون الأولى بعد الإسلام ، ولا سيما في زنجان وعامل والري . ولكن هذه المدينة الأخيرة التي دمرها المغول سنة ١٢٢٠ ميلادية كانت مركزاً عظيماً لصناعة شتى أنواع الخزف حتى أننا لننسب إليها نماذج من صناعات خزفية لم توجد إلا في أطلالها . ومن





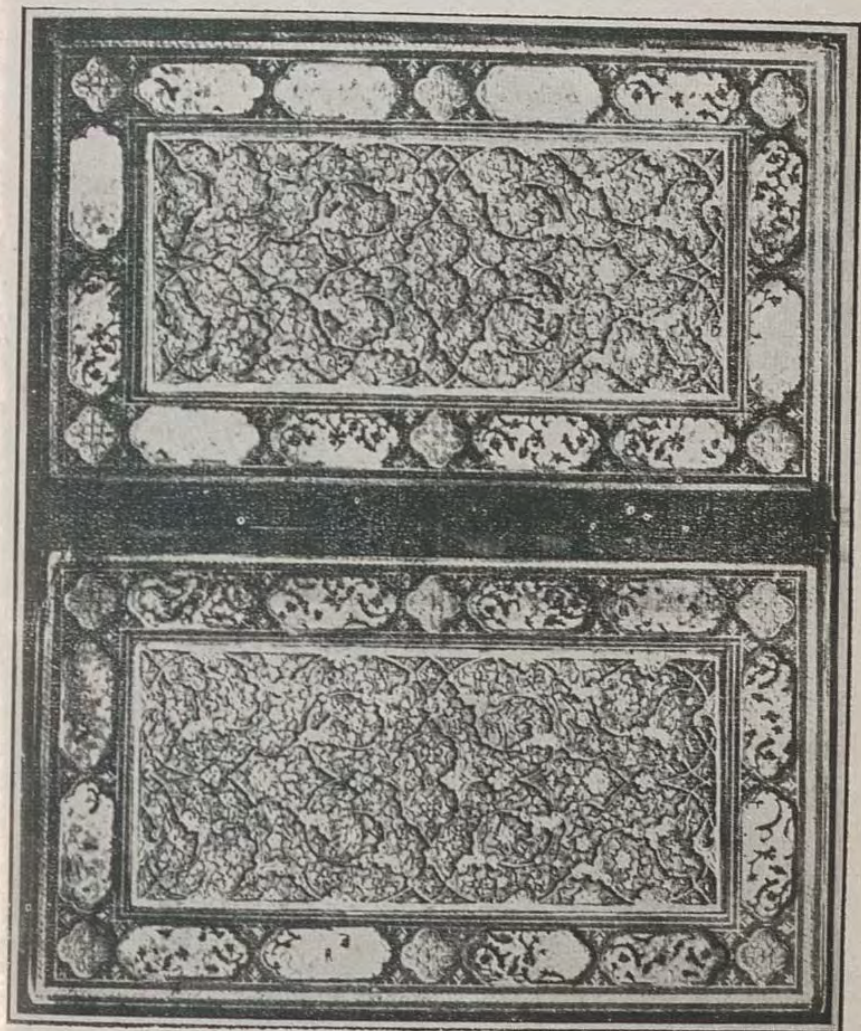
نجمة من الفاشاني ذي البريق المعدني . وهي من صناعة قيرامين بإيران  
في سنة ١٢٦٢ ميلادية ومحفوطة الآن بمتحف برلين



صورة صحن من الخزف الايراني المعروف باسم « خزف جابري » ترجع الى  
القرن الحادي عشر الميلادي ومحفوطة الآن بدار الآثار العربية



جلد کتاب ایرانی من القرن السادس عشر من مقتنيات دار الآثار العربية





هذه التماذج بعض الاواني والاطباق ذات الصور الادمية والصناعة الدقيقة التي ترجع الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر وقد نجد في بعض هذه القطع صور البراق او صور بط واوز وطيور اخرى وما زاد الخزف الايراني جمالا ذلك التجديد الذي وصل اليه المسلمون في هذه الصناعة وهو البريق المعدني lustre ، فكانوا يرسمون الزخارف على سطح لامع ثم يثبتونها بتعريضها للنار بطريق تكسيها بريقاً معدنياً يختلف لونه بين الاحمر النحاسي والاصفر الضارب الى الخضرة . ويظن بعض علماء الآثار ان هذه الصناعة نشأت في ايران كما يظن آخرون انها بدأت في العراق ويذهب فريق ثالث الى ان مهدها ارض مصر . ولكنها كانت على كل حال خير مخرج للمسلمين من صعوبة الانصراف عن الاواني الذهبية والفضية التي يكرهها رجال الدين لما تدل عليه من ترف واسراف

وكانت هذه الاواني الخزفية ذات البريق المعدني تصنع في كثير من المدن الايرانية ولا سيما في الري وتزينها زخارف متعددة الالوان تمثل بهرام جور وحبيته في الصيد ، او تمثل السلطان جالسا على عرشه وحوله رجال وساء من اتباعه ، او تمثل فرساناً في الصيد ، وما الى ذلك مما اعتدنا رؤيته على التحف الايرانية الاخرى وما كان يزيد التذهيب في الخزف روعة وجمالا

\*\*\*

على ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني استخدمت على يد الايرانيين في صناعة النجوم والترتيعات التي كانت تكسي بها الجدران ، والتي اصبحت ظاهرة من الظواهر المعمارية في ايران ثم في تركيا وسورية وبعد ان دمر المغول مدينة الري اصبحت سلطانباد مركز صناعة الخزف . وصارت تنتج في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ما كانت تنتجه الري قبلها ، كما احدثت انواعاً جديدة ولكن صناعة الخزف لم تكن زاهرة في مدينتي الري وسلطانباد فحسب ، بل ان مدناً اخرى ، كصفهان وتبريز وهمدان وفيرامين ومشهد ، كانت لها مكاتنها في هذا الميدان . كما ان سلطانباد كانت تنتج في القرن الخامس عشر خزفاً طريفاً تغلب على زخارفه الفروع النباتية ( الارابيسك ) ورسوم زهور اللوتس . وثمة نوع ينسب الى قرية كوباتشه بداغستان ولكن يظن انه كان يصنع على مقربة من تبريز

### التحف المعدنية

اما صناعة التحف المعدنية في ايران فقد اتقنها الايرانيون قبل الاسلام . والواقع ان الاواني المعدنية الساسانية عليها مسحة من القوة والعظمة ، قل ان توافرت في تحف معدنية اخرى . ويشهد بذلك ما وصل الينا من الصواني والاطباق الذهبية والفضية ذات الزخارف البارزة ، وما يحتفظ به متحف الهرميتاج بالروسيا والقسم الاسلامي بمتحف برلين من اباريق



بروتزية جميلة ، يظن انها ترجع الى القرن السابع او الثامن بعد الميلاد ، ويغلب على زخارفها رسوم الحيوانات والطيور ومناظر الصيد . كما ان بعض المتاحف والهواة يحتفظون بمتحف معدنية على شكل حيوان او طائر ، ويرجع بعضها الى صدر العصر الاسلامي ، كما يظن ان قطعاً منها ترجع الى العصر الساساني نفسه . ولعل أشهر هذه المجموعة بطة في متحف الهرميتاج بالروسيا وبغاء في مجموعة اندجودجيان

على ان دار الآثار العربية في القاهرة تحتفظ بين مقتنياتها بأبريق بديع من البروتزيم للفن الساساني بأوثق الصلات ، وان كان المرجح انه من صناعة القرن السابع او الثامن الميلادي . وقد عثر على هذا الابريق في ابي صير الملق حيث قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، فحمل ذلك بعض العلماء على القول بان مثل هذا الابريق الثمين لا بد ان كان ملكاً لهذا الخليفة وعلى كل حال فان الابريق بديع الشكل ، وجميل بزخارفه المحفورة والمخرمة

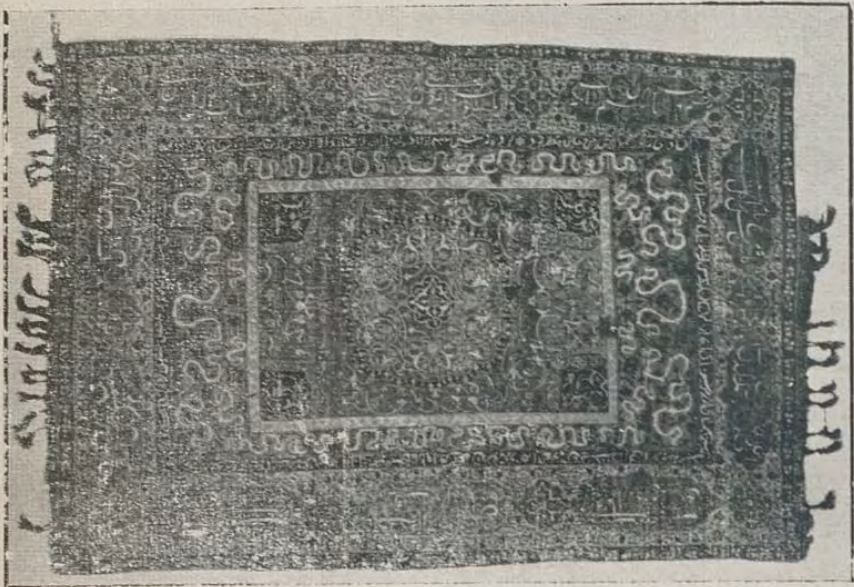
وثمة تحف بروتزية كثيرة يرجع انها من صناعة ايران في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وعلى بعضها زخارف فيها رسوم آدمية . ومن هذه التحف مرايا ذات زخارف بارزة من رسوم ممائلة ، وتقوم على أرضية من فروع نباتية جميلة

أما في عصر السلاجقة فقد كان للتحف الفنية القوة والجلال اللذين امتازت بهما الصناعة الساسانية ، واللذين كانا يناسبان طبيعة السلاجقة أنفسهم ، كما كان لها في بعض النواحي الاخرى دقة وظرف يناسبان اعتناقهم الاسلام وغرامهم الجديد بالادب والفن الايرانيين . فلا غرابة اذا وجدنا في هذا العصر تحفاً بروتزية ساسانية الطراز والى جانبها بعض الاواني والتحف من الذهب والفضة ، ذات زخارف دقيقة مفرغة في الاناء . وفي مجموعة المسيو رالف هراري بك عدد من هذه الاواني والتحف ، فيها كؤوس وأباريق ومباخر وعلب وملعقة ، وعليها زخارف من طيور وحيوانات حقيقية وخرافية محفورة او مفرغة او بارزة

وفي القرن الثاني عشر الميلادي لم يقف بعض الصناع عند حفر الزخارف على التحف بل بدأوا في تكيفتها (تنزيلها) بالمعادن النفيسة ، ولا يزال أبدع مثال لهذه الصناعة اناء من مجموعة بوبرنسكي في متحف الهرميتاج ، صنع سنة ١١٦٣ ميلادية في مدينة هراة ، التي اشتهرت بصناعة التحف المعدنية كما اشتهرت بها أيضاً اصفهان وهمدان وشيراز

ومن المرجح ان طراز مدينة الموصل في صناعة التحف المعدنية قد نقل بعض أساليب هذه الصناعة عن ايران . بل الواقع ان الفرق بين الطراز الايراني والطراز الموصلية لا يزال غير واضح كل الوضوح . حقاً اننا لا نعرف تحفاً معدنية يمكن نسبتها على وجه التحقيق الى ايران وتكون في الوقت نفسه من الابداع ودقة الصناعة بحيث يمكن مقارنتها بالاواني العديدة التي



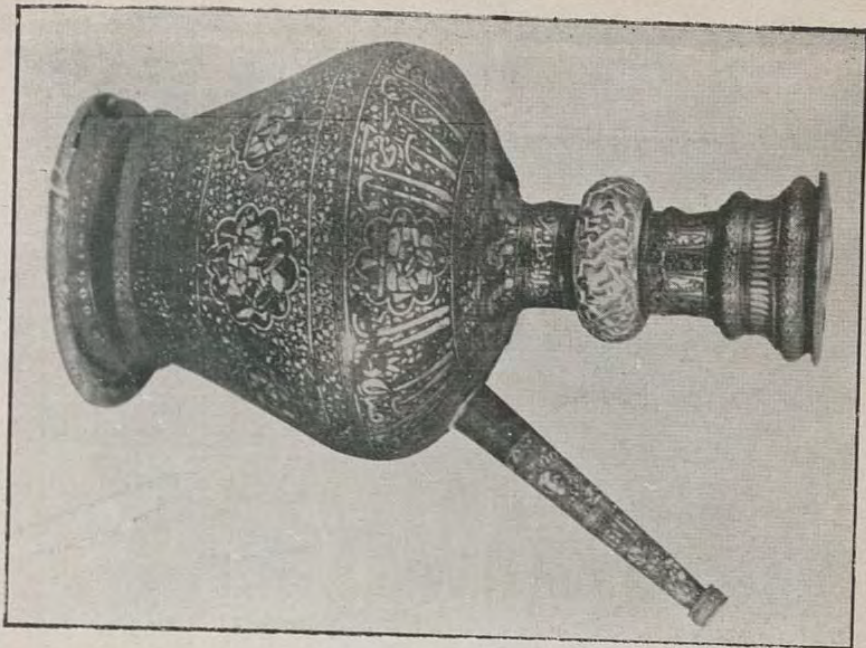


سجادة من الحرير الخيش بالذهب والفضة وهي من صناعة  
اصفهان في القرن السادس عشر . وقد وهبها حضرة  
صاحب السمو الامير يوسف كمال الى دار الآثار العربية



شمعدان من النحاس في مجموعة المسيو دالفهراري بك . وهو  
منزل (مكفت) بالذهب والفضة ، وعليه اسم صانعه محمد بن ربيع  
الدين شيرازي وتاريخ صناعته سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ ميلادية)





صورة ابريق من النحاس ، صنع في إيران سنة ١٧٩٣ هـ  
( ١٢٧٤ ميلادية )



صورة قطع من مفسوحات حريرية إيرانية ترجع الى القرن السادس عشر ،  
وحقوطة الافق بدار الآثار العربية



صنعت في الموصل ، وعليها امضاء صانعها ، ولكن أسماء بعض هؤلاء الصناع تظهر عليها مسحة إيرانية حتى اننا لتساءل اذا لم يكن هؤلاء الصناع إيرانيين هاجروا من ايران الى بلاد الجزيرة وأتيح لهم ان ينتجوا فيها أبداع التحف المعدنية في الفن الاسلامي

ومهما يكن من شيء فان صناعة التحف المعدنية تقدمت في ايران نفسها ، كما تقدمت في مدرسة الموصل . وكان من اهم مظاهر التطور في الصناعة الإيرانية الاناقة والتعذيب في اشكال الاواني وبعض التغيير اللطيف في الزخارف . ثم بلغ هذا التطور اقصاه في عصر الاسرة الصفوية في بداية القرن السادس عشر ، وصارت زينة التحف المعدنية في تكفيها زخارف من خطوط او كتابات على ارضية ذات موضوعات زخرفية قوامها فروع نباتية دقيقة

\*\*\*

ولا يفوتنا ان نذكر ان ايران كانت من اهم اقطار العالم الاسلامي في صناعة نصال السيوف من الصلب والحديد . وكانت هذه النصال تكفت ( تنزل ) بالذهب والفضة في بعض الاقاليم الشرقية من ايران . ولا غرو فان اهل ايران كانوا منذ العصور القديمة مغرمين بالاسلحة . على ان ما وصل الينا من الاسلحة الإيرانية ليس اقدم من القرن السادس عشر . وربما كانت الاسلحة المرسومة في العصور الفارسية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر اكبر عون لنا على دراسة انواعها قبل العصر الصفوي . اما اهم ما نعرفه من اسلحة الصفويين نخوذة باسم السلطان طهماسب في متاحف استامبول وعليها امضاء صانعها : « ابراهيم بن محمد رضا » . وفي المتحف البريطاني خوذة من عصر الشاه عباس ، وعليها كتابات منزلة بالذهب وزخارف نباتية جميلة . ومن مشهور صناع الاسلحة في عصر الشاه عباس (١٥٨٧-١٦١٩) أسد الله الاصفهاني

\*\*\*

أما صناعة الزجاج فقديمة في ايران وقد وصل الينا طبق زجاجي من العصر الساساني ومحفور فيه صورة طائر خرافي . كما وجد في مدينة الري تحف زجاجية ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر . ثم ازدهرت صناعة الزجاج في القرون التالية ولا سيما في شيراز وهمدان ونيسابور وسمرقند وقد كان للحلى والجواهر شأن عظيم في الحياة الاجتماعية الإيرانية ولا سيما في البلاط ، وفي ملابس الطبقات العالية فلا عجب ان تخصص في صناعتها مهرة الفنانين في زنجان وأصفهان وتبرز وسلطانية وغيرها من البلدان الصناعية في ايران

### تأثير الفن الإيراني وانتشاره

ولا يسعنا ان نختم هذه الكلمة عن الفن الإيراني بدون ان نشير الى ما كان له من عظيم التأثير على غيره من الفنون الاخرى . والواقع اننا اذا استثنينا الفن الاغريقي — لا نكاد نجد



فمنّا آخر قدّر له ان ينعم بمثل نفوذ الفن الإيراني وانتشاره. ففي العصور القديمة كانت الاساليب الفنية الإيرانية من أظهر الاساليب الفنية في الشرق الأدنى. ويظن كثيرون من العلماء ان اتصال الفن الإيراني بالصين يرجع الى العصر السكياني، حين بدأت الاساليب الفنية في الصين وإيران تلتقي في اواسط آسيا وترحف كل منها الى البلد الآخر. ثم كانت غزوات الفرس في وادي النيل اكبر تعريف لاهل مصر القدماء بهذا الشعب الإيراني وبأساليبه الفنية المختلفة التي كان لها بعض التأثير في العمارة وفي زخارف المنسوجات المصرية. كما بدأ اتصال إيران بروما منذ القرن الثالث الميلادي، حين انتشرت تجارة الحرير مع الصين — واتصلت إيران بعد ذلك ببرنامج اتصال كان له صدام في الفنون، على الرغم من الحروب الطويلة بين هاتين العاهليتين، اللتين كانتا تتنازعان السيادة في العالم المتمدين حينئذ.

اما في الاسلام فقد أتيح لإيران ان تكون في الصف الاول منذ سقطت الدولة الأيوبية وتولى العباسيون، كما صار الفن الإيراني أبداع الطرز في الفنون الإسلامية، وانتشرت النحف الإيرانية من حدود الهند الى جبال البرانس، ومن تركستان وجنوبي روسيا شمالاً حتى اليمن وزنجبار جنوباً. وكان المهندسون والفنانون الإيرانيون يدعون للعمل في سائر الاقاليم الإسلامية. بل ورحلت جالية منهم الى البندقية في القرن الخامس عشر وعلمت اهلها الاساليب الإيرانية في تكيف المعادن وتجليد الكتب وصناعة الزجاج، وانتقل كثير من هذه الاساليب الى سائر الاقطار الغربية على يد البنادقة

\*\*\*

ولم يكن شأن الإيرانيين خطيراً في الفنون الفرعية او التطبيقية فحسب. بل ان العمارة الإسلامية ايضاً مدينة لهم بكثير من الظواهر المعمارية التي أصبحت مميزة لها في العصور الوسطى. وليس هذا بمستغرب من شعب كانت له في العصور القديمة مدن كبرسبوليس وقصور كالعصور الساسانية استطاعوا فيها ان يحلوا كثيراً من مشكلات العمارة كالقباب والسقف والاقبية والاعمدة والعقود وهما يكن من شيء فقد امتازت العمائر الإيرانية في العصر الإسلامي بالعقود الإيرانية وهي التي ينتهي احناؤها بخطين مستقيمين، كما امتازت بكسوتها بالواح القاشاني التي نبغ أهل إيران في صناعتها. والمشاهد ان المساجد الإيرانية عظيمة الشكل بوجهاتها المستطيلة التي يحف بها من الجانبين مأذنة أسطوانية الشكل دقيقة الطرف في أعلاها ولها شرفة تجعلها تشبه الفناء ولكن موضوع العمارة الإيرانية واسع وطريف لا يتسع المجال هنا للتطرق اليه. فحسبنا الآن هذه الصفحات التي استعرضنا فيها، استعراضاً سريعاً وموجزاً، ما وصل اليه شعب إيران من مهارة في الفنون بفضل استعداد الفطري ودأبه على العمل وسعيه الى الكمال



# ایران الحديثة

و زجوه نهضتها الباهرة

[ ليس الغرض من هذا البحث بسط مفاخر الحضارة الإيرانية القديمة في العلم والفن والأدب والفتوح الحربية ، فلها في جميع أبواب الحضارة والثقافة آيات عجيبة يرى القارئ طرفاً يسيراً منها في باب الفنون في المقال السابق . ولكننا نريد أن نعي هنا ، بالنهضة الإيرانية الحديثة ، في عهد الزعيم الكبير الشاه رضا بهلوي ، بعد أن كانت الدولة الإيرانية قد سقطت في العهد السابق إلى دركات التفكك والاضطراب والخضوع للأجانب . فهي تمثل في نهضتها الحديثة أسطورة الفينيكس المنبثت حياً جديداً من رماده ]

كانت بلاد إيران من نحو قرن من الزمان قاعة راضية ، تنتج ما يحتاج إليه من طعام وتكتفي بما تصنعه أيدي أبنائها من المصنوعات الفنية . ولكنها طمعت في أوائل القرن التاسع عشر باستعادة ولاية جورجيا من روسيا فأخفقت وحملت على عقد معاهدة توركو ومنشاي سنة ١٨٢٨ وهي التي ثبتت فيها قواعد الامتيازات الأجنبية وحتمت عليها القبول برسوم جمركية على الوارد إليها والصادر منها لا تزيد على خمسة في المائة عيناً . وما لبثت الدول الأخرى حتى استندت إلى مبدأ « أولى الدول بالمراعاة » في تطبيق القواعد المنطوية في المعاهدة الإيرانية الروسية . فكان من أثر ذلك أن زاحمت الواردات الغربية إلى إيران ، ما كان يصنع بأيدي أبنائها . وما كان في وسعهم أن يعودوا إلى الزراعة ، لأن ما تنتجه البلاد حينئذ كان كافياً بل وفوق السكافي لسكانها . أما التصدير فكان شاقاً لقلة وسائل النقل وبعد المسافات . فلم يبق أمام البلاد إلا الانصراف عن الصناعات الوطنية إلى إنتاج المواد الخام التي تحتاج إليها المصانع الأوروبية . فأسفر كل ذلك ، في عهد اسرة قاجار الضعيفة ، عن سقوط إيران في مهاوي الانحطاط السياسي والاقتصادي سقوطاً كاد أن يقضي على الطبقة المتوسطة

فلما اهل القرن العشرون كان ميزانها التجاري منحرفاً ضدها بمقدار ٣٠ في المائة وكان كثير من عقاراتها مرهوناً للبنوك الأجنبية . وانحطت زراعتها وصناعاتها الوطنية وهبط عدد سكانها . ثم كانت ثورة سنة ١٩٠٦ فأنشئ مجلس نيابي ولكن الفساد السياسي كان متأصلاً فلم يستأصله الانقلاب إلى حكم نيابي . وكان كثير من رجال الحكم يرتشون من الأجانب ( مجلة الشؤون



الخارجية يناير ١٩٤١ ص ٢٩٦ وعليها الاعتماد في معظم هذا المقال). فلما عقد الاتفاق الروسي البريطاني سنة ١٩٠٧ كان في طياته ما يشير الى احتمال تقسيم ايران على نحو ما قسمت بولندة. وأما اعمال اصلاح المرتبة فكانت على الغالب لا تعدى مرحلتها الاولى على نحو ماتم عند ما اخرج مورجان شوستر من البلاد اجابة للمساعي الروسية

فلما نشبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ أنكر على دولة ايران حقوق المحايدين التي ينص عليها القانون الدولي. فلما ارتفع صوت الرئيس ولسن منادياً «بحق تقرير المصير» انبت رجاء جديد في صدور الايرانيين. ولكن موقعهم الجغرافي ونضال المصالح الاوربية المختلفة في تلك البلاد قضى على هذا الرجاء في مهده. وغدت المسألة الاولى بعد الحرب، أي الدول تفوز بالنفوذ الفعال في تلك البلاد بعد خفضها الى مستوى مستعمرة، أن تكون روسيا الشيوعية أم بريطانيا الرأسمالية والجواب الذي خطته الشاه رضا بهلوي في سماء بلاده هو هذا — لاروسيا ولا بريطانيا —.

والواقع ان التنافس بين الدولتين اسدى خدمة الى قضية الحرية والاستقلال في ايران. ففي ٢٧ يوليو سنة ١٩١٨ اعلنت الحكومة الايرانية الغاء المعاهدات القائمة على غير مبدأ المساواة. وسلم البولشفيك بانهاء المعاهدات الروسية الايرانية جميعاً وتخلصوا عن الامتيازات والديون التي كانت لروسيا في ايران قبل عهدهم. أما بريطانيا فكانت اموالها المثمرة في تلك البلاد اعظم جداً من اموال روسيا فخشيت تقدم روسيا الى الهند عن طريق ايران فحملت ايران على توقيع معاهدة، لو نفذت لوضعت ايران تحت اشراف لندن. ولكن انقلاباً وقع في ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ فتقلد جماعة من الوطنيين مقاليد الحكم وتصدوا بالمعاهدة البريطانية. وكان عملهم هذا فرعة مدوية في بوق الحرية الايرانية. ومنذ ذلك الحين تمكنت حكومة ايران من ابقاء نفوذ روسيا بمقابلته بنفوذ انكتر وبالعكس. والنجاح في هذه الحطة يعزى الى شخصية رضا خان الذي نشأ من صفوف الجيش الى مقام وزير الحرية ورئيس للوزارة ورئيس موقت للحكومة المؤقتة التي اعلنت على اثر اسقاط اسرة قاجار في سنة ١٩٢٥ ثم اعتلى العرش في ديسمبر سنة ١٩٢٥ بمشيئة الامة وانشأ اسرة بهلوي الشاهانية في ايران. وقد كان غرض الشاه رضا بهلوي واضحاً لناظره منذ حمل السيف في خدمة بلاده، فلما بلغ المقام الذي يؤهله للعمل اتجه الى هدفين اساسيين اولهما السيادة التامة داخل البلاد والاستقلال التام في الخارج. ولكنه أدرك كذلك أنه اذا حققت ايران استقلالها المنشود فهي لا تستطيع المحافظة عليه الا اذا نظمت نفسها وأخذت بأساليب أوربا ما كاد رضا خان يزيل من طريقه العقبات السياسية الاجنبية حتى اتجه الى تأكيد سلطة الحكومة المركزية، على جميع انحاء البلاد، بعد ان كانت المناطق البعيدة عن العاصمة في حالة فوضى منذ منتصف القرن الماضي. وادرك انه لا يستطيع تحقيق هذا الغرض الا اذا كان



له قوة عسكرية في وسع الاعتماد على ولائها ، فيحثلها محلّ الوحدات العسكرية المواربة التي بقيادة الضباط الأجانب . فأنشأ في آخر سنة ١٩٢١ جيشاً إيرانياً قلباً وقالباً ووضعهُ تحت سلطة وزير الحرية ثم تولى بنفسه قيادة هذا الجيش فأخضع به البلاد كلها . فما اشرقت سنة ١٩٢٥ حتى كانت سلطة الحكومة المركزية مبسطة على كل إيران . وفي تلك السنة قرر المجلس النيابي وجوب تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج . وسُنّ قانون يجعل الخدمة العسكرية اجبارية ومدتها سنتان مستثنياً منها خريجي الجامعات

وقد اطردت الزيادة في عدد رجال الجيش الإيراني حتى بلغت في السنة الماضية بحسب ملحق دائرة المعارف البريطانية (١٩٣٨) ١٠٠ ألف جندي . وجميع ضباط الجيش إيرانيون وثلاثهم تلقى علومه العسكرية في فرنسا والمانيا . وهناك قوة عسكرية لصيانة الامن العام يطلق عليها اسم « الامنية » عدد رجالها نحو ١٢ ألف جندي وضابط . وقد روى لنا من سافر الى إيران ان رجالها يرتدون ملابس زرقاً فاتحة وقبعات كقبعات الجنود الفرنسيين وهم يسرون على الطرق أزواجاً بحرسونها . ولايران علاوة على ذلك اسطول بحري صغير في خليج إيران تلقى ضباطهُ تدريبهم البحري في إيطاليا ، وثمة كذلك نواة لسلاح جويّ . يقدر عدد طياراتها بمائة وخمسين طائرة حديثة معظمها على ما يقال من طراز « هوكر » و « ده هافيلاند »

وقوى الدفاع جميعاً خاضعة لاشراف الشاه المباشر ولا سيطرة للمجلس النيابي عليها . والانتظام في الجيش بحسب للشعب ولا سيما الشبان لما يتاح لرجاله من وسائل التعلم والتثقف ولما له من مقام واحترام احرزها منذ تولى الشاه اصلاحه وتعزيزه وجعله « يده البني » في انماض البلاد وتلا اصلاح الجيش وتنظيمه الاصلاح القضائي . ففي ١٩٢٧ جلست وزارة العدلية جميع المحاكم القديمة وشرعت في وضع قوانين جديدة واصدارها . فالقانون المدني ينص على حماية الملك والعقود وينظم الزواج والطلاق ويمنع المتعة . والقانون الجنائي ينص على حماية الحريات الخاصة وان كان الحكم أميل الى النوع الدكتاتوري . والقانون التجاري روعي في وضعه تنظيم الاعمال الاقتصادية والمالية فهو يقضي مثلاً بفرض نظام عام لامساك الدفاتر وبمنح الشركات « شخصية قضائية » اما التعليم والادارة فتستمد إيران ارشادها فيها من فرنسا . ذلك بان التركيز الاداري الذي اشتهرت به فرنسا يلائم احوال إيران والثقافة الفرنسية لها مقام خاص عند الإيرانيين . وفي كل سنة يعود طوائف من الشبان الإيرانيين الذين تلقوا العلم في فرنسا اما على حسابهم الخاص واما على حساب الحكومة ، للاشتغال بتوسيع نظام التعليم . فعدد المدارس تضاعف منذ سنة ١٩٢٢ والعناية متجهة بوجه خاص الى تعليم الحرف والصناعات والى ربط الخدمة العسكرية بالواجبات الوطنية . وتكثر المدارس البلية لخفض مستوى الامية في البلاد من ناحية ولتدريب موظفي الحكومة



تدريباً يمكنهم من الترقى في مناصب الحكومة من ناحية أخرى . ولا تزال المعاهد العلمية الأجنبية مثل كلية ستوارت النذكرية في اصفهان وكلية المرسلين الأميركيين في طهران تخرج شباناً مزودين بما يلزم من الكفاءة والوطنية لخدمة بلادهم

اما المشكلة الاقتصادية المعقدة التي واجهها الشاه رضا بهلوي في إيران ، فكانت اصلاح الحياة الاقتصادية في البلاد بعد ان أصابها الخلل والاضطراب على أثر دخول البضائع الاوربية الرخيصة اليها ومنافستها للصناعات الوطنية

أما الصناعة فلا تزال في مهدها . فأكبر مصنع في البلاد للنسيج لا يزيد عماله على ٥٠٠ عامل . وصناعة السجاد التي يصدّر ٩٥ في المائة من منتجاتها أصيبت اصابة شديدة في اثناء الازمة الاقتصادية العالمية ورفع الرسوم الجمركية في مختلف البلدان ولا سيّما في الولايات المتحدة الأميركية ، التي كانت تبتاع نصف ما تصدره إيران من السجاد . والزراعة لا تزال عمل ٨٠ في المائة من اهل البلاد بما فيهم القبائل الرحالة . وفي البلاد مصادر معدنية ثمينة ولكنها لم تستغل إلا قليلاً — اذا استثنينا النفط — وأهمها الحديد والفحم والنحاس والرصاص والمنغنيس والرخام والنيكل والكوبلت وقد بلغ ما استخرجته « شركة الانجلو برشان » من النفط من منطقة امتيازها في سنة ١٩٣٧ تسعة ملايين ونصف مليون من الاطنان

ثم هناك زراعة الخشخاش الذي يستخرج منه الافيون . فمن نحو اربعين سنة اضطرت إيران ان تعنى بزراعة نبات ينتج محصولاً يسهل نقله فأقبلت على زراعة الخشخاش حتى بلغ ٧٥ في المائة من الدخل العام و١٦ في المائة من الصادرات في سنة ١٩٢٦ ، من هذه الزراعة ولما كانت عصبية الامم معنية بالسيطرة على تجارة الافيون في مصادره ، أوفدت في سنة ١٩٢٧ لجنة الى إيران لدراسة الموضوع فيها . فقالت اللجنة في تقريرها ان محصول الخشخاش محصول يلائم إيران كل الملاءمة . فهو يزرع في الخريف ولذلك يروى بغير عناء عندما يكثر الماء . وقبلة ما يجنى منه من القدران الواحد يزيد اربعة اضعاف على ما يجنى من الحنطة ، فلذلك يسهل على أصحابه ان يتحملوا نفقات النقل العالية ، ثم انه يصدّر ولذلك يمكن البلاد من استعمال ثمنه في توفية ثمن ما تستورده من الخارج . ثم اقترحت اللجنة ان توجه الحكومة الايرانية عنايتها الى شق الطرق وخرن المياه وتحسين الاساليب الزراعية واناغاش الصناعة الكاسدة ، وان تباح للحكومة الايرانية ثلاث سنوات للبحث عما يصح ان يحل محل الخشخاش كمحصول زراعي ثم تشرع في نقص المساحة المزروعة منه ١٠ في المائة كل سنة بعد ذلك . فأنشأت الحكومة الايرانية « احتكار الافيون الحكومي » وجعلت زراعة الخشخاش خاضعة لرخص خاصة وضرائب خاصة وحظرت زراعته في اراض جديدة ووضعت برنامجاً قصت بواسطته على منع زراعة الخشخاش في



مناطق معينة. ومع ان الحكومة اعفت من الضرائب، تلك الاراضي المحولة من زراعة الحشخاش الى زراعة حاصلات اخرى، لم يكن ثمة بد من ان يكون هذا التحويل بطيئاً. فليس بالسهل ان يتحول الفلاح من زراعة نبات معين ألفه وألف اساليب العناية به الى زراعة نبات جديد، دع عنك الاستئناق من الملاءمة المفروضة بين الارض والنبات الجديد. وصادرات الافيون الايرانية آخذة في النقص المطرد حتى ان الجمعية العمومية لعصبة الامم وضعت قراراً خاصاً اعربت فيه عن تقديرها لما ابدته الحكومة الايرانية من التعاون وحسن النية في هذا الصدد

والحالة من الناحية المالية خير منها من الناحية الاقتصادية. فقواعد اصلاح المالى الذي بدأه الحبير الاميركي الدكتور ملسبو Millsbaugh في سنة ١٩٢٢ لا تزال هي هي، قواعد السياسة المالية المنبئة الآن وأهمها السعي سعيًا حازماً لتوفية النفقات من الدخل العادي. وبؤخذ من احصاءات سنة ١٩٣٤ ان ٢٠٤ في المائة من الميزانية جاء من الرسوم الجمركية و٢٢٤ في المائة من شركات الاحتكار ( السكر والشاي وعيدان الثقاب والتبغ والافيون والقطن وغيرها ) و ١٧٦ في المائة من الامتيازات الممنوحة للاجانب. اما النفقات فتها ٣١٤ في المائة للجيش والدفاع الوطني و ٥٧٢ في المائة للإدارة. وقد بلغت الميزانية في سنة ١٩٣٧ مبلغ ١٥٦٢٥٠٠٠ جنيه للدخل و ١٥٦٠٠٠٠٠ جنيه للنفقات. ويشهد جميع الكتاب الذين زاروا ايران حديثاً ان موازنة الميزانية من ابواب الدخل العادي لمواجهة النفقات التي تقتضيها مشروعات الحكومة المتعددة، عمل عظيم حقاً

وأهم ما يحتاج اليه البلاد من الناحية الاقتصادية الآن تمهيد طرق المواصلات. والحكومة الحالية جادة في هذا العمل وهي تنفق على مشروعاتها من مال ايران تقسماً بغير ان تلجأ الى عقد قروض اجنبية. ومن اهم هذه الطرق انشاء سكة حديد طوها ١٥٠٠ كيلو متر من خليج ايران الى بحر قزوين طرفاه بندر غازي على بحر قزوين وخور موسى على خليج ايران. والظاهر ان الاعتبارات العسكرية والسياسية مقدمة على الاقتصادية في هذه السكة، ولذلك قد تقضي سنوات قبل ان تصبح هذه السكة صدى للدخل، ولكنها ستكون ذات شأن عظيم في حفظ الامن العام وتعزيز وسائل الدفاع

ولعل الغاء الامتيازات الاجنبية أشهر مآثر الشاه رضا بهلوي في اصلاح ايران وتعزيز سيادتها واستقلالها. ففي سنة ١٩٢١ كانت الدول الاجنبية في ايران فريقين: فريقاً يتمتع أبنائهم بالامتيازات وآخر خاضع للمحاكم الابراية كروسيا وتركيا وافغانستان ودول أوروبا الجديدة. وكانت دول الفريق الثاني برمة بهذا التمييز. ولذلك جعل الروسون يسعون الى الغزو بالعودة الى نطاق الامتيازات لان ذلك يسهل عليهم بث دعايتهم في ايران ومنها الى حدود الهند.



أما بريطانيا فكانت تؤثر الخضوع المحاكم الإيرانية على التسليم بما يمكن روسيا من بث دعايتها على حدود الهند. فلم تقم عقبة ما من ناحيتها، دون رغبة الحكومة الإيرانية في إلغاء الامتيازات وقد ألغيت الامتيازات فعلاً في ١٠ مايو سنة ١٩٢٨. فكان ذلك فوزاً سياسياً كبيراً للحكومة طهران واحتفل بذلك اليوم احتفالاً قومياً. وعقدت بعد ذلك معاهدات مع الدول المختلفة أقرت فيها جميعاً بمساواة ايران لها. ولكن نص في معظم المعاهدات الجديدة على استثناء الاجانب المقيمين في ايران من مصادرة أملاكهم وحملهم بالقوة على العمل للدولة او الاشتراك في قروضها وما أشبه. وبإلغاء الامتيازات استعادت ايران حريتها في ما يتعلق بفرض الرسوم الجمركية وللحال شرعت في المفاوضات لعقد معاهدات تجارية جديدة. وانتهت جميع هذه المساعي في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ الى سن قانون خاص « باحتكار التجارة الخارجية » فقرضت الحكومة نظاماً من الحصص على الوارد اليها لكي تتمكن من تصحيح الميزان التجاري بين الصادر والوارد وما يتبع الإصلاح الاقتصادي والمالي، الإصلاح الاجتماعي، من حيث بث الروح الوطنية لتكون الرابطة القوية بين أبناء ايران وتحرير النساء والاستغناء عن الموظفين والخبراء الاجانب وما يتعلق بالملايس وغيرها

هذه الاعمال مكنت الشاه رضا بهلوي من تعزيز سلطة الحكومة المركزية وكسر شوكة السيطرة الاجنبية على مرافق البلاد. ومع ما أحرزته الحكومة الإيرانية من انتصارات باهرة في هذه الميادين لا يزال يتعين عليها ان تتي الضغط الروسي عليها بمقابلته بالضغط البريطاني، وان تتي الضغط البريطاني بمقابلته بالضغط الروسي

وجميع العوامل السياسية الخارجية، سواء أدولية كانت أم خاصة بها، تؤاينها على هذا فقد كانت خطة روسيا السوفيتية في بادئ الامر ان تحارب الرأسمالية في الغرب، باضاف الامبريالزم الاوربي في الشرق. ومع ان شيوعي روسيا يزعمون أنهم راغبون عن التوسع الامبراطوري ويميلون الى الشعوب المستعمرة او التي في حكم المستعمرة، لا يمكننا ان نغزو سلوكهم في ايران اذ قبلوا إلغاء الامتيازات والديون القيصريّة السابقة، الى روح الايثار فقط، بل ان جانباً منه لا بد أن يعزى الى رغبتهم في خضد شوكة بريطانيا في الشرق الاوسط والهند. ثم أنهم كانوا يرغبون في ان يجتذبوا اليهم جميع الشعوب المجاورة التي بينها وبين بعض القوميات الداخلة في اتحاد الجمهوريات السوفيتية صلة قرابة. وهذا هداهم الى انشاء كتلة من الدول في الشرق الاوسط اذ عقدوا معاهدات مع تركيا وايران وأفغانستان في سنة ١٩٢١

ولكن الروسين خسروا في حلبة الاعمال الاقتصادية ما كسبوه في ميدان السياسة ذلك بأن اعمال « قسم احتكار التجارة الخارجية الروسية » أثارت مقاومة تجار ايران واحتجاجهم وانها لت



على الحكومة الايرانية في سنة ١٩٣٤ مطالب التجار بأن تتوقف الحكومة عن معاملة روسيا  
او ان تجعل «قسم احتكار التجارة الخارجية الايرانية» شديداً كصنوه الروسي  
ثم جاء النزاع بين ستالين وتروتسكي ففاز ستالين، وتغلب القول بتطبيق الشيوعية في روسيا  
أولاً على الدعوة الى الثورة العالمية. ولذلك جعلت حكومة روسيا تكف عن مساعيها السياسية  
في البلدان المجاورة لها وقد انتهى هذا الاتجاه الروسي القائم على «المعيشة بسلام والتعاون مع  
الدول الرأسمالية» الى انتظام روسيا في عصبة الامم في سنة ١٩٣٤

ولكن على الرغم من ذلك لا تزال عناية روسيا بالشرق عظيمة. بل لعلها اعظم الآن  
مما كانت. ومتبعو تقدم روسيا الصناعي يؤكدون ان نصف ما انفقته الحكومة الروسية في  
مشروع السنوات الخمس الثاني أنفق في البلدان الواقعة الى الشرق من جبال الاورال. فانشاء  
المصانع الكبيرة في تلك المنطقة لا بد أن يفضي عاجلاً أم آجلاً الى البحث عن أسواق لمنتجاتها  
في البلدان المجاورة. إلا أن روسيا موجهة الآن معظم عنايتها الى الغرب والشرق الاقصى.  
فاهتمامها بالشرق الاوسط قليل، وفي هذا فرصة متاحة لايران لتعزيز مكائنها وتؤيد استقلالها  
أما بريطانيا العظمى قد شقت طريقاً جديداً في علاقاتها بايران بعد ان سوي الخلاف على  
مشكلة شركة النفط (الانجلو برشان) في سنة ١٩٣٣. ويمتد صك الامتياز الجديد الذي وقع  
في ابريل من سنة ١٩٣٣ ستين سنة وأقل نصيب تالته الحكومة الايرانية من أرباح الشركة  
هو ٧٥٠ الف جنيه في السنة — وقد بلغ في السنة الماضية نحو ٣ ملايين من الجنيهات — يضاف  
اليها مبالغ أخرى مثل مبلغ ١٠ آلاف جنيه لتعليم الايرانيين شؤون صناعة النفط. ثم ان السر  
جون كادمن المدير المقيم في طهران قام باسم الشركة بأعمال من شأنها أن توثق عرى التعاون  
بين الشركة وحكومة طهران. وقد عنيت الشركة باقامة مصنع لتكرير البترول في كرمنشاه  
بدفع اليه النفط بالضغط من حقل خانقين الواقع على حدود ايران العراقية. وقد كان نفط باكو  
الروسي محتكراً للسوق في شمال ايران لغلاء أجور النقل من عبادان على خليج ايران الى  
الشمال. فاعام مصنع كرمنشاه يمكن الشركة البريطانية من منافسة النفط الروسي في تلك المنطقة.  
واذا صرفنا النظر عن النزاع بين بريطانيا وايران على السيادة على جزر البحرين، كان في  
وسعنا ان نقول ان علاقات الحكومتين متسمة بسمه التفاهم والتعاون. وعلاوة على ذلك فبريطانيا  
تؤيد توثيق عرى التعاون بين دول الشرق الاوسط المتمثلة في ميثاق سعد آباد (طهران) الذي عقد  
في السنة الماضية بين تركيا وايران والعراق وافغانستان

ولعل أكبر نصر سياسي احرزته ايران الحديثة هو تحويل تركيا عدوتها القديمة الى صديق  
حميم. فقد كانت العلاقات بينهما على اثر انتهاء الحرب الكبرى مشوبة بالخفاء الشديد فلم تعقد



بينهما معاهدة صداقة حتى سنة ١٩٢٦ ثم تلاها اتفاق على التعاون الاقتصادي في سنة ١٩٢٨ فلما عينت الحدود في سنة ١٩٢٩ بين الدولتين اخذ اقطاب البلادين يتبادلون الزيارات الودية ولعل أشهرها زيارة الشام لا نقره واستانبول في شهر يونيو من سنة ١٩٣٤

وفي سبتمبر من تلك السنة، تزلت ايران عن ترشيح نفسها للمقعد الحالي في مجلس العصبة لكي لا تنافس تركيا عليه فردت تركيا النحية بمثلها في سبتمبر من سنة ١٩٣٧

وليس بين ايران وافغانستان ما يثير مشكلة ما. فقد كان الافغانيون جزءاً من الامبراطورية الفارسية ولا يزالون يتكلمون اللغة الفارسية. نعم ان مسألة الحدود بين الدولتين احدثت شيئاً من الجفاء في سنة ١٩٢١ ولكن الدولتين قبلتا تحكيم تركيا فمضت لجنة لتخطيط الحدود وذهبت الى المنطقة الخاصة في يونيو سنة ١٩٣٤ وتمكنت من حل الخلاف وعلى اثر ذلك دخل الفريقان في ميثاق سعد اباد (طهران) سنة ١٩٣٧

أما ايران والعراق فقد كان بينهما فتور نشأ عن توقف حكومة طهران عن الاعتراف بالدولة العراقية الجديدة واشترائهم لذلك منح الرعايا الايرانيين النازلين في العراق حق النفع بالامتيازات الاجنبية وابعاء الحكومة العراقية عليهم ذلك. على ان مسألة الاعتراف قد حلت بعد ذلك في سنة ١٩٣١ عقب زيارة الملك فيصل لطهران في شهر ابريل من تلك السنة فقد اعترفت الحكومة الايرانية بالدولة العراقية وعقدت معها اتفاقاً وقريباً وتبادلت معها الممثلين السياسيين ولما جاء دور البحث في تنظيم العلاقات السياسية والاقتصادية اثار الايرانيون مسألة الحدود مطالبين بتعديل التحديد ومعلنين انهم لا يعترفون باتفاق الحدود الذي عقد في سنة ١٩٢٣ بين ايران والدولة العثمانية بحجة ان برلمانهم لم يقره، وأصر العراقيون على رفض طلب التعديل لان الاتفاق قديم ولانه نفذ فعلاً

ولما تمسك الايرانيون بموقفهم وأبوا التساهل مع العراقيين رفع وزير الخارجية العراقية في سنة ١٩٣٣ الامر الى عصبة الامم طالباً منها التوسط لازالة الخلاف وحمل ايران على الاعتراف بمهمودها فانتدبت العصبة السنيور الوزيري مندوب ايطاليا لدرس الخلاف ثم عاد الفريقان في سنة ١٩٣٥ فسجبا بالاتفاق القضية على ان يحل بينهما باتفاق مباشر وقد تم ذلك فعلاً ففقدت في شهر يوليو سنة ١٩٣٧ سلسلة اتفاقات بينهما حلت بموجبها جميع المشكلات ونظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والقضائية بين البلادين على اساس ثابت. ثم دخل الفريقان معاً في الميثاق الشرقي الذي عقد في سعد اباد (طهران) عقب ذلك

واستقبلت علاقات الفريقين بعد هذا الاتفاق دوراً جديداً من الود والاستقرار وهي على افضل ما يرام في الوقت الحاضر



# مكتبة المقتطف

الجزء الثامن من الاكليل (١)

ترجمته الانكليزية — بقلم نبيه امين فارس — تمثها ٥٠ قرشاً — مطبعة جامعة برنستون

لشرفنا من أشهر مقالاً بقلم ادورد جرجي موضوعه « العلوم العربية في برنستن » أشار فيه الى المشروع الذي اخذ به الدكتور فيليب حتي رئيس دائرة العلوم الشرقية في تلك الجامعة العربية وهو نقل أمهات الكتب العربية الى اللغة الانكليزية وطبعها . وترجمة الجزء الثامن من الاكليل للهمداني من بواكير هذا المشروع العلمي العظيم الشأن

والهمداني من علماء جنوب بلاد العرب المشهورين ولد في صنعاء ولم يعرف تاريخ ميلاده وضرب في شبه الجزيرة العربية ثم عاد الى اليمن وزل في صعده . ثم سجن في صنعاء وكان سجيناً في عهد الامام الزبيدي أحمد الناصر ( حوالي ٩٢٧٥٣١٥ م ) ومات في سجنه . وأشهر ما اشتهر به الهمداني الجغرافية والاسفار ثم الشعر والنحو والانساب والتاريخ . وكتاب « صفة جزيرة العرب » من أقدم وأتم الكتب التي يعتمد عليها في دراسة بلاد العرب ولا سيما جغرافية البلاد وصلة قبائلها بعضها ببعض وبوجه خاص ما كان منها خاصاً بموطنه جنوب بلاد العرب وجنوب بلاد العرب كان على حضارة راقية ليس لنا من سبيل الى دراستها الا بعض الكتابات الحميرية التي كشفها جوزيف هاليفي ( ١٨٦٩ — ١٨٧٠ ) وادوار جلازر ( ١٨٨٢ — ١٨٩٤ ) إلا ان الهمداني كان من علماء الاسلام الذين عنوا بتلك الحضارة وكتب عنها ومن هنا ما للجزء الثامن من الاكليل من شأن كبير في دراسة احوال تلك البلاد قبل الاسلام

واذا ذكرنا الجزء الثامن من الاكليل فلائنه لم يصل لنا من أجزاء ذلك السفر النفيس الا جزآن الثامن والعاشر ، وأما الاجزاء الباقية فقد تطرقت اليها أيدي الحداث . والثامن الذي يهمننا في هذه الكلمة يكشف لنا « ان قدماء اليمانيين بلغوا اقصى الغاية في الرياضيات وجرر الاقال لانهم عرفوا كيف يشيدون قصوراً نفيسة متعددة الطباق حتى بلغت عشرين سقفاً ويقاوم بناؤها مر الأيام وطواريء الحداث . . . ثم انه يبين لنا كيف كانوا ينحتون تماثيل البشر والحيوانات والطيور ، ويظلمونها على إحكامهم عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة بالقطارات . . . » (٢)

ولا تزال قصورهم وسدودهم مضرب الامثال في اللغة العربية الى يومنا هذا

(١) The Antiquities of South Arabia, VIII Book of Al-Hamadani's Al-Iklil, Nabih Amin Faris, Princeton University Press 1938, \$2. 50

(٢) راجع ملحق طبعة الكرملي للجزء الثامن من الاكليل



وقد حفظ من الجزء الثامن من الاكليل نسخ متفرقة في المتحف البريطاني نسخة كتبت سنة ١٦٧٦ وفي المكتبة الملكية ببرلين نسخة يرجع تاريخها الى سنة ١٦٧٤ . وكان العلامة مولر D. H. Muller قد اهتم بنسخة المتحف البريطاني فنشر جزءا منها مع ترجمته باللغة الالمانية في سنة ١٨٧٩ . ولكن احداً لم ينشر نسخة كاملة من الجزء الثامن من الاكليل قبل الاب انستاس ماري الكرملي وذلك في سنة ١٩٣١ ( راجع مقتطف ابريل ١٩٣٢ صفحة ٨٧ ) وكان الدكتور حتي مهتماً باصدار نسخة تامة من هذا السفر النفيس بعد مقارنة المخطوطات المختلفة فلما ظهرت نسخة الاب الكرملي عدل عن ذلك ، ولكن مترجم هذا الكتاب لا يزال يرى ان نسخة الكرملي لا تغني عن نسخة اخرى اوفى تحقيقاً وتدقيقاً وشرحاً واسناداً

وكان الباحث على عناية الدكتور حتي في سنة ١٩٢٥ بالاكليل انه عثر على نسخة كاملة من الجزء الثامن في مجموعة مراد البارودي ببلن . ثم بيعت هذه المجموعة الى الثري الامير كي روبرت جارت وادوعها في خزانة جامعة برنستون التي تخرج فيها . وعلى نسخة الاب الكرملي المطبوعة ومخطوطة البارودي وما نشره مولر اعتمد نبيه امين فارس في اخراج الترجمة الانكليزية مشيراً في هوامشه الى نسخة الكرملي بالحرف K والى مخطوطة البارودي بالحرف B والى ما نشره مولر بالحرف لا وقد نبه في الهوامش على القراءات المختلفة وسعى الى تعريف كل اسم علم ومكان وحيث عجز عن تعريف بعضها أشار الى ذلك في الهوامش أيضاً . كما انه اضاف حواشي جغرافية وتاريخية ولغوية حيث رأى لزومها لتوضيح المتن ولم يحجم عن تجاوز ترجمة بعض الاشعار « كمراني حمير » لاسباب وجيهة ولكنه أشار الى كل حذف او تعديل في مكانه . وامله ان تسد الترجمة الانكليزية الثغرة الى حين ظهور نسخة عربية وافية

فالمتن المترجم في هذا الكتاب هو ما اصطفاه المترجم بعد المقابلة بين النسخ الثلاث وتدبر سياق المعنى والقرينة ، فاذا اختار قراءة إحدى النسخ أشار الى القراءتين الاخرين في الهامش ، واذا اصطفى قراءة خاصة به أشار الى ذلك أيضاً فيورد قراءات النسخ الثلاث ثم يتبعها بكلمة و « يرجس انها كذا » . في الهامش ٣٥ صفحة ١٤

يقول ( الكرملي : ذات خراب — ملر والبارودي : ذات خروب — ويجب ان تكون ذات جروب اي حجارة ) وكان هو قد اصطفى في المتن الانكليزي الكلمة التي معناها حجارة وفي الهامش ٦ صفحة ٢٩ اصطفى قراءة نسخة الكرملي مفضلاً ايّاها على قراءة البارودي وقراءة مولر وهما واحدة . وفي صفحة ٣٤ سطر ١٩ فضل ما ترجمته . البصر القديم على قراءة الكرملي والبارودي وهي القصر القديم وقراءة ملر وهي العصر القديم

وعلى هذا النسق من التحقيق اخرجت الترجمة الانكليزية لهذا السفر العربي النفيس



## كتاب الشذرات

At Random

تأليف الدكتور أحمد زكي أبو شادي

للدكتور أحمد زكي أبو شادي حيوية فذة نادرة ونشاط لا يكل فهو اذا فوجيء من ناحية بانع من الموانع تسرب من ناحية أخرى فعل الماء المتدفق الذي ينلحس كل منحدر وثقرة . وللدكتور أمل كبير في الانسانية قلما يعدله أمل وهو ليس أمل الجاهل لحقائق الحياة فانه قد يذكرها بسخط يدل على معرفته مقدار تغافل النقص في النفس البشرية ولكنك اذا قرأت كتابه هذا ولا سيما الاجزاء التي يصف فيها الدكتور الدواء للانسانية السقيمة المعذبة نسيت أنه يعرف مقدار النقص وما يقيمه من العراقيل والموانع . وخيل اليك خطأ أنه ساذج له أمل كبير في مستقبل الانسانية لانه لا يدرك العراقيل . ولكن هذا كما قلت من خطأ القارئ فالدكتور قد كان طبيياً للاجسام قبل ان يكون طبيياً للنفوس وللانسانية عامة وهو يعرف ان بين المرضى العبد الذي لا يتابع الطبيب ولا بد أنه قد رأى بين مرضاه من لم يفلح معه طب او دواء والطبيب الشاب في اول عهده بالطب قد يكون عالماً كبيراً وخبيراً بمهنته فيأمل ان يتغلب على مقاومة المريض بعلمه وخبرته ولكنه لا يضع أمام بصيرته خطة واضحة للتغلب على عناد المريض ومقاومته والدكتور المؤلف طبيب قديم وهو يصف العلاج ولا بد أنه قد عرف كيف يتغلب على عناد المريض ولكن ليعذرني الدكتور اذا قلت أنه يخيل الي أن الخطة التي يتخذها الماكرون من دهاة الاطباء في التغلب على عناد المرضى لم يتخذها الدكتور للتغلب على عناد الانسانية . على ان عناد الانسانية اساس حياتها وفيه نفع كبير فان الانسانية تستفيد من عاطفة المحافظة على القديم كما تستفيد من عاطفة التجديد والرغبة في التغير . ولا تنكر أنه اذا اختل التوازن بين العاطفتين وطغت واحدة على الاخرى كان الحلل الذي تعمل الحياة على محاربتها حتى يضمحل . والدكتور المؤلف يعتقد ان عاطفة المحافظة على القديم طاغية على عاطفة الرغبة في التغير والاصلاح وكل راغب في الاصلاح والتغير يعتقد مثل هذا الاعتقاد كما ان المحافظ على القديم يعتقد عكس ذلك اي يعتقد ان الرغبة في التغير والتجديد طاغية على الرغبة في المحافظة على القديم ونكاد نفرقها وكل منهما يعتقد ان التوازن قد اختل في حياة الناس في هذا العصر إما بسبب الرغبة في التغير وإما بسبب المحافظة على القديم . ولنعذ الى عناد الانسانية فأقول : اني لا أريد ان ألوم الدكتور وان أحثه على اتباع مكر الاطباء الدهاة فاني لا أعرف كيف يكون هذا المكر وربما كان غير لائق بالسكاليين ( Idealists ) أمثال الدكتور أبي شادي بل لعل قوة حركة



الاصلاح وشدّة جهود المصلحين كانت بسبب اندفاعهم فيما هم بسبيله من غير مكر او دهاء. ولعل المكر والدهاء من نقص التفاؤل والايمان بالمستقبل. أما ان الدكتور المؤلف اكثر تفاؤلاً مما تقتضيه حقائق الحياة فمسألة ترجع الى المزاج. ولقد صرت الآن لا أعتقد ان العقل هو السبب الاول في ايجاد المذاهب الفكرية بل أعتقد ان العقل خادم للمزاج والحياة في حاجة الى المفكر الكثير التفاؤل بل لعل الغلبة كانت في كثير من الاحايين للعقائليين الذين يشكلون حقائق الحياة بتفاؤلهم أشكلاً جديدة وان كانوا في أحيين أخرى كثيرة قد هزموا شرّ هزيمة بالرغم من تفاؤلهم. وقد أحسن الدكتور صنعاً بذكر المراجع التي يستطيع القارئ ان يرجع اليها للاستزادة من مادة فصول الكتاب ولاستئناف بحثها. ومهما خالف القارئ المؤلف في رأي أو آراء فانه لا يستطيع ان ينكر سعة اطلاعه وحسن نيته. والكتاب على اي حال ليس لكل قارئ. بل هو للقارئ المطلع الذي يستطيع ان ينتقد ما يقرأ من فصول الكتاب وان يناقشها لان كل فصل من فصول الكتاب لو انه كتب للقارئ غير المطلع لاحتاج الى تفسير اطول وإسهاب اعظم اذ ان المؤلف قد يكتفي بالإشارة الى الفكرة او المذهب او المبدأ العلمي او المؤلف او الجملة المقتبسة. وقد ذكر المؤلف الاسباب التي حملته على تأليفه باللغة الانجليزية ومنها ان يصل الى جميع القراء المثقفين الذين يستطيعون قراءة اللغة الانجليزية من مصريين وغير مصريين ولكن ليس معنى هذا ان ليس بين قراء اللغة الانجليزية من المصريين من هو شديد التمسك بالقديم كثير المحافظة عليه ولا أحسب ان الدكتور المؤلف قد فاته هذا الامر

والمؤلف يدعو الى حسن اختيار النسل الانساني ويرى انه أحسن وسيلة لترقية الانسانية ثم يصف الصفات التي تؤدي الى الحضارة العالية ثم يبحث أثر العبقرين في حياة الناس ويؤمن بجليل أثر العبقرية وان اساء الناس احياناً استخدام العبقرية ثم يبحث ايها اصلح الديموقراطية ام الدكتاتورية وهو ممن يؤمن بالديموقراطية بالرغم من الشكوك التي شرح اسبابها والتي شاعت في هذا العصر. ثم يبحث على التسامح الديني وحرية التفكير وعلى المساواة بين الرجل والمرأة ثم يحاول حل مشكلات العالم الاقتصادية واصلاح صلات الامم والاخلاق الدولية وينتهي برجاء وأمل كبير للانسانية. ولا نستطيع في هذه الكلمة الصغيرة الإشارة الى كل رأي من آراء الدكتور وبحته وبعض مبادئ الدكتور هي مبادئ الحضارة الغربية قبل طغيان النازية والفاشية. ومن أجل ذلك يؤمن بالديموقراطية بالرغم من عيوب القائلين بها ويرفض النازية والفاشية وما كان يستطيع المؤلف مع كثرة موضوعات كتابه ان يفصل الرد على حجج خصومه الفاشية ونظمها الاقتصادية مثلاً. وللمؤلف ايمان كبير بالتربية العالمية ويرى ان نشرها في العالم يؤدي الى رقي الانسانية والقضاء على كثير من شرورها فكأنما هي أكبر



الحياة التي طالما بحث عنه فلاسفة القرون الوسطى ولكنه مع ذلك يعرف ان الثقافة العالية لا يطلب بها كل آحاد الجماهير وان كان لا بد من غمر أذهانهم في عنصر الثقافة العلمية الحديثة كي يطمثوا اليها . ولكن في الكتاب آراء لم يأخذ بها جميع المفكرين بعد على ما أظن ومثل ذلك أنه في كلامه عن الاقتصاد لا يريد ان يكون المال المتداول على قدر رصيد الذهب بل على قدر ثروة الامة حتى الثروة العلمية والمعنوية وليعذرني الدكتور اذا شككت في امكان تطبيق هذا المبدأ فاني قد درست التاريخ وأعرف أنه كلما حاول الساسة تطبيق هذا المبدأ سببوا فوضى اقتصادية واربكاً وفاقه وتعاसे وتدهورت العملة وارتفعت الأثمان وربما كنت شديد المحافظة على القديم ولكن ربما كان الذنب ذنب دراستي للتاريخ ولبادئ الاقتصاد القديمة

وبالرغم من نزعة الكتاب العلمية وغشائه العلمي فان القارئ يحس فيه عاطفة الشعر ويلمح خياله في اساليب وصفه . ولعل عاطفة الشعر هي التي جعلته في بعض الاحايين لا ينسى خصومه حتى في بعض بحثه العلمي او لعله القلب الذي لكل انسان والذي يتألم فيتذكر فيكتب متأثراً بالله وذكره وان كان النسيان أروح وأسعد ان أمكن

( \*\* )

#### فقه اللغة — التذكرة (هامش)

بقلم محمد عبد الجواد ( استاذ فقه اللغة بدار العلوم العليا ) ١١٢ ص ، قطع المقتطف — مطبعة العلوم ، بشارع الخليج ، القاهرة

قد سبق للمؤلف ان نشر كتاباً في اللغة اسماء « التذكرة » ( مطبعة المعارف ، ١٩٣٥ ) ثم صنع له « تكملة » ( مطبعة المعارف ، ١٩٣٦ ) . واليوم يخرج « التذكرة » ، وهي — عندي — أعلى مرتبة وأتمّ نفعاً مما سبقها

« والتذكرة » اما هي تعليق على الالفاظ التي وضعها مجمع اللغة العربية الملكي في مصر . والتعليق تارة للموافقة والتعزيز واخرى للمجادلة والتفنيد . وقد اضاف المؤلف الى التعليق رسم اشكال الالفاظ الموضوعية . واحسن بهذا العمل الآخر

وللكتاب مقدمة لها شأنها ، أحب ان اذكر بعض ما فيها لصحته : ففي رأي المؤلف ان المجمع ينبغي له « ان ينظم محاضرات ودراسات لغوية ، في أبان الدورة او في غيرها ، يجمع اليها العلماء في مصر على الاقل ... ويحمل الناس على مشاركته في بحثه وعمله .. » ، وان يكون له مطبعة خاصة وإلا فليطبع مجلته في دار الكتب ، « وأن يرسل النشرات الى المدارس بما اقره من الالفاظ والمصطلحات العلمية والسائرة » وأن يقلع اعضاء المجمع عن « الاستئثار بعمله وحدهم دون ان يشركوا معهم مراسلين او نحوهم .. » وأن « يكثر المجمع ممن يستشيرهم في المواد الخاصة »



مما رآه المؤلف ولا أراه » ان يشغل المجمع الصحف بجلساته واخباره وتفاصيل ما يدور فيها أولاً فاولاً ، حتى لا تأتي قراراته فآترة في المجلة بعد فوات الوقت ، ذلك ان المجمع لا يندرج في نواحي الحياة العامة ، وإن هو الاّ لَحَقَّ لوزارة المعارف . فأتى له ان يشغل الناس بما يقع الى اعضائه من اسباب العلم والادب

بل قل انه ينبغي للمجمع ، نهاية كل انعقاد ، ان ينشر شبه بيان لما جرى في جلساته ، حتى يتدبره المشتغلون بالغة . ولكن هل يُعنى المجمع بأراء الغرباء عنه ؟

وأما أعماله فسائرة سير السلفاة ، للتنازع الذي بين طائفة المجددين فيه وطائفة المقلدين . وأما مجلته فتجمع فيما تجمع قصائد مدح وخطب استقبال الى جانب مقالات تردّها ، على غير كلفة ، الى ما سطره الأئمة المتقدمون ، وأخر بجرأة على قواعد لا ترجع الى علم عصري صحيح ، وآخر — وهي نادرة — تشف عن دراية واطلاع وطرافة ، ثم آخر — وهي النصلة بالالفاظ والاصطلاحات الموضوعية لا تسكن عطش الكتاب من ادباء وعلماء ولا عطش الاساتذة والمدرسين

هذا ومن الوجوه التي اصابها المؤلف في تعليقه : ان المجمع ترك « الميسرة والمسجنة مع عربيتها لفظاً واشتقاقاً » ليختار « المألج وهي فارسية » للدلالة على آلة البناء Truelle (ص ٣) — وأن المجمع خص لفظة « المشجر » بـ « شماعة الدهاليز التي تكون بها مرآة احياناً وبها تنوء تعلق بها المعاطف والقلائس ومكان خاص بالعصي والمظلات » على حين « لفظ المشجر كان احق بـ ( الشماعة التي اطلق عليها المجمع كلمة مشجب والتي في شكلها فروع كفروع الشجر ) ... لمقارنته للفظ وشكل الشجرة » ( ص ٤٥ ) — وثمة اقوال ساقها المؤلف في التعليق لا تكاد تثبت على النظر فيما اظن . منها :

— تفضيله لفظة « القصر » على لفظة « الطّزر » للدلالة على « القلا » ( ص ٨ ) لان « القصر » غلب عليه معنى خاص ، وهو يفيد Palace, Palais.

— رأيه انه من المستحسن اطلاق لفظ « رب المثنوى وربة المثنوى » قياساً على « رب البيت وربته » بدلاً مما ذهب اليه المجمع ، اي « أبو المثنوى وأم المثنوى » على رغم صراحة هذا النص الاخير ووروده في لسان العرب . ( ص ٩ )

بقي انه مما يورث الاسف ان في تضاعيف التذكرة طائفة من الغلطات المطبعية اللاحقة بالالفاظ الافرنجية ( مثلاً : ص ٢ ، ص ٢ و ١٢ ، ص ٢٣ ، ص ١ ، ص ٣٣ ، ص ١٦ ، ص ٨٦ ، ص ٥ ) والكتاب في مجلته جم الفوائد



## الاسلام في العالم<sup>(١)</sup>

تأليف الدكتور زكي علي — ٤٢٨ صفحة باللغة الانكليزية — طبع لاهور بالهند

هوذا طبيب مصري انقلب مؤرخاً واجتماعياً . فكان في كتابه هذا صلة بين الشرق والغرب . ذلك بأنه قد هاله ما رآه في بلدان الغرب من جهل بشؤون الاسلام ومفاخر الحضارة الاسلامية فأخذ على عاتقه ان يضع كتاباً مجلداً يستمتع به العامة وترضى عنه الخاصة فيكون رسول مودّة وفهم وعامل استقرار « لان كل خطة أوربية او غربية لا تقيم وزناً للاسلام وماله من قوة روحية دافعة نحو الاستقرار لا بد أن تديم الاضطراب والقلق في العالم وهما أصل متاعيه » . المقدمة صفحة X

والكتاب قسمان : الاول وهو يشتمل على تسعة فصول تغلب عليه النظرة التاريخية المشاركة ، فيها يلخص المؤلف تاريخ الاسلام وقواعده ومفاخر حضارته . ثمة فصل في سيرة النبي العربي الكريم . وآخر في الاسلام : دين ونظام اجتماعي . وآخر في الحضارة الاسلامية وهكذا . والبحث في جميع هذه الفصول آية في الوضوح وحسن السياق . والاسناد متعدد النواحي ، فالمؤلف رجع الى ما كتبه المؤلفون باللغات الافرنجية من انكليزية وفرنسية وألمانية ، رجوعه الى أمهات الاصول العربية وما نشر في هذا العصر من الكتب والرسائل في الصحف والمجلات

وأنت تخرج من هذه الفصول بصورة حيّة للدين الاسلامي ، وحيويته ومكانته في التاريخ . ففيها تقع على تصحيح لبعض الاخطاء الشائعة في الغرب عن أوامر الاسلام ونواحيه ، كما تقع على بسط طريف في وضوحه قوي في اسناده لمزايا الاسلام وأثره في الحضارة والاجتماع والقسم الثاني من الكتاب يعالج حاضر الاسلام ونواحي يقظته وتأثيرها في الحياة الدولية ، في أربعة فصول وملحق ، أما الفصل الاول فتنوانه يقظة الاسلام والثاني تحرر الاسلام والثالث الاسلام والشؤون الدولية والرابع الاسلام والعالم

ففي فصل « يقظة الاسلام » وهو الفصل العاشر يعرض للنهضة السياسية والاقتصادية والفكرية في بلدان الشرقين الأدنى والوسط . هنا تقع على ذكر الاعمال والمشروعات الكبيرة في هذه الرقعة التاريخية من سطح الكرة . وعنايته بالسياسة والاقتصاد لم تحجب عن عينه معالم النهضة الفكرية من اديبية وعلمية وما يبذل من السعي لتوثيق عرى التعاون الادبي والعلمي بين البلدان المختلفة . في هذه الصفحات يطالعك ذكر امراء القلم العربي في الشعر والقصة

(١) Islam in the World, by Zaki Ali, Published by Shaikh Muhammad Ashraf Lahore, India.



والتاريخ والنقد والعلم . ولكن البحث في هذه الناحية ليس قائماً على مجرد السرد بل على السعي لتبيين التيارات القوية الخفية من اجتماعية وسياسية ودينية وغيرها ولم يقصر المؤلف عنايته على الادب العربي في هذا الفصل بل عرّج على النهضة الحديثة في الاديان التركي والاراني باعتبارهما من الامم الاسلامية . ولم يحصر همه في اعمال الرجال بل خص به النهضة النسائية كذلك

وأما الفصل الذي يليه وهو فصل « تحرر الاسلام » فيحتوي على عرض طيب للتطورات السياسية الحديثة في « تركيا الكمالية » « ومصر المستقلة » وسوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق وشمال افريقية وإيران البهلوية وافغانستان والهند والشرق الاقصى

يقول المؤلف ما ترجمته في صفحة ٣٨٠ و٣٨١ و٣٨٢ : « الاسلام ليس ديناً فحسب بل هو كما ينبغي حضارة ايضاً ، فهو لا يوجه الشعائر الدينية فقط بل وينشئ المجتمع كذلك ، انه طريقة للحياة ، طريقة للتفكير والعمل ، « نظرة الى العالم » تشمل كل ناحية من النشاط الانساني . . . . . ومن الخطأ القول ان الاسلام لا يصلح للتقدم ، بمجرد مراقبته في دور معين من الركود او التكوّن الظاهر . ذلك بأن الاسلام يبحث على البحث ويحضر على العلم ، فنظرتة الى التقدم نظرة رضى . والاسلام قاعدته المساواة الاجتماعية والاقتصادية . . . . . ان شعار هذا العصر هو الاتحاد وأعظم حاجته الى الاخاء العالمي . وكلاهما قد حققا ضمن نطاق الاسلام . فجميع المسلمين اخوان ، وهذه الفكرة الحية تجمع حقيقة بين المسلمين كأنهم أعضاء أسرة واحدة . ولا تنفك فروق الطبقات واللون في الاسلام ، يستطيع مسلمان من بلدين مختلفين ان يتفاهما بأسرع ما يستطيعه عضوان في أية هيئة دولية . . . . .

وعلى هذا النمط من بيان مزايا الاسلام كديانة وحضارة ونظام اجتماعي يختم المؤلف كتابه بفصل « الاسلام والعالم » . ولكنه يلحق به صفحات تحتوي على احصاءات متنوعة خاصة بعدد السكان في الاقطار الاسلامية المختلفة ثم يليه ثبت المراجع وهو بملا نحو عشر صفحات ويحتوي على اكثر من مائة وخمسين مرجعاً من الكتب ونحو عشرين مجلة وجريدة

والدكتور زكي علي طيب مصري اشتغل بمستشفى قصر العيني بالقاهرة ثم سافر الى اوربا في بعثة طبية سنة ١٩٣١ فانصرفت عنايته هناك الى تأليف هذا الكتاب النفيس ، بلغة انكليزية تشهد له بطول الباع فيها . وقد أهدها الى سمو الحديوي السابق عباس حلمي الثاني ، لان سموه رماه واسعه بالمال في أثناء اشتغاله بتأليف سفره في أحوال مرهقة

والكتاب بوجه عام ليس دفاعاً عن الاسلام في المقام الاول بل هو عرض تاريخي اجتماعي لمزايا الاسلام ودعوة الى اتخاذ هذه المزايا أساساً لنظام عالمي جديد



## مصر والطرق الحديدية

تأليف محمد أمين حسونة — صفحاته ٤١٤ قطع وسط

لعل هذا الكتاب الاول من نوعه في اللغة العربية — بل في اية لغة على الاطلاق . فهو يتناول تاريخ المواصلات المصرية وبالاخص الطرق الحديدية . فجميع المؤلفات التي دون فيها تاريخ مصر الحديث ابنى لها مؤلفوها الا ان تكون خالية من البحوث المفصلة في شؤون السكك الحديدية ، وغاية ما احرزته من عناية ان لف هذا الموضوع المتشعب في سطور معدودة . وكذلك ظل تاريخ السكك الحديدية في مصر اسراراً متناثرة بين جوامع الاوراق الرسمية والتقارير الفنية لا يظهر منها الا النزر اليسير ولا تبدو من احد عناية باستخراج مطويها ولم شتاتها ، الا انهم بهذا الشأن فني اجنبي فينشر بلغته بعض الشيء عنه

والسكك الحديدية من مقاييس التقدم الاقتصادي في اي بلاد فهي الشرايين الحيوية التي يجري فيها دم الحياة الاقتصادية من بضائع وركاب . وقد كانت مصر في مقدمة البلدان التي اخذت بالسكك الحديدية ، وتاريخ سككها مرتبط باسماء اعلام الانكليز الذي استنبطوا هذه الطريقة من طرائق المواصلات ، أمثال جورج ستيفنسن وحفيد تريفثك . فقد كان الاول كبير مهندسي السكة والاشغال والثاني رئيساً لهندسة الواهورات واليهما يرجع الفضل في تحسين وسائل النقل بالبخار في مصر

فال موضوع من اي النواحي طرفته ، موضوع شائق مفيد . ومن العار ان ينشأ الطالب المصري وليس يعرف عن شبكة المواصلات الحديدية في وطنه الا امتدادها من القاهرة الى الاسكندرية وبور سعيد شمالاً والى أسوان جنوباً وما قد يكون لها من فروع فوق مصر الجغرافي ، وما بذل من الجهد العظيم لد السكك الحديدية الاولى في البلاد ، وما سبق ذلك من مفاوضات ، وما يرتبط به من انشاء الكباري العظيمة على النيل مد الخطوط الحديدية عليها ، وتطور ذلك وغيره مما يتعلق به من أيام عباس الاول الى عصر جلالة الملك فاروق ، يجب ان يكون قصة تجمع بين نواحي اللذة والفائدة

وقد تكفل بذلك الاستاذ احمد أمين حسونة ، فبعد ان قضى شهوراً يستعد لوضع هذا الكتاب ، بالبحث والتنقيب في المصادر والمراجع الرسمية المتفرقة ، علاوة على الكتب التاريخية لكي يستخرج منها ما كانت عليه أسباب المواصلات قبل مد السكك الحديدية ، جمع أمره على كتابة هذه الفصول النفيسة ، وقد أشار الى مراجعته العربية والاجمية ، الرسمية وغير الرسمية ، في ثبت نشر في صدر الكتاب ثم خص بعضها بالذكر في مقدمته



وقد رفع المؤلف كتابه الى مقام صاحب الجلالة الملك قائلاً فيما قاله « ومن المآثر التي تفخر بها مصر انها اول دولة في الشرق استخدمت القطار ، وهو رسول المدينة ورمز الحضارة ودليل الرقي ومظهر العمران ، يصفر فيبشر الناس بقوة العلم ومجد الانسان ، ويجري فيحمل اليهم شتى الارزاق والخيرات . . . »

ولم يكن المؤلف بدراسة تاريخ المواصلات في مصر قبل السكك الحديدية ، ثم تاريخ انشائها وتطورها ، بل عالج كذلك في آخر الكتاب موضوع النقل المائي وظهور السيارة والنقل الجوي ، وجميعها من الموضوعات الكبيرة الشأن من حيث المنافسة بينها وبين السكك الحديدية فالكتاب تاريخي من ناحية ، ومعاصر من ناحية أخرى ، وجميع الذين يهمهم هذا المظهر من النشاط الاقتصادي والاجتماعي في البلاد يجب ان يقتنوه

\*\*\*

ورد الى مكتبة المقتطف الكتب التالية وستولى الكتابة عنها في أعداد المقتطف التالية

- |  |  |
|--|--|
| مصر من مكتبة الشرق الاسلامية ومطبعها     | * ادارة الصفوف — وضعه الاستاذ                |
| بشارع محمد علي                           | أحمد سامح الخالدي — طبع بالمطبعة التجارية    |
| * الخواص الطبيعية للاراضي الزراعية       | بالقدس الشريف                                |
| — تأليف السيد محمد البحيري وحسن مصطفى    | * الانتداب الفلسطيني باطل ومحال —            |
| كامل — طبع بمطبعة وادي انفلوك بمصر       | وضعه الاستاذ وديع البستاني — طبع بالمطبعة    |
| * فن الجرائيم الجزء الرابع في تذكرة      | الاميركية ببيروت                             |
| الجرائيم في مخبره — تأليف الدكتور أحمد   | * تربية الحيوان الزراعي — تأليف              |
| حمدي الحياط — طبع بمطبعة الترقى بدمشق    | الدكتور احمد فاضل الحشن — طبع بمطبعة         |
| * أصول المحاكمات الحقوقية ، دروس         | الاعتماد بمصر                                |
| نظرية وعملية للاستاذ فارس الخوري — طبع   | * أصول الطب البيطري — تأليف                  |
| بمطبعة الجامعة السورية بدمشق             | الدكتور ابراهيم نجيب محمود — طبع بمطبعة      |
| * التشریح المرضي والجنائي بقلم الدكتور   | الاعتماد بمصر                                |
| محمد زكي شافعي والدكتور لبيب شحاته —     | * مروج الذهب ومعادن الجوهر ؛                 |
| طبع بمطبعة أمين عبد الرحمن بمصر          | أجزاء تصنيف الرحالة ابي الحسن علي المسعودي   |
| * احياء النحو لابراهيم مصطفى — طبع       | وقد راجع أصوله ورقمه محي الدين محمد عبد      |
| بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر | الحמיד وطبع بمطبعة دار الرجا ببغداد ويطلب في |



\* الفؤاديات ديوان شعر المرحوم فؤاد بك محمد جمعة الأديب عبد القادر يوسف طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

\* ضحايا مصر في السودان وخفايا السياسة الانكليزية طبع بمطبعة السفير بالاسكندرية

\* مطبوعات اتحاد اساتذة الرسم في الفنون الاسلامية للدكتور زكي محمد حسن طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

\* البلنديات ديوان شعر للشيخ حنا اسعد زخريا طبع بمطبعة ابو الهول بالبرازيل

\* خطرات الشعور منتخبات من قصائد ومقالات لديميري بك خلاط طبع بمطبعة البصير في الاسكندرية

\* صور ولحات من حياة طالب في اوربا تأليف جورج وهبه العفي طبع بمطبعة المجلة الجديدة

\* اسرار الانقلاب وضعه السيد عبد الرزاق الحسني طبع بمطبعة العرفان بصيدا

\* معلومات مدنية — تأليف محمود العابدي — طبع بدار الطباعة والنشر الفلسطينية في صفد — فلسطين

\* فلسطين العريضة بين الانتداب والصهيونية — تأليف عيسى السفري — طبع في مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة بيافا

\* تربية الحيول العربية الجزء الثاني — تأليف صاحب السمو الملكي الامير محمد علي — طبع بمطبعة علي عناني بمصر

\* على حافة العالم الاثري — ترجمة الاساذ احمد فهمي ابو الخير — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

\* البيان والبديع وضع وتصنيف الاسدي م. خير الدين — طبع بمطبعة العصر الجديد — حلب

\* شطب العبارات الجارحة من المذكرات والاحكام — لجمل خانكي طبع بالمطبعة العصرية بمصر

\*\*\*

### مطبوعات مجلة المكشوف

اهدت الينا دار مجلة المكشوف البيرونية طائفة مختارة من مطبوعاتها الادبية والاجتماعية بينها

- |                                      |  |
|--------------------------------------|--|
| ١ — كان ما كان — بقلم ميخائيل نعيمة  | ٥ — المجدلية — بقلم سعيد عقل               |
| ٢ — قبض الصوف — بقلم توفيق يوسف عواد | ٦ — ليلة القدر — بقلم احمد مكي             |
| ٣ — الباب المرصود — بقلم عمر فاخوري  | ٧ — ارجوحة القمر — بقلم صلاح لبكي          |
| ٤ — عمر افندي — بقلم لطفي حيدر       | ٨ — الاشتراكية العملية — بقلم ابراهيم حداد |



# فهرس الجزء الثاني

من المجلد الثالث والتسعين

١٣٣	تفسير طبائع العناصر بعدد الكهريات وترتيبها حول النواة
١٤٠	اسكر ( قصيدة ) : للشاعر الفرنسي بودلير . نقلها خليل هندوي
١٤١	تقدم علوم الطب : للدكتور شريف عسيان
١٤٩	اثر الحرب العامة في الادب العربي السياسي : لانيس المقدسي
١٥٦	فكتور هيجو شاعر الشعراء ( قصيدة ) : لراجي الراعي
١٥٧	الصدمة التي تشفي : علاج الجبل بالانسولين وتأثير صدمته في المدمنين
١٦٠	اثر الماركسية في الادب : لحليم ميري
١٦٩	الانسان المجهول : تلخيص اسماعيل مظهر
١٧٣	نجم العنز العجيب في صورة ممسك الاعنة
١٧٧	سنا بل من حقول العلم
١٨١	التصوف في الاسلام : للدكتور احمد غلوش
١٩٧	قبلة الروح !! ( قصيدة ) : لمحمد فهمي
١٩٨	حضارة المينانيين : بقلم قيصر صادر
٢٠٤	قبل ان تسكت الحياة ... ( قصيدة ) : لمحمد عبد الغني حسن
٢٠٥	الاسلام والرفق بالحيوان : للشيخ احمد مصطفى المراغي
٢١٠	كتابان من مصر يرجع تاريخهما الى القرون الوسطى : لبنات الحارث
٢١٣	مدام كوري : بقلم ايث كوري : نقلته الانسة مينرفا عبيد

٢٢٩	} في الفن الايراني : للدكتور زكي حسن ايران الحديثة ووجوه نهضتها الباهرة
٢٤١	

٢٤٨ مكتبة المقتطف \* الجزء الثامن من الاكليل : ترجمته بقلم نبيه امين فارس . كتاب الشذرات : تأليف الدكتور احمد زكي ابو شادي . فقه اللغة — التذكرة ( هامش ) تأليف محمد عبد الجواد . الاسلام في العالم : تأليف الدكتور زكي علي . مصر والطرق الحديدية : تأليف محمد امين حسنة . مطبوعات مجلة المكشف ومطبوعات عربية أخرى